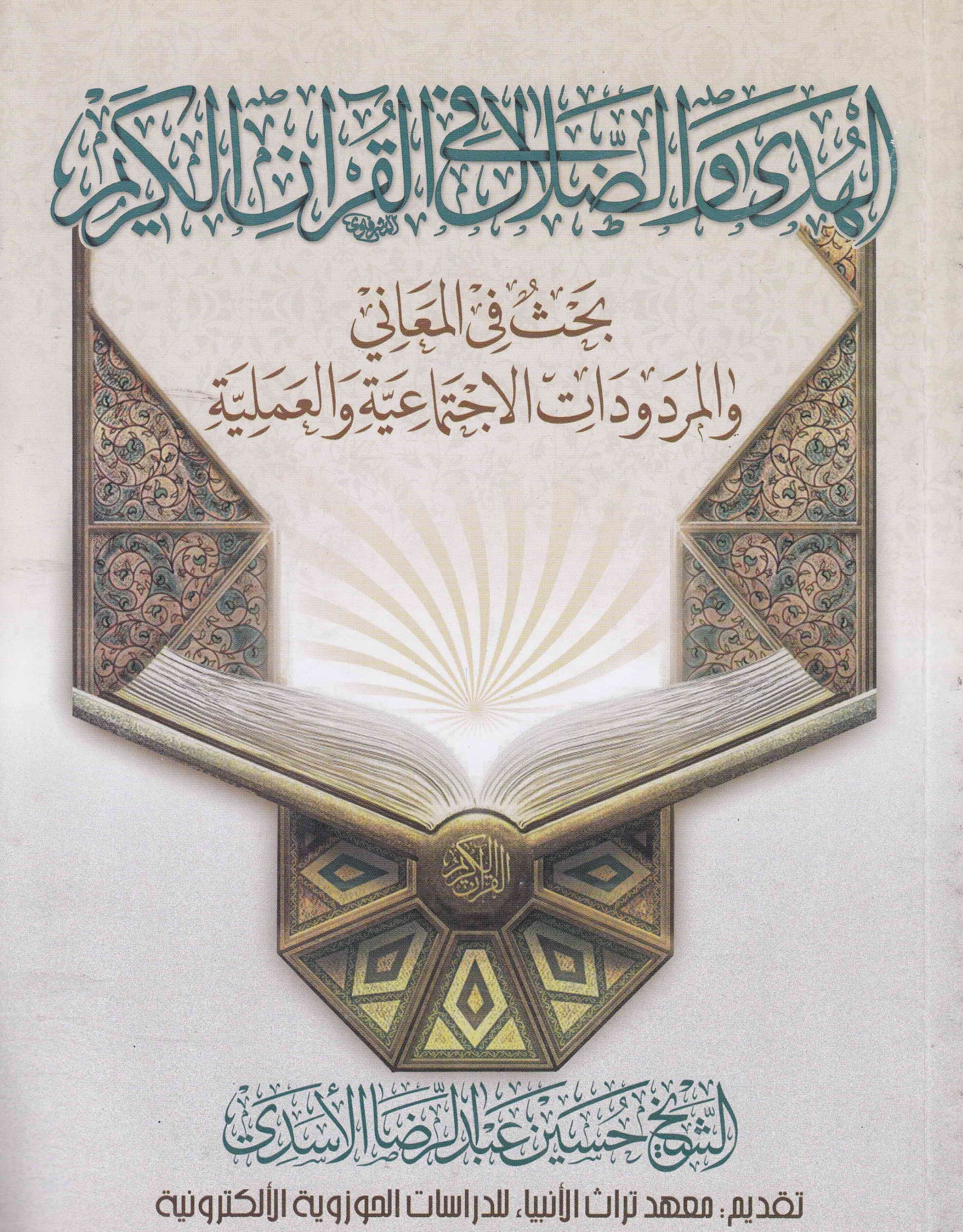
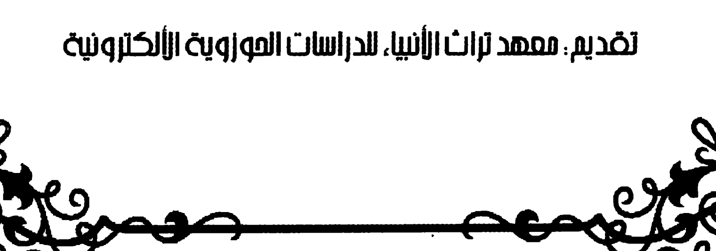

الهدى والضلال في القرآن الكريم
بحث في المعاني
والمردودات الاجتماعية والعملية
القرآن الكريم
الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي
تقديم: معهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الألكترونية

الهدى والضلال في القرآن الكريم

بحث في المعاني
والمردودات الاجتماعية والعملية

الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي

تقديم: معهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الألكترونية





الهدىٰ والضلال في القرآن الكريم

(بحث في المعاني والمردودات الاجتماعية والعملية)

تأليف

الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي

تقديم

معهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الإلكترونية
الطبعة الأُولىٰ: ١٤٣٨هـ
العدد: ١٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة المعهد:

لقد حثَّت النصوص من القرآن الكريم والروايات الشريفة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام علىٰ طلب العلم وتحصيله، ومن جملة تلك النصوص قوله تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ۞﴾ (العلق: ١ - ٥).

وهذه السورة علىٰ قول أكثر المفسِّرين أوَّل ما نزل علىٰ النبيِّ صلى الله عليه وآله، وتدلُّ بوضوح علىٰ أنَّ أفضل النعم التي منحها الله للإنسان هي نعمة العلم.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ۞﴾ (الزمر: ٩).

وفي هذه الآية استفهام استنكاري، استنكاراً للمساواة بين العالم وغير العالم.

وروي في كتاب المحاسن عن ابن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اغْدُ عالماً أو متعلِّماً، وإيّاك أن تكون لاهياً متلذِّذاً»[1].

---

(١) المحاسن للبرقي ١: ٢٢٧/ ح ١٥٤.

وفي حديث آخر: «وإيّاك أن تكون من الثلاثة متلذِّذاً»(١).

وفي أمالي الصدوق عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام: «تعلَّموا العلم، فإنَّ تعلّمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة، لأنَّه معالم الحلال والحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنَّة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، وسلاح علىٰ الأعداء، وزين الأخلّاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمَّة يُقتدىٰ بهم، تُرمَق أعمالهم، وتُقتَبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلَّتهم، يمسحونهم بأجنحتهم في صلاتهم، لأنَّ العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمىٰ، وقوَّة الأبدان من الضعف، يُنزل الله حامله منازل الأبرار، ويمنحه مجالسة الأخيار في الدنيا والآخرة، بالعلم يُطاع الله ويُعبَد، وبالعلم يُعرَف الله ويُوحَّد، وبالعلم تُوصَل الأرحام، وبه يُعرَف الحلال والحرام، والعلم إمام العقل، والعقل تابعه، يلهمه الله السعداء، ويُحرمه الأشقياء»(٢).

وكلُّنا يعرف صعوبة طلب العلم بكلِّ أصنافه في الأزمنة الماضية وما يتطلَّبه من جهد ومال وتعب، لكن بالعلم ذاته أصبح طلب العلم متيسِّراً لكلِّ إنسان وإن كان حبيساً في بيته، لأيِّ علَّة أو سبب.

إنَّ معهد تراث الأنبياء في النجف الأشرف هو من المشاريع الرائدة في هذا المجال، والتي صيَّرت الدراسة الحوزوية التمهيدية في متناول أيدي جميع الناس بمختلف شرائحهم، لكي يرتقوا بعد ذلك في سُلَّم العلم، وليأخذوا حظّاً وافراً من العلوم التي تُصيِّرهم بعد ذلك أهلاً للانخراط في الحوزات العلمية، أو أن يبقوا في مجتمعاتهم كشريحة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أمالي الصدوق: ٧١٣/ ح (٩٨٢/ ١).

مثقَّفة متديِّنة متفقِّهة، تعرف أُصول دينها وفروعه، كي يُورِّثوها لأجيالهم جيلاً بعد جيل، وليحسنوا تربيتهم وتقويمهم.

ومن الجدير بالذكر أنَّ المعهد أُنشئ قبل عام واحد فقط، وقد تجاوز عدد الطلبة المسجِّلين فيه (١٧٥٠) طالباً وطالبةً من مختلف دول العالم من الصين وأمريكا وأُوروبا وبلاد المغرب العربي وغيرها.

فالمعهد أُوجِد من أجل تسهيل مهمَّة طلب العلم، لمن لا يستطيع الوصول إلىٰ منهله ومرتعه: النجف الأشرف، ولا يعني هذا الاستغناء به تماماً، بل المعهد وما يبثّه من دروس ومحاضرات إنَّما يُمثِّل الخطوة الأُولىٰ في مجال طلب العلم، وعلىٰ من أراد الاستمرار أن يسعىٰ لأكثر من هذا.

إنَّ من أولويات المعهد - بالإضافة إلىٰ الدراسات الحوزوية الإلكترونية - هو نشر وطباعة البحوث والمؤلَّفات العلمية لطلبة وأساتذة الحوزة العلمية في النجف الأشرف، لما في ذلك من خدمة عظيمة نُقدِّمها لطالبي المعرفة في كلِّ مكان.

ومن ضمن مهامِّ المعهد، طباعة الكتب التي تهتمُّ بالجوانب المعرفية والقرآنية والاجتماعية المختلفة، لما في ذلك من دعم لمسيرة الكُتّاب، وتنمية لجوانب المعرفة، والكتاب الذي بين يديك هو الإصدار الثالث في سلسلة إصدارات المعهد، وهو كتاب (**الهدىٰ والضلال في القرآن الكريم**) لمؤلِّفه (الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي)، حيث تعرَّض فيه لبيان معاني الهدىٰ والضلال الستَّة في القرآن الكريم، وقد قدَّم لها تمهيداً فيه عدَّة مقدّمات، وختمها باستخلاص النتائج، ليخرج القارئ بعد مطالعته لهذا الكتاب بفكرة تصوّرية تفصيلية عن مفهوم الهدىٰ والضلال في القرآن

الكريم، وستنعكس تلك التصوّرات علىٰ عمله وسلوكه الخارجي ليحكي عن إيمان وتسليم مطلقين بأفعال الله تعالىٰ الحكيمة، الذي شاء أن يُبقي علىٰ إرادة الإنسان واختياره، ليظلَّ الإنسان مسؤولاً عن أفعاله وتصرُّفاته.

فنسأل الله تعالىٰ أن يُوفِّقه ويُوفِّقنا لمزيد من العلم والعمل الصالح.

معهد تراث الأنبياء
للدراسات الحوزوية الإلكترونية

الإهداء

إلىٰ الهادي من العمىٰ، والمنقذ من الضلال..

إلىٰ الرحمة المهداة إلىٰ العالمين..

إلىٰ العالِمِ الذي ينهل من علمه الأوَّلون والآخرون..

إلىٰ الشفيع الذي يتوسَّل بربِّه لينقذ أُمَّته..

إليك أنت يا رسول الله..

أُهدي عملاً بالنقص موصوفاً، وبالخجل مشفوعاً..

فاقبله يا سيِّدي..

فأنت تقبل هدية الفقير..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلّف:

الحمد لله الهادي إلىٰ السبيل، والمنقذ الإنسان من الضلال والتضليل، بلطفه في إرسال أنبيائه، وعطفه في تعيين أوصيائه. والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنام، رسول الله الأعظم ونبيِّه الأكرم محمّد المصطفىٰ، وآله الطيِّبين الطاهرين المعصومين الهادين المهديّين.

وبعد..

إنَّ من السُّنَن الكونية في هذه الحياة، هي سُنَّة التدافع والتزاحم بين مفردات وموجودات هذا العالم المادّي، ذلك لأنَّ كونه عالماً مادّياً يعني فيما يعنيه أنَّ الفُرَص المتاحة مهما كثرت، فإنَّها لا تُغطّي المساحة المتزايدة من الرغبات والطلبات، إلَّا إذا تمَّ تقنين الاستفادة من تلك الفُرَص، ورسم الطرق المثلىٰ لذلك.

ومن هنا كان واحداً من أهمّ أهداف رسالات السماء هو العمل علىٰ تنظيم العلاقات الفردية والجماعية وفق نظام الحقوق والواجبات، ذلك النظام الذي إذا التزم به الأفراد، وعرف كلٌّ واحد ما له من حقوق فأخذها بقدرها، وما عليه من واجبات فأدّاها بصدق وإخلاص، لعاش الناس في هذه الحياة عيشة مطمئنَّة هادئة، لا يكون همٌّ لهم فيها سوىٰ التسابق في الأُمور المعنوية وما يزيد من قربهم من الكمال المطلق. قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣).

هذا أوَّلاً.

وثانياً: أنَّ الرسالات السماوية عموماً، والرسالة الإسلاميَّة بالخصوص، وإن جاءت فيما جاءت لأجله لتنظيم تلك العلاقات، ولكن سُنَّة التدافع والتزاحم ما زالت تعمل، لذلك لا تجد رسالةً ولا رسولاً إلَّا وقد وقف بالضدِّ منه من يعمل علىٰ تقويض حركته، ومن يسعىٰ جهده إلىٰ الإطاحة بنظريات رسالته.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (الأنعام: ١١٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفىٰ بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً ﴿٣١﴾﴾ (الفرقان: ٣١).

وهذا الوقوف علىٰ الطرف النقيض، ومحاولة تسقيط الرسالة والرسول، قد أخذ طُرقاً ملتوية متعدِّدة، منها التالي:

١ - اتِّهام الرسول ببعض الصفات التي تُقلِّل من شأنه وتُضعِّف من شخصيته، وبالتالي ليقلَّ تأثيره علىٰ الناس، كاتِّهامه بالكهانة، أو الكذب، أو السحر، أو الشعر، أو التعلُّم من غيره، أو من الكتب الأُسطورية القديمة، وغيرها ممَّا صرَّح به القرآن الكريم في أكثر من مناسبة.

٢ - التشكيك بحجّية أقوال النبيِّ ﷺ، وتنزيل شخصيته إلىٰ مستوىٰ البشر العاديين من هذه الناحية، الأمر الذي يعني احتمال خطئه أو اشتباهه أو نسيانه أو حتَّىٰ تعمُّده الكذب وإخفاء أو تزوير الحقائق.

عن عبد الله بن عمرو، قال: كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أُريد حفظه، **فنهتني قريش عن ذلك**، وقالوا: تكتب ورسول الله ﷺ يقول في الغضب والرضا! فأمسكتُّ، حتَّىٰ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب فوَالذي نفسي بيده ما خرج منه إلَّا حقٌّ»[١].

٣ - محاولة العبث بالتراث الديني الذي يحفظ الرسالة الأصيلة، بالدسِّ فيه، والتزوير في حقائقه، والتحريف في مصادره، الأمر الذي يؤدّي إلىٰ اختلاط الحابل بالنابل، وبالتالي فقدان الثقة في كلِّ مصادر الدين، ممَّا يُضعِّف من تبعية الأفراد له.

٤ - العمل علىٰ إيجاد ثغرات معرفية أو تناقضات علمية في مصادر معارف الدين، حيث تذكر بعض الوثائق التاريخية أنَّ هناك مجموعة من الرجال ممَّن عندهم نوع من المعرفة والتخصُّص، قد أخذوا في يوم ما بالعمل علىٰ نقض القرآن مثلاً، الأمر الذي يعني نقض الرسالة المحمّدية من أساسها.

وقد تجاوز الإسلام هذه العقبة بفضل إعجاز القرآن البلاغي تارةً، وبفضل وقوف وتصدّي أهل البيت عليهم السلام لتلك التيّارات والحركات الفردية والجماعية تارةً أُخرىٰ.

فمن ذلك ما رواه هشام بن الحكم، قال: اجتمع ابن أبي العوجاء، وأبو شاكر الديصاني الزنديق، وعبد الملك البصري، وابن المقفَّع، عند بيت الله الحرام، يستهزؤون بالحاجِّ ويطعنون بالقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالَوا ننقض كلُّ واحد منّا ربع القرآن، وميعادنا من قابل في هذا الموضع، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كلَّه،

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٩٢.

فإنَّ في نقض القرآن إبطال نبوَّة محمّد، وفي إبطال نبوَّته إبطال الإسلام، وإثبات ما نحن فيه، فاتَّفقوا علىٰ ذلك وافترقوا.

فلـمَّا كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء: أمَّا أنا فمفكِّر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فما أقدر أن أضمَّ إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكُّر في ما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكِّر في هذه الآية: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجّ: ٧٣]، ولم أقدر علىٰ الإتيان بمثلها.

فقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكِّر في هذه الآية: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، لم أقدر علىٰ الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفَّع: يا قوم، إنَّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكِّر في هذه الآية: ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤]، لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر علىٰ الإتيان بمثلها.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك، إذ مرَّ بهم جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

فنظر القوم بعضهم إلىٰ بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصيَّة محمّد إلَّا إلىٰ جعفر بن محمّد، والله ما رأيناه قطُّ إلَّا هبناه واقشعرَّت جلودنا لهيبته، ثمّ تفرَّقوا مقرّين بالعجز[1].

ومنه أيضاً ما روي من أنَّ إسحاق الكندي الذي كان فيلسوف العراق في زمانه أخذ في تأليف تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك وتفرَّد به في منزله، وأنَّ بعض تلامذته دخل يوماً علىٰ الإمام الحسن العسكري، فقال له أبو محمّد عليه السلام: «أمَا فيكم رجل رشيد يردع أُستاذكم الكندي عمَّا أخذ فيه من تشاغله القرآن؟».

فقال التلميذ: نحن من تلامذته، كيف يجوز منّا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟

فقال له أبو محمّد: «أتؤدّي إليه ما أُلقيه إليك؟».

قال: نعم.

قال: «فصر إليه وتلطَّف في مؤانسته ومعونته علىٰ ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأُنسة في ذلك فقال: قد حضرتني مسألة أسألك عنها، فإنَّه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلِّم بهذا القرآن، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلَّم منه غير المعاني التي قد ظننتها أنَّك ذهبت إليها؟ فإنَّه سيقول لك: إنَّه من الجائز، لأنَّه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يُدريك لعلَّه قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه، فيكون واضعاً لغير معانيه».

فصار الرجل إلىٰ الكندي وتلطَّف إلىٰ أن ألقىٰ عليه هذه المسألة فقال له: أعد عليَّ، فأعاد عليه، فتفكَّر في نفسه، ورأىٰ ذلك محتملاً في اللغة وسائغاً في النظر، فقال: أقسمت عليك إلَّا أخبرتني من أين لك؟

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٤٢ و١٤٣.

فقال: إنَّه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك.

فقال: كلَّا، ما مثلك من اهتدىٰ إلىٰ هذا ولا من بلغ هذه المنزلة، فعرِّفني من أين لك هذا؟

فقال: أمرني به أبو محمّد.

فقال: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلَّا من ذلك البيت، ثمّ إنَّه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألَّفه[1].

وثالثاً: عندما نُطالع آيات القرآن الكريم، تواجهنا مجموعة من المفاهيم التي قد يُوحي ظاهرها بما لا تهواه الأنفس، أو بما يتناقض مع الأُصول العامَّة والثابتة للإسلام، أو بما يُوهِم تدخُّل الله تعالىٰ المباشر في إغواء بني آدم، الأمر الذي يعني أنَّ عقاب الفرد ممَّن ينطبق عليه ذلك المفهوم سيكون ظلماً أو عبثاً أو لهواً، وهو ما لا يتوافق مع أُصول الحكمة والعدل والرحمة واللطف الإلهيَّة.

ومن هذه المفاهيم هو مفهوم **(الهدىٰ)** وما يقابله من مفهوم **(الضلال)**، حيث تنسب بعض الآيات الكريمة (الهدىٰ) إلىٰ الله تعالىٰ، وهذا أمر قد يفرح به من يهديه الله تبارك وتعالىٰ، ولكن ماذا عن نسبة (الضلال) و(الإضلال) له جلَّ وعلا، إنَّ هذا المفهوم إذا لم تتمّ معالجته بصورة علمية وواضحة، فلربَّما أشكل الأمر علىٰ كثير من الناس، ولربَّما اتَّهم بعضهم ربَّ العزَّة والجلال بأنَّه يُضِلُّ بعضاً رغماً عنهم، فكيف يسوغ له أن يعاقبهم بعد هذا!؟

وسيراً علىٰ منهج أهل البيت عليهم السلام في هداية الناس وردِّ الشُّبَه عن الدين القويم، ورغبةً في ثواب تعليم أيتام آل محمّد عليهم السلام، فقد شرع الأُستاذ والمربّي الفاضل سماحة السيِّد جعفر بن السيِّد عبد الصاحب بن

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ٥٢٥ و٥٢٦.

مرجع الطائفة السيِّد محسن الحكيم قدس سره بإلقاء دروس تخصُّ العقيدة الإسلاميَّة في شرح كتاب (تجريد الاعتقاد) للمحقِّق الطوسي رحمه الله في مقاصده المتعلِّقة بأُصول الدين[1]، وفي مباحث العدل الإلهي استطرد سماحته في ذكر معانٍ ستَّة للهدىٰ والضلال في القرآن الكريم[2] نقلاً عن بعض شرّاح التجريد[3]، وقد عاد لبيانها وتوضيحها وإضافة فوائد لها في درسه الخارج في علم الكلام[4]، فكانت هذه المحاضرات هي البذرة الأُولىٰ لكتابة هذه الأوراق.

فشكر الله سعيه، ورزقنا من فيض علمه، وجعله وإيّانا وإيّاكم ممَّن يعرفون الحقَّ ويتَّبعونه، ويُنكِرون الباطل ويُبغِضونه، قولاً وعملاً.

والشكر موصول إلىٰ الأخ العزيز سماحة الشيخ حسين الترابي مدير معهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الإلكترونية، التابع للعتبة العبّاسية المقدَّسة، لما أولاه من اهتمام بطباعة هذا الكتاب، ليكون هو الإصدار الثالث في سلسلة إصدارات معهد تراث الأنبياء للدراسات الحوزوية الإلكترونية التابع للعتبة العبّاسية المقدَّسة، فالله تعالىٰ أسأل أن يمدَّ في عمره في طاعته.

---

(١) قد رتَّب المحقِّق الخواجة نصير الدين الطوسي رحمه الله كتابه (تجريد الاعتقاد) علىٰ ستَّة مقاصد، كان المقصدان الأوَّل والثاني يعالجان مسائل الفلسفة، والأربعة الأخيرة تعالج مسائل أُصول الدين.

(٢) وذلك في النجف الأشرف - مسجد الطريحي، ضمن محاضرتين في يوم الثلاثاء (٢/ جمادي الأوَّل/ ١٤٣٠هـ) المصادف (٢٨/ ٤/ ٢٠٠٩م)، ويوم السبت (٦/ جمادي الأوَّل/ ١٤٣٠هـ) المصادف (٢/ ٥/ ٢٠٠٩م).

(٣) وهو السيِّد الطهراني حسب نقل الأُستاذ أدامه الله تعالىٰ.

(٤) وذلك في النجف الأشرف - مسجد الشيخ الطوسي، في شهر جمادي الآخر عام (١٤٣٨هـ - آذار ٢٠١٧م)، ضمن سبع محاضرات متسلسلة.

وقد رتَّبتُ هذا الكتاب علىٰ تمهيد فيه عدَّة مقدّمات، وفصول ستَّة يعالج كلُّ فصل منها معنىٰ من معاني الهدىٰ وما يقابله من معنىٰ الضلال، وخاتمة.

أسأل الله ﷻ أن يتقبَّله بقبوله الحسن، وأن يرزقنا حسن العاقبة.

حسين عبد الرضا الأسدي

النجف الأشرف

الجمعة (٢٦/ شوّال/ ١٤٣٨هـ)

(٢١/ تمّوز/ ٢٠١٧م)

تمهيد

في هذا التمهيد نذكر عدَّة مقدّمات تُمثّل مدخلاً مهمّاً للخطوط العامَّة لهذا الكتاب، ولفهم المعاني الستَّة للهدىٰ والضلال، وهي التالي:

المقدّمة الأولىٰ:

كثيرة هي المواضيع العقائدية المرتبطة بمصير الإنسان وحياته النهائية، حيث إنَّها ترتبط بشكل وبآخر بسلوكه العملي، والاعتقاد بها - علىٰ نحو الصواب أو الخطأ - له ذلك الأثر - إيجاباً أو سلباً -.

ومن أهمّ تلك المواضيع هو موضوع الهداية والإضلال.

فمن هو الهادي؟ ومن هو المضلُّ؟

أليس هو الله تعالىٰ بنصِّ القرآن الكريم!؟

ومعه، فكيف يُعذِّبنا الله تعالىٰ علىٰ ضلالنا إذا كان ذلك بسببه؟

وكيف نستحقُّ ثواباً إذا كانت الهداية منه أيضاً؟

إنَّ عدم الفهم الوافي لهذا الموضوع أدّىٰ بالبعض إلىٰ إنكار ما لا يقبل العقل التشكيك به، فأنكروا اختيار الإنسان، وقالوا - ولو بلسان الحال -: إنَّه مجرَّد آلة تُنفِّذ ما يريده الجابر منها، وهو حسب فرضهم الله تعالىٰ، و بالتالي أنكروا ضرورة أن يكون الله تعالىٰ عادلاً أو حكيماً، وأنَّه لا يجب أن يكون فعله تعالىٰ حكيماً حتَّىٰ يصحَّ منه جبر البعض علىٰ أن يكونوا ضالّين مضلّين ومع ذلك يُعاقبهم!

والحقُّ أنَّ هـذا الموضـوع يحتـاج إلىٰ متابعـة دقيقـة وتأمُّـل عميـق حتَّـىٰ يمكن فهم معنىٰ الهدايـة والإضـلال مـن الله تعـالىٰ، وقـد شـمَّر علماؤنـا عـن سـواعد الجدِّ لينقبـوا عـن الحقيقـة، ووجـدوها فبثّوهـا دُرَراً مسـتوحاة مـن القـرآن الكـريم وكـلام النبـيِّ الأعظـم ﷺ وأهـل بيتـه الطـاهرين عليهم السلام، وبيَّنـوا أنَّ للهدايـة والضـلال معـانٍ عديـدة، وسـبرها يكشـف عـن حقيقـة الأمـر، تلـك الحقيقـة التـي لا تنفـي اختيـار الإنسـان ولا حكمتـه تعـالىٰ ولا عدله، بل تدلُّ علىٰ ذلك بدلالة مؤكَّدة وغير قابلة للتشكيك.

وسيكون البحث هنـا حـول تلـك المعـاني للهدايـة والضـلال، علـماً أنَّ مصـبَّ الكـلام هـو دراسـة تلـك المعـاني فـيما يتعلَّـق بالإنسـان علـىٰ الخصـوص، وبـما يرجـع عليـه بمـردود عمـلي يُحـدِّد سـلوكه ويغـيره، وبـما يرجع إلىٰ المجتمع بالتطوّر والاستقرار.

والحقيقـة، أنَّ تربويـات الـدين وأدبياتـه قـد أشـبعت هـذه الجوانـب الإنسانية والاجتماعيـة بمردوداتهـا العمليـة، ومطالعـة آيـات القـرآن الكـريم وكلـمات الرسـول الأكـرم ﷺ وأهـل بيتـه الطـاهرين عليهم السلام فيهـا غنـىٰ للباحث في هذا المجـال، وهـذا طبعـاً لا يمنـع مـن مطالعـة كلـمات العلـماء في شـتّىٰ المجـالات، خصوصـاً مجـال علـم الـنفس وعلـم التنميـة البشـرية، لمـا لهذه العلوم من أثر مباشر علىٰ السلوك الفردي والاجتماعي.

المقدّمة الثانية:

هنـاك خطـأ شـائع، يتعـاطىٰ مـع جملـة مـن المفـاهيم علـىٰ أسـاس أنَّهـا مفـاهيم متواطئـة، أي إنَّ لـه مرتبـة ودرجـة واحـدة لا تقبـل إلَّا النقـيض أو الضـدَّ في قبالهـا، أو قـل: إنَّ أمرهـا يـدور بـين الوجـود والعـدم، في الوقـت التي هي من المفـاهيم المشـكَّكة، أي إنَّ لهـا درجـات ومراتـب، فـالعلم مـثلاً،

مفهوم لا يدور أمره بين الوجود والعدم، بحيث يقال: فلان إمَّا عالم أو لا، وإنَّما هو مفهوم له مراتب متعدِّدة، أشبه شيء بالسُّلَّم، ولذلك برز فيه مفهوم أفعل التفضيل، فقيل: عالم وأعلم، وهكذا بقيَّة المفاهيم المشكَّكة، كالجود، والنجاح، وما شابه.

إنَّ التعاطي - خصوصاً التعاطي العملي - مع المفاهيم بصورة متواطئة، سوف يؤدّي إلىٰ خلل فكري في الكثير من البحوث العلمية والعملية، ولن نتمكَّن من علاجها إلَّا إذا فتحنا باب التشكيك والمراتب فيها.

وينبغي التنبيه إلىٰ أنَّ المفاهيم الوجودية وإن كانت تُعبِّر عن صفات للوجود، والوجود - كما قالوا في الفلسفة - مفهوم مشكَّك، فتكون تلك الصفات التي تُعبِّر عنه مشكَّكة أيضاً، ولكن في نفس الوقت هناك مفاهيم تُعبِّر عن المراتب العليا للوجود بحيث لا يكون لها مراتب، وذلك مثل مفهوم (اللامتناهي)، فإنَّه مفهوم يُعبِّر عمَّا به الامتياز لا الاشتراك، أي إنَّه يُعبِّر عن امتياز مرتبة اللامتناهي عن جميع ما عداها من مراتب الوجود، فهناك مرتبة واحدة تُوصَف باللاتناهي، وبهذه الصفة امتازت عن جميع مراتب الوجود المتناهية، فتكون صفة اللاتناهي تعبيراً عمَّا يُميِّز تلك المرتبة عن غيرها، من دون أن تشاركها أيُّ رتبة أُخرىٰ في هذه الصفة.

ومن هذا القبيل الصفات التي تُمثِّل الخطوة الأُولىٰ للوجود، فإنَّها متواطئة أيضاً لا مشكَّكة، مثل مفهوم (العدل)، فإنَّ العدل ذو صيغة واحدة ثابتة، فإمَّا أن يوجد العدل وإمَّا لا، ففي أيِّ مستوىٰ تفرضه لا يتحقَّق فيه العدل يكون ظلماً، لا أنَّه عدل بمستوىٰ متدنّي مثلاً.

هذا بلحاظ أصل المفهوم طبعاً، بغضِّ النظر عن التطبيقات، فقد يوجد قاضٍ يحكم بالعدل في مائة قضيَّة ولكنَّه لا يعدل في قضيَّة واحدة، فحينئذٍ يمكن القول بعدالته النسبية أو ذات المراتب، فيقال بأنَّه عادل في تلك المائة وظالم في هذه الواحدة، وهذا مستوىٰ آخر من البحث لا دخل له بأصل المفهوم، وقد يوجد قاضٍ ظالم في جميع قضاياه، أو آخر ثالث في جميعها، فهذا موضوع آخر غير ما نحن فيه.

المقدّمة الثالثة:

الهدىٰ لغةً: (الرشاد والدلالة بلطف إلىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب)[1].

والضلال: (ضدُّ الهدىٰ والرشاد. وقال ابن الكمال: الضلال فقد ما يوصل إلىٰ المطلوب، وقيل: سلوك طريق لا يوصل إلىٰ المطلوب. وقال الراغب: هو العدول عن الطريق المستقيم، وتضادُّه الهداية)[2].

أمَّا في القرآن الكريم، فمعنىٰ الهدىٰ والضلال لا يختلف كثيراً عن المعنىٰ اللغوي العامّ لهما، ولكن مع الالتفات إلىٰ التالي:

إنَّ مطالعة آيات القرآن الكريم فيما يتعلَّق بموضوعنا تكشف بصورة جليَّة أنَّ مفهوم (الهدىٰ) و(الضلال) من المفاهيم المشكَّكة لا المتواطئة، وبالتالي فله عدَّة مراتب، كما سنعرف ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

فيقول القرآن مثلاً حكايةً عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً ﴿١٣﴾﴾ (الكهف: ١٣).

فالقرآن يُصرِّح بأنَّ الله تعالىٰ قد زاد أهل الكهف هدىٰ، ممَّا يعني أنَّ (الهدىٰ) له مراتب يمكن أن تزيد ويمكن أن تنقص.

---

(١) تاج العروس للزبيدي ٢٠: ٣٢٧/ مادَّة (هدىٰ).

(٢) تاج العروس للزبيدي ١٥: ٤٢٠/ مادَّة (ضلل).

ومن هنا فقد ذكر بعض العلماء[1] أنَّ للهدىٰ والضلال معانٍ ستَّة، أو قل: مراتب ستَّة، ولكلِّ معنىٰ أو مرتبة منها شاهد قرآني، كما سيأتي في محلِّه إن شاء الله تعالىٰ[2].

وكتوضيح معجَّل لهذه الحقيقة، نذكر نموذجين من الآيات التي تعرَّضت للهدىٰ:

النموذج الأوَّل: قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ (طه: ٥٠)، وقوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ (الأعلىٰ: ١ - ٣).

---

(١) وهو السيِّد الطهراني في شرحه علىٰ التجريد حسب نقل الأُستاذ السيِّد جعفر الحكيم في مجلس درسه.

(٢) هذا، وقد انتهىٰ الراغب الأصفهاني في مفرداته إلىٰ أنَّها أربعة في القرآن، قال في مفرداته (ص ٥٣٨ و٥٣٩) ما نصُّه: (وهداية الله تعالىٰ للإنسان علىٰ أربعة أوجه: **الأوَّل**: الهداية التي عمَّ بجنسها كلَّ مكلَّف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعمّ منها كلّ شيء بقدر فيه حسب احتماله، كما قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]. **الثاني**: الهداية التي جعل للناس بدعائه إيَّاهم علىٰ ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [السجدة: ٢٤]. **الثالث**: التوفيق الذي يختصُّ به من اهتدىٰ، وهو المعنيُّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً﴾ [محمّد: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ... وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]. **الرابع**: الهداية في الآخرة إلىٰ الجنَّة المعنيُّ بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [محمّد: ٥]، ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدانا لِهذا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وهذه الهدايات الأربع مترتِّبة فإنَّ من لم تحصل له الأُولىٰ لا تحصل له الثانية، بل لا يصحُّ تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله).

النموذج الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة: ٢).

فأنت تلاحظ أنَّ نبرة الكلام في طرح الهدىٰ في هذين النموذجين مختلفة، فبينما تكون النبرة الأُولىٰ عامَّة لجميع المخلوقات بلا استثناء، تكون الثانية مختصَّة بفئة خاصَّة من الموجودات هم البشر، بل وبفئة خاصَّة من البشر هم المتَّقون.

وهذا يكشف عن أنَّ الهدىٰ في النموذج الأوَّل من الآيات ليس بنفس المعنىٰ الذي أخذه النموذج الثاني.

المقدّمة الرابعة: اللطف المحصِّل والمقرِّب:

قسَّم علماء الكلام اللطف إلىٰ قسمين: اللطف المحصِّل، واللطف المقرِّب.

ويُعنىٰ من المحصِّل التالي:

١ - بعد أن أوجد الله ﷻ الإنسان في هذا العالم، فإنَّه خَلَقه من أجل هدف معيَّن، يريد منه تشريعاً وباختياره أن يصل إليه، فهذا هو مقتضىٰ الحكمة الإلهيَّة.

٢ - أنَّ هذا العالم لم يُنظَّم بصيغة تتوفَّر فيها مقتضيات الوصول إلىٰ الهدف من دون أيِّ موانع وعقبات، فإنَّه وإن كان ممكناً في حدِّ نفسه ولكنَّه خلاف الواقع، ولو كان كذلك لكنّا مجتمعاً ملائكياً لا بشرياً.

وكذلك فالعالم لم يُنظَّم بصيغة تتوفَّر فيها الموانع والعقبات من دون أيِّ تسهيلات وعلامات توصل إلىٰ الهدف، بحيث إنَّه لا تجد إلَّا المثبِّطات من دون أيِّ حوافز، فهذا الاحتمال وإن كان ممكناً في حدِّ نفسه أيضاً ولكنه جزاف وعبث وخارج عن قدرة الإنسان، فكيف يمكن

للإنسان أن يصل إلىٰ هدفه من دون أن يعرف ما هو أو كيف يصل إليه أو مع تعجيزه وإقعاده رغماً عنه!؟

إنَّ هذا الاحتمال في حقيقته علىٰ غرار:

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتلَّ بالماءِ[1]

فالعالم إذن نُظِّم بصيغةٍ تتوفَّر فيها الموانع، وإلىٰ جنبها تتوفَّر مقتضيات وشروط الوصول إلىٰ الهدف، بحيث توفَّر لدىٰ الإنسان كلُّ ما يتوقَّف عليه مسيرُهُ نحو الهدف.

٣ - وهذا يعني أنَّ الوصول إلىٰ الهدف في الوقت الذي رُسِمَ طريقُهُ بكلِّ وضوح بحيث لم يبقَ عليه أيُّ تشويش أو ضبابية، لكن صاحَبَه العديد من الموانع والعقبات التي لا بدَّ للإنسان فيها من بذل الجهد لتجاوزها بإرادته واختياره.

وهذا التوازن بين الموانع والعقبات من جهة، وبين المقتضيات والشروط للوصول إلىٰ الهدف من جهة أُخرىٰ، هو ما يُسمّىٰ باللطف المحصِّل.

أو قل: إنَّه توفير الشروط التي لا يمكن للإنسان أن يصل إلىٰ هدفه من دونها، لأنَّ في الطريق عقبات يحتاج إلىٰ ما يساعده في تجاوزها، وتلك المقتضيات والشروط هي ما تساعده علىٰ ذلك، فتوفيرها إلىٰ جنب الموانع هو اللطف المحصِّل.

٤ - ومن هذا يتبيَّن أنَّ اللطف المحصِّل ليس شيئاً خارجاً عن مقتضىٰ (العدل الإلهي)، إذ العدل يقتضي توفير تلك المقتضيات إلىٰ

---

(١) البيت لأبي مغيث الحسين بن منصور الحلّاج، راجع: وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢: ١٤٣/ الرقم ١٨٩.

جنب الموانع، ويبقىٰ علىٰ الإنسان تفعيل اختياره في توفير والاستفادة من أكبر قدر ممكن من المقتضيات والشروط، وليرفع ما يمكنه من الموانع والمثبِّطات.

فاللطف المحصِّل إذن هو ترجمة واقعية للعدل الإلهي في وجود الكون بعيداً عن الظلم والجبر.

وأمَّا اللطف المقرِّب، فبيانه التالي:

إنَّ العدل الإلهي يقتضي إيجاد توازنات بين المقتضيات والموانع كما تقدَّم، أمَّا زيادة التسهيلات للوصول إلىٰ الهدف زائداً علىٰ العدل الإلهي فهذا الأمر ليس واجباً، وعدمه لا يُخِلُّ بالعدل، فلا يجب علىٰ الله تعالىٰ بمقتضىٰ العدل أكثر من تلك التوازنات.

ولكن الله تعالىٰ من حيث جوده وكرمه وتفضُّله ومنُّه ورحمتُه قد يُوفِّر عوامل الخير بعدد أكثر وبنوعية أكبر من عوامل الشر، قد يُقدِّم تسهيلات إضافية بحيث تفتح فرصاً أكثر وتُعبِّد طرقاً أوسع للوصول إلىٰ الهدف، بحيث لو - **وهذه ملاحظة مهمَّة** - أراد الإنسان أن يُشغِّل ويُفعِّل عقله واختياره، فإنَّه سوف يلمس تلك التسهيلات ويستفيد منها أكثر، رغم وجود الصعوبات والعقبات.

إنَّ توفير تلك التسهيلات وعوامل الخير الإضافية التي تجعل الاختيار الإنساني يتَّجه باتِّجاه فعل الخير من دون أن تُسلَب إرادته، هي ما يُسمّىٰ باللطف المقرِّب.

إذا تبيَّن هذا، نقول معجَّلاً:

إنَّ معاني الهداية ستَّة، فالهداية التكوينية العامَّة وهداية العقل والدعوة والتشريع، هي من نوع اللطف المحصِّل. وأمَّا هداية اللطف،

فهي من نوع اللطف المقرِّب. وأمَّا هداية الفلاح، فهي نتيجة العمل الذي يعمله الإنسان في هذه الحياة، وستتعرَّف تفاصيل هذه المعاني الستَّة إن شاء الله تعالىٰ.

اللّهمّ إنَّك تقبل اليسير وتُعطي الكثير الجزيل، ولك الحمد علىٰ كلِّ نعمة أنعمت بها علينا تعذَّر علينا إحصاؤها. والصلاة والسلام علىٰ أشرف خلقه أجمعين محمّد وآله الطاهرين.

وإنَّ معاني الهداية والضلال ستَّة، تأتي في فصول:

* * *

الفصل الأوّل:

الهداية التكوينية العامّة

الهداية التكوينية العامَّة:

وهي بمعنىٰ تزويد كلِّ موجود عموماً بما في ذلك الإنسان بإمكانات ذاتية وطبيعية تعينه علىٰ الوصول إلىٰ غايته. وهذه الهداية عامَّة لكلِّ موجود، فإنَّه تعالىٰ جعل كلَّ موجود، سواء كان من الموجودات العلوية (المجرَّدة والمثالية) أو السفلية (المادّية)، جعل فيه ما يهتدي به إلىٰ صلاح حياته وأُموره، كغريزة التكاثر عند الحيوان، والهروب من العدوِّ، وجمع القوت، وفهم بعضهم عن بعض منطقها، وكاهتداء الشمس والقمر والنجوم في مسيرها اليومي...، ولا يشذُّ عن هذه الهداية موجود من الموجودات، فإنَّه تعالىٰ خلق ما خلق ودبَّر أمره.

وبعبارة أُخرىٰ: إنَّ عالمنا هذا هو عالم الحركة والاستكمال، وواحدة من مبادئ الحركة هي الغاية ووجهة الحركة.

وهداية التكوين تعني أنَّ الله تعالىٰ حينما أوجد العالم متحرِّكاً، فليس من الصحيح أن تكون حركته عشوائية ومن دون هدف، لأنَّه خلاف الحكمة، فلا بدَّ أن يكون له هدف. وبعد أن أوجد الله تعالىٰ العالم، وجعل له (بوصلة) تؤدّي إلىٰ (الهدف)، فلا بدَّ أن يوجد معه آلات ووسائل تساعده في الوصول إلىٰ ذلك الهدف، فخلق فيه الهواء والماء والتراب وغيرها من العناصر الضرورية لاستمرار الحياة، كما وجهَّز الإنسان بالإرادة والقدرة وأدوات المعرفة و...، وإلَّا فمن دون تلك الوسائل والآلات يكون الوصول إلىٰ الهدف ضرباً من المحال، وهو علىٰ غرار:

ألقـاه في الـيمِّ مكتوفـاً وقـال لـه إيّـاك إيّـاك أن تبتـلَّ بالمـاءِ[1]

فالهدف، وإمكانات الوصول إليه، هو معنىٰ هداية التكوين هنا.

إنَّ عـدم تحديـد (هـدف) لمفـردات هـذا العـالم، يسـاوق أن تنـتج (النخلة) ثمرة (الليمـون)، وهـذا هـو معنـىٰ العشـوائية! أو أن تكتـب شـعراً باللغة العربية، فيُحوِّله القلم إلىٰ بذور تزرعها في الأرض!

والدليل علىٰ الهداية بهذا المعنىٰ:

مـن العقـل: (هـو دليـل الحكمـة ونفـي العبـث)، فحيـث ثبـت أنَّ الله تعـالىٰ حكـيم ولا مكـان للعبـث في فعلـه، فمـن المستحيل أن يُوجِـد هـذا العالم المتحـرِّك في كـلِّ مفرداتـه، ثـمّ لا يُحـدِّد لـه الهـدف، أو يُحـدِّده مـن دون تزويده بالوسائل التي تساعده في الوصول إلىٰ هدفه.

ومـن النقـل: قولـه تعـالىٰ: ﴿قَـالَ رَبُّنَـا الَّذِي أَعْطَـىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ (طه: ٥٠).

وقولـه تعـالىٰ: ﴿سَـبِّحِ اسْـمَ رَبِّـكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَـقَ فَسَـوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ (الأعلىٰ: ١ - ٣).

الضلال التكويني:

إذا عرفنـا معنـىٰ الهدايـة هنـا، أمكننـا أن نتعـرَّف علـىٰ مـا يقابلهـا مـن (الضلال).

والضلال في هذه المرحلة يكون بأحد أمرين:

الأمـر الأوَّل: إعـدام الإمكانـات المشـار إليهـا، أي عـدم تـوفير هـذه

(١) البيت لأبي مغيث الحسين بن منصور الحلّاج، راجع: وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢: ١٤٣/ الرقم ١٨٩.

الإمكانات والوسائل للوصول إلىٰ الهدف، وقد تقدَّم أنَّ دليل الحكمة ونفي العبث ينفيه، فلا يُتصوَّر وقوع هذا المعنىٰ من الضلال في عالمنا.

الأمر الثاني - وهو المهمُّ -: إيجاد الموانع والعقبات في طريق الوصول إلىٰ الهدف.

وهذا المعنىٰ وجداناً حاصل، فأنت في طريق حركتك نحو الهدف والتكامل، تجد ألف عقبة ومانع، فالأمراض، والآفات، والهرم، وعدم توفُّر الفرص بسهولة، والزلازل، وحتَّىٰ الموت، كلُّها تقف في طريقك نحو التكامل.

وهذا الأمر ينبع من الحقيقة التالية:

إنَّ عالمنا - عالم المادَّة - مبنيٌّ في أصل وجوده علىٰ أساس نظام الأسباب والمسبَّبات، والموانع تدخل ضمن مفردات أسباب هذا العالم، باعتبار أنَّه عالم التزاحمات والتدافع، فظهور ظاهرة (الموانع) طبيعيٌّ جدّاً هنا.

لو فرضنا أنَّنا أردنا عالماً من دون أيِّ تزاحمات، فهذا الفرض ليس محالاً علىٰ الله تعالىٰ، بل هو قادر عليه بلا أدنىٰ شكٍّ، وإنَّما أمره فيه أن يقول له: كن فيكون، ولكنَّه سيتحوَّل حينها إلىٰ عالم آخر غير عالم الإنسان، سيتحوَّل إلىٰ عالم (الملائكة)، وهذا خروج عن حقيقة عالم المادَّة.

فما دمنا نتحدَّث وعالم المادَّة، إذن وجود الموانع سيكون أمراً طبيعياً فيه، وإلَّا لم يكن عالم المادَّة.

إنَّ وجود الموانع في عالم المادَّة لا يُخالف الحكمة أبداً، باعتبار أنَّ الإنسان موجود مختار، فلا بدَّ أن يُفعِّل اختياره وإرادته ليعمل علىٰ إزالة تلك الموانع، هكذا أراد الله تعالىٰ، ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ۝٦﴾ (الانشقاق: ٦).

فهذا هو عالمنا، عالم الكدح والتعب والنصب، عالم الموانع التي صارت شعلة وهّاجة لتفجير طاقات الإنسان وإبداعاته الكامنة في مواجهة تلك الموانع، الأمر الذي أدّىٰ إلىٰ ظهور شطر كبير جدّاً من التطوّر الذي نعيش مفرداته اليوم، فلولا الزلازل لما بنىٰ العقل البشري عمارات مضادَّة للزلازل، ولولا الأمراض لما تطوَّر علم الطبِّ وتفرَّع إلىٰ هذه الفروع التي يصعب عدُّها، ولولا التقلُّبات الجوّية لما اخترع أجهزة التبريد والتدفئة التي أضفت راحة كبيرة علىٰ الحياة...

وهذا معناه أنَّ فكرة تزويد الإنسان بالإمكانات (الهداية العامَّة المتقدِّمة)، لا تقتضي إيجاد عالم ليس فيه إلَّا مقتضيات وشروط الوصول بلا أيِّ تزاحم، وإلَّا لصار عالمنا عالم ملائكة، وحيث إنَّه لا بدَّ من التزاحم، إذن لا بدَّ من الموانع.

لقد شاء الله تعالىٰ أن يبني هذا العالم وفق هذا النظام، فلا وجود للوصول المجّاني فيه، وإنَّما لا بدَّ من بذل الجهد لاستغلال تلك الإمكانات المتاحة. ورغم إيجاده ﷻ لتلك الموانع، إلَّا أنَّه جلَّ وعلا أوجد إلىٰ جنبها نظاماً تكوينياً وهدايةً عامَّةً تُمكِّن الإنسان من التغلُّب علىٰ تلك الموانع والمزاحمات، تماماً كنظام (الإشارات المرورية)، فإنَّه في الوقت الذي يُمثِّل (عائقاً) من الانطلاق من دون توقُّف، ولكن لولاه لانقطع الطريق تماماً، فكثرة السيّارات في الشارع تُمثِّل (عائقاً) و(مزاحماً) من الوصول، فكان إيجاد نظام الإشارات المرورية التفافاً علىٰ تلك التزاحمات ليُنظِّمها ويتغلَّب عليها، وبالتالي سيصل كلُّ فرد إلىٰ مقصده بأسرع وقت ممكن. لكن ذلك النظام احتاج عقلاً وفكراً وجهداً حتَّىٰ توصَّل الإنسان إليه.

والنتيجة من كلِّ هذا هي التالي:

إنَّه رغم وجود (الموانع) في هذا العالم، لكن (الهداية العامَّة) أوجدت إلىٰ جنبه ما يستطيع الإنسان من خلاله أن يتغلَّب عليها، لكن بشرط أن يُفعِّل الإنسان إرادته ولا يتكاسل ولا يتعاجز، فإذا فعل ذلك أمكنه الاستفادة من كلِّ إمكانات هذا العالم ليعيش في راحة وأمان.

وهذا يعني: أنَّ الضلال في هذه المرحلة غير متصوَّر أيضاً، إذ لو وُجِدَت الموانع من دون إمكانات التغلُّب عليها لأمكن القول بتصوّره، ولكن الله تعالىٰ أبىٰ إلَّا أن يُوجِد إلىٰ جنب تلك الموانع ما يُمكِّن الإنسان من خلاله من التغلُّب عليها.

صياغة أُخرىٰ للأمر الثاني:

في هذا العالم، يمكننا أن نتصوَّر فروضاً ثلاثة:

الفرض الأوَّل: أن نوجَدَ في هذا العالم، ويأتي الله تعالىٰ ليأخذ بأيدينا قهراً، ويوصلنا إلىٰ المطلوب، بطريقة التلقين والإملاء الجبري.

وهذا الفرض وإن كان ممكناً علىٰ الله تعالىٰ، ولكنَّه يعني سلب اختيار الإنسان وتحويله إلىٰ آلة عمياء، وهو لم يقع أكيداً، ونحن نرىٰ أنفسنا مختارين بالوجدان.

الفرض الثاني: أن نفترض أنَّ الله تعالىٰ يوجِدنا في هذا العالم، ويترك لنا الاختيار تماماً، ويوجِدنا في أجواء مخملية تماماً، بحيث يوجد خيارات متعدِّدة لنا، ولا يوجد أيُّ مانع ولا مزاحم، أي إنَّه يُوفِّر جميع الشروط والمقتضيات من دون أيِّ مانع ولا مزاحم.

وهذا ممكن في حدِّ نفسه أيضاً، ولكنَّه في أفضل أحواله يُحوِّل عالمنا إلىٰ عالم ملائكة، ونحن افترضنا أنَّنا في عالم المادَّة، وإن كان البعض يعتبر هذا الفرض نوعاً من الجبر.

الفـرض الثالـث: أن نفـترض أنَّ الله تعـالىٰ يوجِـدنا في هـذا العـالم، ويتـرك لنـا الاخـتيار تـمـاماً، ويُـوفِّر كـلَّ مـا مـن شـأنه أن يسـاعدنا في الوصـول إلىٰ الهـدف، لكـن هـذه الأُمـور المسـاعدة لا تُعطـىٰ للإنسـان بالمجانِّ، بل إنَّـه تعـالىٰ يخلـق أمامهـا مجموعـة مـن الموانـع، وعـلىٰ الإنسـان أن يسعىٰ لإزالتهـا باختيـاره، ليصـل إلىٰ الهـدف، أي إنَّـه ﷻ يريـد مـن الإنسـان أن يتعامـل مـع المـانع تعـاملاً إيجابيـاً، أي يُحوِّلـه إلىٰ حالـة إيجابيـة تنفعـه في الوصول إلىٰ الهدف.

وهـذا الفـرض هـو المتعـيَّن هنـا، فتلـك الموانـع لا تقـف حـائلاً ضـدَّ الهداية التكوينية العامَّة، بل هـي جـزء مـن نظـام هـذا العـالم، والجـزء الآخـر منـه أن تُعمِـل اختيـارك وتُفعِّلـه لتزيـل تلـك الموانـع، أو لتُغلِّفهـا بطريقـة تجعـل منهـا عـاملاً مسـاعداً للوصـول إلىٰ هـدفك، فالإمـام الكـاظم عليه السلام جعـل مـن السـجن فرصـة مناسـبة للتعبُّـد لله ﷻ، حيـث نُقِـلَ عـن بعـض عيونـه: كنـت أسـمعه كثـيراً يقـول في دعائـه: «اللّهـمّ إنّـني كنـت أسـألك أن تُفرِّغني لعبادتك، اللّهمّ وقد فعلت، فلك الحمد»[1].

مع الالتفات إلىٰ أنَّ واحداً مـن أنظمـة هـذا العـالم أيضـاً هـو التناسـب الطـردي بـين الصـعود التكـاملي وبـين كثـرة الموانـع، ممَّـا يعنـي أنَّ التكامـل يحتاج إلىٰ مزيـد مـن الجهـد وإعـمال الاختيـار، ولـذا كـان أشـدُّ النـاس بـلاءً الأنبيـاء ثـمّ الأمثـل فالأمثـل، حيـث روي أنَّـه سُـئِلَ النبـيُّ ﷺ: أيُّ النـاس أشـدُّ بـلاءً؟ قـال: «الأنبيـاء، ثـمّ الأوصـياء، ثـمّ الصـالحون، ثـمّ الأمثـل فالأمثل»[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ٤٣٣.

(٢) الدعوات للراوندي: ١٦٦/ ح ٤٦٠.

هذا إجمالاً، وأمَّا تفصيلاً - وسنُخصِّص الكلام بالإنسان -، فيقال:

لقد خلق الله تعالىٰ الكون عموماً والإنسان خصوصاً لهدف محدَّد وغاية قصوىٰ، فجعله علىٰ نظام هو الأكمل من نوعه، بحيث لا يمكن أن تجد منفذاً لخطأ في تركيب أو عبث في شيء، ذلك لأنَّ الله تعالىٰ حكيم، وكان من حكمته أن يُوفِّر للإنسان جميع مستلزمات الوصول إلىٰ الهدف الذي خُلِقَ من أجله، فوفَّر تعالىٰ الكثير، بل كلَّ ما يحتاجه الإنسان من إمكانات ومستلزمات تساعده في أن يصل - باختياره - إلىٰ هدفه. وهذا يعني أنَّ توفير تلك الإمكانات - الذي هو معنىٰ الهداية هنا - هو بفعل الله تعالىٰ وحده. وهذا لا ينفي اختيار الإنسان ولا حكمته تعالىٰ، بل هو يتلاءم معهما تماماً، ويكون كالمعلِّم الذي يشرح المادَّة العلمية الصعبة لتلميذه ويُوفِّر له جميع مستلزمات النجاح، فهذا الفعل يُعتَبر فعلاً حكيماً من المعلِّم، لأنَّ التلميذ لا يستطيع أن يفهم المادَّة العلمية من دون أن يشرحها له معلِّمه، وفي نفس الوقت هذا لا يعني أنَّ التلميذ قد سُلِبَت منه إرادته في ذلك، بل إنَّ إرادته محفوظة، ولذا سيكون هو الذي يخوض الامتحان باختياره، وهو الذي سيعمل علىٰ الاستفادة ممَّا تعلمه أو عدم استفادته منه.

هذا هو معنىٰ هداية التكوين.

مفرداتٌ من هداية التكوين:

يمكن أن نتوفَّر علىٰ الكثير من تلك الإمكانات التي وفَّرها الباري تعالىٰ للإنسان، نذكر منها:

أوَّلاً: توفير الحاضن الأمثل لتكوّن ونشوء ونموِّ الإنسان:

ابتداءً من رحم الأُمِّ الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بالقرار

المكين[1]، إلىٰ توفير الظروف الملائمة لبقاء الجنين حيّاً في بطن أُمِّه، ثمّ تسهيل عملية خروجه إلىٰ عالم الدنيا، وفي لحظة خروجه إلىٰ عالم الدنيا يأتي التدبير الإلهي ليُفجِّر له ينبوعاً من ثدي أُمِّه يسيل عليه بغذاء متكامل لا مثيل له، ثمّ هدايته لأن يتغذّىٰ من ذلك المنبع من دون معلِّم ولا تدريب.

ثمّ توفير الظروف الملائمة للعيش في الحياة، فالأُوكسجين بنسبة تكفي لتنفُّس الإنسان والحيوان - لا أكثر فتحدث حرائق كبيرة وانفجارات هائلة لأنَّه غاز يساعد علىٰ الاشتعال، ولا أقلّ فيحصل اختناق للإنسان لنقصه -، ثمّ وجود النباتات التي تجود علىٰ الإنسان بغاز الأُوكسجين بعدما تُخلِّصه من غاز سامٍّ له هو غاز ثاني أُوكسيد الكربون.

ثمّ وجود الشمس التي تُرسِل أشعَّتها لتُنعِش الحياة وتُنمّي الوجود. ووجود مظلَّة حول الأرض تحميها من الغازات السامَّة التي تصاحب أشعَّة الشمس، تلك المظلَّة التي هي أشبه بفلتر يُصفّي الأشعَّة الشمسية من الغازات السامَّة وتُخفِّفها ولا تسمح بالمرور إلَّا للنافع للإنسان من أشعَّة الشمس. ليس هذا فحسب، بل ومهمَّة تلك المظلَّة أنَّها تحمي الأرض ممَّا يهجم عليها من الفضاء الخارجي من أجسام غريبة وكويكبات وغيرها، فتحرقها أو تحرق الجزء الأعظم منها حتَّىٰ لا يبقىٰ منها إلَّا من نراه من شُهُب ونيازك تضفي متعة المشاهدة في ظلام الليل الحالك. إلىٰ غير ذلك من الظروف الملائمة التي تُحيِّر العقل عند التدبُّر بها.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝﴾ (المؤمنون: ١٢ و١٣).

وهذا المعنىٰ كان دليل (**ابن رشد**) علىٰ وجود الباري تعالىٰ وحكمته وأُلوهيته وربوبيته، ذلك لأنَّ الإنسان لا يمكن أن يكون هو الذي وفّر لنفسه كلَّ تلك الظروف، كيف وهو الذي يخرج حين يخرج وهو أعجز من أيِّ موجود علىٰ وجه الأرض، فضلاً عن جهله المطبق بنظام الحياة، فلا بدَّ من وجود موجود حكيم قادر عالم مدبِّر هو الذي وفَّر تلك الظروف للإنسان، وليس هو إلَّا الله تعالىٰ.

ثانياً: توفير منابع العلم لدىٰ الإنسان:

حيث إنَّ الإنسان يخرج جاهلاً إلىٰ هذه الدنيا، كانت الحكمة تقتضي توفير آلات علمية بها يُطوِّر نفسه و(يتحضَّر)، فكان توفير تلك الآلات من ضمن الهداية التكوينية التي منَّ بها الله تعالىٰ علىٰ البشر، قال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل: ٧٨).

لقد جهَّز الله تعالىٰ الإنسان بهذا الأدوات الثلاثة للعلم: السمع، والبصر، والفؤاد. وليس خافياً علىٰ أحد ضرورة هذه الآلات الثلاثة لاستمرار حياة الإنسان، وتصوَّروا لو أنَّ كلَّ البشر (عميان)، هل أمكن أن تستمرَّ حياتهم أو أن تتطوَّر هذا التطوّر الذي نراه اليوم!؟

والقلب، ذلك العضو الذي ظلَّت حقيقته خافيةً علىٰ البشر آلاف السنين، فما هو دوره؟ هل هو مجرَّد مضخَّة للدم أو أنَّ له دوراً في عواطف الإنسان؟

إنَّ العلم الحديث - الذي أُخفي عمداً عن عامَّة الناس - كشف عن أنَّ للقلب ذاكرة تختزن معلومات دقيقة عن صاحبه، بحيث تُؤثِّر في سلوكه وعواطفه، وهو ما كشفت عنه بعض عمليات نقل القلب من

شخص لآخر، حيث اكتشفوا فيما بعد بأنَّ كثيراً من سلوكيات صاحب القلب الأصلي تنتقل للحاضن الجديد لذلك القلب.

ثالثاً: بناء الإنسان بناءً دقيقاً ومنظَّماً:

عبَّر عنه القرآن الكريم بأحسن التقويم، فليس هو جسماً فقط - فيكون مجرَّد حجر أصمّ لا ينفع ولا يضرُّ -، وليس هو روحاً فقط، وإنَّما هو مركَّب منهما، فهو حقيقة مركَّبة من روح وجسم. ولكلٍّ منهما حقوق وعليه واجبات، وليس خافياً عظمة الروح، يكفي أنَّها من الله تعالىٰ، ولا يعلمها إلَّا هو تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء: ٨٥).

ولكن الجسم أيضاً عظيم في تنظيمه وتكوينه، ولقد كان ولا زال محطَّ أنظار كبار العلماء ليكتشفوا بعض حقائقه وخصائصه، حتَّىٰ إذا ما اكتشف أحد جهازاً من أجهزته أسرع ليُطلِق اسمه علىٰ ذلك الجهاز ليُخلِد ذكره باكتشافه ذلك!

والملفت للنظر أنَّ هناك تأثيراً متبادلاً بين البدن والروح، وعلاقة حميمة وشديدة بينهما، وهي علاقة الاستكمال، أي إنَّ الروح تستكمل بواسطة البدن في بعض أنواع الاستكمال، بل نجد أنَّ العلاقة بين الروح والبدن تتطوَّر حتَّىٰ تصل إلىٰ حدٍّ بحيث يُؤثِّر أحدهما علىٰ الآخر فسيولوجياً. وهذا ما نراه واضحاً عندما يصاب البدن بمرض ما، فإنَّه يُؤثِّر سلباً علىٰ الروح والعكس بالعكس، فصحَّة البدن وقوَّته تنقلب بالفائدة علىٰ الروح حتَّىٰ قيل: إنَّ العقل السليم في الجسم السليم. ولذا تجد أنَّ الروح ترتاح نوع ارتياح إذا ارتاح البدن بالنوم والأكل مثلاً.

وهكذا لـمَّا تُصاب الروح ببعض النوبات المرضية فإنَّها تُؤثِّر علىٰ

البدن، فترىٰ الحسود لا يرتاح له جسد لما يتحمَّل من ألم الحسد، وهكذا الحزن والخوف، كلُّها تُؤثِّر علىٰ البدن، وعكسها صحيح، فالفرح يبعث النشاط في الروح، والغبطة تريح البدن، والأمن يعافيه، وهكذا، فالعلاقة متبادلة بينهما هنا في عالم الدنيا والتكامل.

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام لجزء من تلك العلاقة بقوله عليه السلام: «ما ضعف بدن عمَّا قويت عليه النيَّة»(١).

رابعاً: توفير غرائز البقاء:

فلكي تستمرَّ حياة البشر، لا يكفي توفير الأجواء الملائمة فقط، بل لا بدَّ من توفير دوافع ذاتية للبقاء وللتطوّر، فكانت الغرائز المودعة في أعماق الإنسان، فغريزة حبِّ البقاء أدَّت إلىٰ أن يعمل الإنسان علىٰ توفير الأجواء الملائمة للأمن، ودعته أيضاً إلىٰ الحذر من الحيوانات المفترسة والأكلات الضارَّة.

وغريزة حبِّ الجنس الآخر أدَّت إلىٰ التكاثر واستمرار النسل البشري بالتدفُّق الهائل الذي نشهد اليوم آثاره بالستَّة مليارات نسمة علىٰ وجه الأرض.

وغريزة الهرب من العدوِّ، وغريزة جمع القوت، وغريزة حبِّ الخير والجمال والعلم، وغيرها كثير.

خامساً: دورة الحياة الملائمة التي تصبُّ في مصلحة الإنسان:

وكشاهد علىٰ ذلك نجد أنَّ الحيوانات يتغذّىٰ بعضها علىٰ بعض، والنباتات تتكاثر، وكلُّها يستهلكها الإنسان، وهو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بالتسخير، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية: ١٣).

---

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق ٤: ٤٤٠/ ح ٥٨٥٩.

إنَّ تسخير كلِّ ما في السماوات والأرض للإنسان لهو من أعظم النعم الإلهيَّة علىٰ الإنسان، التي يقف الإنسان عاجزاً عن شكرها مدىٰ الحياة.

هذه الأُمور الخمسة هي بعض ما منَّ الله تعالىٰ به علىٰ الإنسان من هداية تكوينية.

الإضلال التكويني:

وإذا عرفنا معنىٰ الهداية التكوينية، نكون قد عرفنا معنىٰ الإضلال التكويني، بمعنىٰ حرمان بعض الموجودات من تلك الإمكانات التي توصله إلىٰ هدفه[1]، كالعمىٰ والصمم والخرس، والأمراض المستعصية التي تُفقِد المرء فرصة التكامل، وكالجنون.

وهذا الحرمان من بعض الإمكانات التكوينية هو من الله تعالىٰ، ولكن حيث إنَّ عالمنا هو عالم الأسباب والمسبَّبات، فلذلك يمكن أن نجد الأسباب التي أدَّت إلىٰ هذا الحرمان، والتي تنتهي إلىٰ أنَّ الحرمان لم يكن من الله تعالىٰ بالمباشرة، وإنَّما لأسباب واقعية أدَّت إليها، ومن تلك الأسباب:

الأوَّل: الوراثة، فكثير من الأحيان يكون الحرمان بسبب وراثي، حيث نعلم أنَّ الجنين يأخذ من جينات والديه الوراثية الكثير من الصفات والخصائص، وفي بعض الأحيان يرث بعض الأمراض من أبويه، فيكون السبب في الحرمان هو الوراثة.

ولذا يُحذِّر الأطبَّاء البدنيون والنفسانيون من الحالات البدنية

(١) وهذا إنَّما يُتصوَّر في عالم المادَّة والدنيا، أمَّا في عالم المجرَّدات أو عالم الآخرة فلا فقدان أبداً.

والنفسية غير الملائمة لإنجاب الأطفال، لأنَّها تُؤثِّر علىٰ الجنين إمَّا بإسقاطه قبل تمامه أو بتشوّهه أو بولادته غير تامِّ الخلقة أو ولادته مريضاً عليلاً.

ولذا يُنصَح بأن تكون حالة الزوجين متعادلة من حيث نوعية الدم، ومتفاهمة نفسياً، ويُنصَح أيضاً بضرورة عدم تدخين الأُمِّ أو سكرها، أو غضب الأب وسكره، أو الكلام أثناء المقاربة، أو مقاربة الزوجة بشهوة امرأة أُخرىٰ، أو المقاربة في أوقات خاصَّة ذكرتها الروايات[1].

الثاني: تعمُّد تناول بعض العقارات التي لها آثار سلبية علىٰ البدن، والمعروف طبّياً أنَّ أغلب العقارات لها آثار جانبية سلبية علىٰ البدن وإن أفادته في جانب آخر، فزرق إبرة في غير موضع الزرق يؤدّي إلىٰ حدوث أورام في المنطقة لا تزول إلَّا بعمليات جراحية، أو تؤدّي إلىٰ الشلل، وهكذا تناول عقار في غير محلِّه، وغيرها كثير، ولذا يُحذِّر الأطبّاء من استعمال أيِّ عقار من دون معرفة أو استشارة طبّية.

---

(١) منهاج الصالحين للسيِّد السيستاني (ج ٣/ ص ٩): (مسألة ٥: تُستَحبُّ التسمية عند الجماع، وأن يكون علىٰ وضوء سيّما إذا كانت المرأة حاملاً، وأن يسأل الله تعالىٰ أن يرزقه ولداً تقيّاً مباركاً زكيّاً ذكراً سويّاً. ويُكرَه الجماع في ليلة الخسوف، ويوم الكسوف، وعند الزوال إلَّا يوم الخميس، وعند الغروب قبل ذهاب الشفق، وفي المحاق، وبعد الفجر حتَّىٰ تطلع الشمس، وفي أوَّل ليلة من الشهر إلَّا شهر رمضان، وفي ليلة النصف من الشهر وآخره، وعند الزلزلة والريح الصفراء والسوداء. ويُكرَه مستقبل القبلة ومستدبرها، وفي السفينة، وعارياً، وعقيب الاحتلام قبل الغسل، ولا يُكرَه معاودة الجماع بغير غسل. ويُكرَه النظر إلىٰ فرج الزوجة، والكلام بغير ذكر الله، وأن يجامع وعنده من ينظر إليه - حتَّىٰ الصبي والصبية - ما لم يستلزم محرَّماً وإلَّا فلا يجوز).

الثالث: استخدام الأسلحة الجرثومية والنووية ونفايات مادَّة اليورانيوم في الحروب التي تحصل بين البشر، التي تُسبِّب الكثير من الأمراض المستعصية وعلىٰ رأسها الأمراض العضال، وأظنُّ أنَّ كثيراً من البلدان ممَّن جرَّبت الحروب تعرف هذا المعنىٰ، وأشهرها هيروشيما وناكازاكي في اليابان، والعراق حيث أُلقيت عليه الكثير من نفايات اليورانيوم.

الرابع: مخالفة بعض القوانين الشرعية التي لها آثار تكوينية علىٰ البدن، أو قل: ممارسة الأعمال المحرَّمة التي لها أثر تدميري علىٰ البدن، فالزنا سبب رئيسي للإيدز، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنىٰ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء: ٣٢).

وهكذا شرب الخمر، وإدمان المخدِّرات، وأكل الحرام، وغيرها كثير.

وهذا المعنىٰ أشارت له الروايات صريحاً، قال الإمام الرضا عليه السلام: «كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[١].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب، ولا خوف أشدُّ من الموت، وكفىٰ بما سلف تفكُّراً، وكفىٰ بالموت واعظاً»[٢].

الخامس: الابتلاء، وهذا السبب هو ما يمكن تصوّره من الله تعالىٰ ابتداءً، ولا ظلم فيه، لأنَّه تعالىٰ لا يبتلي اعتباطاً، وقد ذكرت الآيات

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٢٧٥/ باب الذنوب/ ح ٢٩.

(٢) الكافي للكليني ٢: ٢٧٥/ باب الذنوب/ ح ٢٨.

والروايات الشريفة علل الابتلاء، التي تحكي عن حكمة في حدوثه، كالتمييز والاختبار وإزالة الذنوب عند الصبر وزيادة الأجر عند الشكر وغيرها، قال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ (العنكبوت: ٢).

وقال تعالىٰ: ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ...﴾ (آل عمران: ١٧٩).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَىٰ وَالِاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَه اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صلوات الله عليه إِلَىٰ الآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَه الْحَرَامَ الَّذِي جعلَه لِلنَّاسِ قِياماً...!؟

وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَه بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِه، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَىٰ فَضْلِه، وَأَسْبَاباً ذُلُلًا لِعَفْوِه»[1].

ومن أهمّ علل البلاء أنَّه في كثير من الأحيان يكون منبِّهاً للإنسان المؤمن علىٰ أنَّه قد خالف ما لا يجوز مخالفته، فيبتليه الله تعالىٰ ليُذكِّره بذلك فيؤوب إلىٰ الباري تعالىٰ.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من مؤمن إلَّا وهو يُذكَّر في كلِّ أربعين يوماً ببلاء يصيبه، إمَّا في ماله أو في ولده أو في نفسه، فيُؤجَر عليه، أو هم لا يدري من أين هو؟»[2].

---

(١) نهج البلاغة: ٢٩٢ - ٢٩٤/ الخطبة ١٩٢.

(٢) مشكاة الأنوار للطبرسي: ٥٠٧/ ح ١٧٠١.

ملاحظة:

صحيح أنَّ الروايات الشريفة أكَّدت علىٰ الأجر العظيم عند حصول البلاء أو المرض، ولكن هذا لا يعني تمنّي وقوع البلاء أو المرض، كلَّا، بل الأوامر جاءت علىٰ عكس هذا، فالمطلوب هو طلب العافية لا البلاء، وعلىٰ عرض الإنسان نفسه علىٰ الطبيب لو أُصيب ببلاء المرض، بل ورد أنَّ المرض لا أجر فيه بما هو مرض، وإنَّما الأجر علىٰ الصبر عليه وشكر الله تعالىٰ وعدم الشكوىٰ لغير المؤمن.

والغريب أنَّنا نلاحظ الكثير من الناس يتمنّىٰ أن يموت ليهرب من مواجهة البلاء أو الاختبار، وهذا يُمثِّل جانباً من (الجُبْن) الكامن في شخصية هذا الإنسان، ولذا يتمنّىٰ الهرب ولو بالموت!

قال الإمام عليٌّ عليه السلام: «من كتم الأطبّاء مرضه فقد خان بدنه»[1].

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنَّ نبيّاً من الأنبياء مرض فقال: لا أتداوىٰ حتَّىٰ يكون الذي أمرضني هو الذي يشفيني، فأوحىٰ الله إليه: لا أُشفيك حتَّىٰ تتداوىٰ، فإنَّ الشفاء منّي...»[2].

وروي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله دخل علىٰ مريض، قال: «ما شأنك؟»، قال: صلَّيت بنا صلاة المغرب، فقرأت القارعة، فقلتُ: اللّهمّ إن كان لي عندك ذنب تريد (أن) تُعذِّبني به في الآخرة فعجِّل ذلك في الدنيا، فصرتُ كما ترىٰ. فقال صلى الله عليه وآله: «بئسما قلت، ألَا قلت: ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ ۝٢٠١﴾ [البقرة: ٢٠١]؟»، فدعا له حتَّىٰ أفاق[3].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٤٥٠.

(٢) مكارم الأخلاق للطبرسي: ٣٦٢.

(٣) الدعوات للراوندي: ١١٤ و١١٥/ ح ٢٦٢.

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «شكىٰ يوسف في السجن إلىٰ الله، فقال: يا ربِّ، بماذا استحققت السجن؟ فأوحىٰ الله إليه: أنت اخترته حين قلت: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، هلَّا قلت: العافية أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه؟»(١).

منَّة الله تعالى في تعويض هذا الإضلال:

صحيح أنَّنا لا نستحقُّ علىٰ الله تعالىٰ شيئاً من تلك الإمكانات، فله تعالىٰ أن يُعطي وله أن يمنع، فلا حقَّ لأحد عليه حتَّىٰ يطالبه به، ولكن شاء الله تعالىٰ أن يكون أكرم من كلِّ كريم، وأن يجود بمنِّه علىٰ عباده. ومن هنا جاء في تربويات الإسلام التعويض الهائل والضخم علىٰ الإضلال بهذا المعنىٰ، معنىٰ عدم إعطاء بعض الإمكانات التكوينية، والذي يمكن استنتاجه في هذا المجال هو التالي:

١ - سقوط بعض التكاليف عمَّن فقد بعض تلك الإمكانات، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٩١﴾ (التوبة: ٩١).

وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً ۝١٧﴾ (الفتح: ١٧).

٢ - التعويض بالأجر العظيم، ذلك الأجر الذي يتمنَّىٰ معه المبتلىٰ في الدنيا أن لو كان قد قُرِّض بالمقاريض ونُشِّر بالمناشير ابتلاءً!

---

(١) تفسير القمّي ١: ٣٥٤.

عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنَّ الله تبارك وتعالىٰ إذا أحبَّ عبداً غتَّه بالبلاء غتّاً[١]، وثجَّه بالبلاء ثجاً[٢]، فإذا دعاه قال: لبّيك عبدي، لئن عجَّلت لك ما سألت إنّي علىٰ ذلك لقادر، ولئن ادَّخرت لك فما ادَّخرت لك فهو خير لك»[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ الرجل ليكون له الجنَّة عند الله لا يبلغها بعمله حتَّىٰ يُبتلىٰ ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك»[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «إنَّ العبد لتكون له المنزلة من الجنَّة فلا يبلغها بشيء من البلاء حتَّىٰ يُدركه الموت ولم يبلغ تلك الدرجة، فيُشدَّد عليه الموت فيبلغها»[٥].

ومن هذا القبيل ما ورد في حقِّ الإمام الحسين عليه السلام من أنَّ له درجات في الجنَّة لم ينلها إلَّا بالشهادة[٦].

* * *

(١) غتَّه أي غمسه، والباء بمعنىٰ (في). (من المصدر).

(٢) الثج: سيلان دماء الهدىٰ والأضاحي. وثجَّ الماء: سال، وثجَّه: أساله. (من المصدر).

(٣) الكافي للكليني ٢: ٢٥٣/ باب شدَّة ابتلاء المؤمن/ ح ٧.

(٤) الدعوات للراوندي: ١٧٢/ ٤٨٣.

(٥) دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي ١: ٢٢٠.

(٦) راجع: أمالي الصدوق: ٢١٧.

الفصل الثاني:

هداية العقل

هداية العقل:

وهي بمعنى تزويد الإنسان بالعقل، أو قل: بآلة الإدراك والتفكُّر، التي بها تميَّز وامتاز علىٰ جميع الموجودات علىٰ هذه الأرض، وبها استطاع أن يبني الحضارة وأن يتجاوز العقبات والأخطار المحيطة به، والتي أوجدها الله تعالىٰ ضمن نظام الأسباب والمسبَّبات في هذا العالم.

وهذه الهداية خاصَّة، إذ هو تعالىٰ كرَّم بالعقل بعض مخلوقاته (العالية والسافلة)، ومعلوم أنَّ الواجد للعقل يملك كمالاً يهتدي به إلىٰ أُمور لا يهتدي إليها من لا عقل له.

قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان: ٤٤).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف: ١٧٩).

إنَّ وجود العقل عند الإنسان - وكلامنا في الإنسان، وإلَّا فالعقل عند الملائكة أيضاً - أعطاه تميُّزاً وامتيازاً علىٰ غيره من موجودات هذه الأرض، ففي الوقت الذي يتميَّز الإنسان عن بقيَّة موجودات الأرض بالعقل، كان العقل أيضاً امتيازاً له، جعل له السلطنة والهيمنة علىٰ كلِّ الموجودات الأُخرىٰ، لذلك سخَّر الله تعالىٰ له كلَّ ما فيها، يقول عزَّ من

قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية: ١٣).

ولا يخفىٰ علىٰ عاقل أهمّية العقل في حياة الإنسان، ولولاه لأضحىٰ الإنسان حجراً أصمّاً أو بهيمة بكماء! وأدواره تكشف عن أهمّيته.

أدوار العقل في حياة الإنسان:

الدور الأوَّل والأهمّ: تحديد سلوك الإنسان:

لا يخفىٰ أنَّ هناك العديد من الأُمور التي تُؤثِّر في سلوك الإنسان، وتجعل منه صاحب خُلُق معيَّن، أو تصرُّف معيَّن. وبحث مؤثِّرات السلوك بحث طويل الذيل، وخلاصة تلك المؤثِّرات هي التالي:

١ - الوالدان:

الوالدان أهمّ مصادر السلوك للأبناء، فالإنسان أوَّل ما يفتح عينيه في الدنيا لا تجد ذاته غير والديه، وبتطوّر مداركه يخزن في عقله الباطن أغلب - إن لم يكن كلّ - تصرّفات والديه، فتنعكس تلك التصرّفات علىٰ سلوك الطفل لترسم شخصيته في المستقبل. ومن هنا ورد الأمر بعدم الكذب بالوعد للطفل، لأنَّه يرىٰ والديه يرزقانه، فلو رأىٰ الذين يرزقونه يكذبون، فهذا سيُبرِّر له سلوك الكذب في المستقبل.

قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم، فإنَّهم لا يدرون إلَّا أنَّكم ترزقونهم»[1].

وعن عبد الله بن عامر، قال: جاء رسول الله ﷺ بيتنا وأنا صبي

---

(١) الكافي للكليني ٦: ٤٩/ باب برِّ الوالدين/ ح ٣.

صغير، فذهبت ألعب، فقالت لي أُمّي: يا عبد الله، تعالَ أعطيك. فقال رسول الله ﷺ: «ما أردتِ أن تعطيه؟»، قالت: أردت أن أُعطيه تمراً، قال: «أمَا إنَّك لو لم تفعلي لكُتِبَت عليكِ كذبة»[١].

بل نجد أكثر من هذا، فإنَّنا نرىٰ بالوجدان أنَّه حتَّىٰ اعتقادات الوالدين تُؤثِّر في اعتقاد الأولاد، وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «ما من مولود يُولَد إلَّا علىٰ الفطرة، فأبواه اللذان يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه...»[٢].

والخلاصة أنَّ أوَّل وأهمّ السلوكيات هي ما نكتسبه من الوالدين، وقد نُقِلَ عن الملكة إليزابيث الثانية قولها: (لقد تعلَّمت كما يتعلَّم القرد، من مشاهدة الأب والأُمِّ وتقليدهم تماماً!)[٣].

ومِنْ أبلغ مَنْ بيَّن هذا المعنىٰ هو أمير المؤمنين عليه السلام في وصيَّته لولده الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام حيث قال له: «إِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْه»[٤].

ولذلك تُؤكِّد الدراسات في علم النفس علىٰ ضرورة أن يهتمَّ الآباء بالفترة الأُولىٰ من عمر الإنسان، فترة أوَّل سبع سنوات، حيث إنَّها الفترة التي سوف يخزن فيها الطفل السلوكيات التي ستحكم تصرُّفاته في المستقبل، يقول الدكتور تاد جيمس ووِيات وود سمول: (عندما نبلغ السابعة من عمرنا تكون أكثر من (٩٠٪) من قيمنا قد تخزَّنت في عقولنا،

---

(١) سنن البيهقي ١٠: ١٩٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه للصدوق ٢: ٤٩/ ح ١٦٦٨.

(٣) قوَّة التفكير للدكتور إبراهيم الفقي: ١١.

(٤) نهج البلاغة: ٣٩٣/ ح ٣١.

وعندما نبلغ سنَّ الواحد والعشرين تكون جميع قيمنا قد اكتملت واستقرَّت في عقولنا»[١].

فإذن أوَّل من يُملي السلوكيات علىٰ العقل هم الآباء، فعلىٰ الآباء أن ينتبَّهوا لخطورة مهمَّتهم في تحديد سلوك الأبناء.

وهنا يكون للعقل الدور الأقوىٰ والأصعب في تعديل السلوك الموروث من الأبوين، وقد أثبت العقل قدرته علىٰ ذلك في كثير من الأحيان، فمحمّد بن أبي بكر رغم أنَّه ابن خليفة، وكان له جاه ومنصب من ذلك، ولكنَّه لم يسر مسيرة أولاد الخلفاء في معارضة أمير المؤمنين عليه السلام كما فعل عبد الله بن عمر الذي امتنع عن مبايعة أمير المؤمنين عليه السلام وقبل بأن يبايع عبد الملك بن مروان عندما صفق علىٰ قدم الحجّاج، لأنَّ يده كانت مشغولة بالطعام[٢]! ولكن محمّد بن أبي بكر كان كما قال عنه

---

(١) قوَّة التحكُّم بالذات للدكتور إبراهيم الفقي: ٢٢ - ٢٥.

(٢) روي أنَّه لـمَّا دخل الحجّاج مكّة وصلب ابن الزبير راح عبد الله بن عمر إليه وقال: مُدْ يك لأُبايعك لعبد الملك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»، فأخرج الحجّاج رجله وقال: خذ رجلي، فإنَّ يدي مشغولة، فقال ابن عمر: أتستهزئ منّي؟ قال الحجّاج: يا أحمق بني عدي ما بايعت مع عليٍّ وتقول اليوم: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، أوَما كان عليٌّ إمام زمانك!؟ والله ما جئت إليَّ لقول النبيِّ صلى الله عليه وآله، بل جئت مخافة تلك الشجرة التي صُلِبَ عليها ابن الزبير...

وهو أحد الممتنعين عن بيعة عليٍّ عليه السلام بعد عثمان وتاركي الخروج معه في حروبه، ولكنَّه لـمَّا ولي الحجّاج الحجاز من قِبَل عبد الملك بن مروان جاءه ليلاً ليبايعه، فقال له الحجّاج: ما أعجلك؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية - أو ما هذا مضمونه -»، فقال له: إنَّ يدي مشغولة عنك وكان يكتب، فدونك رجلي، فمسح علىٰ رجله وخرج، فقال الحجّاج: ما أحمق هذا، يترك بيعة عليِّ بن أبي طالب ويأتيني مبايعاً في ليلته!. (الإيضاح للفضل بن شاذان الأزدي: هامش ص ٧٤).

أمير المؤمنين عليه السلام: «محمّد ابني من صلب أبي بكر»[١]، وقد ورد أنَّه بايع أمير المؤمنين عليه السلام علىٰ البراءة من أبيه[٢]!

٢ - الأصدقاء:

بعد أن يكبر الطفل يبدأ بالاستقلال شيئاً فشيئاً عن أبويه وعن المحيط العائلي، وسيكون أوَّل إنجاز تاريخي له هو أن يبني علاقة صداقة مع أحد أترابه ربَّما تدوم إلىٰ آخر العمر. ولهذه العلاقة تأثير سحري علىٰ الأطفال، وكلُّنا مرَّ بهذه الفترة، وكلُّنا نتذكَّر أنَّنا كنّا نأتمن أصدقاءنا علىٰ الكثير من الأسرار التي لم نُفكِّر حتَّىٰ في الأحلام بأن نُطلِع عليها آباءنا أو أُمَّهاتنا. فإذا علمنا أنَّ فترة بناء الصداقات من (٨ - ١٥) سنة من العمر، هي فترة يُسمّيها علماء النفس **بفترة الاقتداء بالآخرين**، سنعلم مدىٰ تأثير الأصدقاء علىٰ السلوك.

إنَّ حياة الإنسان بادئ ذي بدء كلُّها تقليد، فأوَّلاً يبدأ بتقليد الأبوين، ثمّ ينتقل إلىٰ تقليد الأصدقاء، وسيكون ضغط النظير والصديق علىٰ السلوك قويّاً، وأبرز ما نجده في هذا التقليد هو مسألة (التدخين) مثلاً، فقد أُجريت العديد من الدراسات والاستبيانات حول أسباب الوقوع في التدخين، فكانت النتيجة أنَّ (٤٥٪) من حالات التدخين هي بسبب الرفقاء، و(٥٪) فقط من تأثير الأب!

من هنا ربَّما نفهم تأكيد الروايات الشريفة علىٰ ضرورة متابعة الولد في هذه الفترة، واعتباره (كالعبد) علىٰ حدِّ تعبير بعض

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٥٣.

(٢) الاختصاص للمفيد: ٧٠.

الروايات[١]، وعلىٰ نفس المنوال جاءت الروايات التي تُحذِّر من أصدقاء السوء، لأنَّ أخلاقهم ستُعدي المرافق لهم، شاء أو أبىٰ، ولو بعد حين[٢].

وهنا أيضاً يكون للعقل اليد الطولىٰ في تعديل سلوك الإنسان مهما كان تأثير الأصدقاء قويّاً، فإنَّه وبلا شكٍّ لن يصل تأثيرهم إلىٰ حدِّ الإلجاء والجبر، بل تبقىٰ الكلمة الأخيرة بيد الإنسان نفسه، فإذا ما حكَّم عقله أمكنه أن يخرج عن بوتقة الأصدقاء، ولأجل أن يُقوّي عزيمته لتمتثل أوامر عقله عليه أن يتأمَّل في موقفه يوم القيامة إذا صار في موقف محرج بسبب تبعيَّته لأصدقائه، الأمر الذي صرَّح به القرآن الكريم بقوله عزَّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يا وَيْلَتىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾﴾ (الفرقان: ٢٧ - ٢٩).

وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (الزخرف: ٦٦ و٦٧).

٣ - وسائل الإعلام:

إنَّ من أهمّ ما يُؤثِّر علىٰ تحديد السلوك الاجتماعي هو الإعلام

---

(١) قال النبيُّ ﷺ: «الولد سيِّد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت أخلاقه لإحدىٰ وعشرين وإلَّا فاضرب علىٰ جنبه فقد أعذرت إلىٰ الله تعالىٰ». (مكارم الأخلاق للطبرسي: ٢٢٢).

(٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ». (نهج البلاغة: ٤٦٠/ ح ٦٩).

بمظاهره المختلفة، وهذا الأمر كان يُستَعمل من القديم، قيل: إنَّ بعض التجّار قَدِمَ مدينة رسول الله ﷺ ومعه حمل من الخُمُر[1] السود، فلم يجد لها طالباً، فكسدت عليه، وضاق صدره، فقيل له: ما ينفقها لك إلَّا مسكين الدارمي، وهو من مجيدي الشعراء الموصوفين بالظرف والخلاعة، فقصده، فوجده قد تزهَّد وانقطع في المسجد، فأتاه وقصَّ عليه القصَّة، فقال: وكيف أعمل وأنا قد تركت الشعر وعكفت علىٰ هذه الحال؟ فقال له التاجر: أنا رجل غريب، وليس لي بضاعة سوىٰ هذا الحمل، وتضرَّع إليه، فخرج من المسجد، وأعاد لباسه الأوَّل، وعمل هذين البيتين:

قل للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا أردتِ بناسكٍ متعبِّدِ

قد كان شمَّر للصلاة ثيابه ... حتَّىٰ قعدتِ له بباب المسجدِ

فشاع بين الناس أنَّ مسكيناً الدارمي قد رجع إلىٰ ما كان عليه، وأحبَّ واحدة ذات خمار أسود، فلم يبقَ بالمدينة ظريفة إلَّا وطلبت خماراً أسود، فباع التاجر الحمل الذي كان معه بأضعاف ثمنه، لكثرة رغباتهم فيه، فلمّا فرغ منه عاد مسكين إلىٰ تعبُّده وانقطاعه[2].

ونُقِلَ أنَّ قبيلة من قبائل العرب كانت تُسمّىٰ (أنف الناقة) وكانت مستهجنة بين العرب لهذا الاسم، وذات يوم استضاف أحدهم الحطيئة، فأكرمه ثمّ طلب منه حلًّا لهذه المعضلة، فقال الحطيئة فيهم بيتاً واحداً من الشعر قلب فيها سمعة بني أنف الناقة رأساً علىٰ عقب، قال:

---

(١) جمع خمار.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلّكان ٤: ١٦١/ الرقم ٥٥٧.

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم فمن يسوي بأنف الناقة الذنبا[١]

فكان كلُّ واحد من أفراد هذه القبيلة يفرح أنَّه منها ويفتخر بذكر قبيلته عندما يُسئل من أيِّ قبيلة هو، بل قيل: إنَّه كان لأحدهم سبع بنات لم يتقدَّم إليهنَّ أحد، وبعد كلام الحطيئة تسابق العرب علىٰ خطبتهنَّ، فخُطِبْنَ جميعاً في يوم واحد[٢].

وليكن معلوماً أنَّ وسائل الإعلام في الوقت الذي تحاول إغراء الشعوب عموماً، هي تستغلُّها لجني أموال خيالية، فقد سمعت من إحدىٰ القنوات أنَّ شركة مبتدئة نسبياً في العمل السينمائي قد أنفقت علىٰ فلم يحكي قصَّة مجموعة من الشباب الذين يرتدون زيَّ الإسلام ويُفجِّرون في مدن كبرىٰ مثل لندن، أنفقت مبلغ (٢٢) مليون دولار، وقد عاد عليها هذا الفلم **المتواضع** في أوَّل ثلاثة أشهر من عرضه بمبلغ (٢٥) مليون دولار. أمَّا الشركات الكبرىٰ فهي تُنفِق ما يصل إلىٰ مائة مليون دولار علىٰ أفلامها، ففي موسوعة ويكبيديا وهي تتحدَّث عن فيلم (تيتانك): كان الفيلم يُعتَبر أغلا فيلم تمَّت صناعته في ذلك الوقت

(١) قال ابن الكلبي، عن رجل من بني أنف الناقة يقال له: إسماعيل، قال: إنَّما سُمّي جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم بن أنف الناقة، لأنَّ قريعاً نحر جزوراً، فقسَّمها في نسائه، وكان عنده ثلاث نسوة، منهم: الشموس بنت القمر، من بني وائل بن سعد بن هذيم بن قضاعة، أُمّ جعفر بن قريع، فقالت: انطلق إلىٰ أبيك، فانظر هل بقي عنده شيء، فأتاه، فلم يجد عنده إلَّا رأس الجزور، فأخذ بأنفها يجرُّه، فقيل: ما هذا؟ فقال: أنف الناقة، فسُمّي بذلك. وكانوا يغضبون من ذلك، فلمَّا مدحهم الحطيئة الشاعر صار مديحاً، مدح بغيض بن عامر بن لأبي بن شماس بن أنف الناقة، وهو قوله:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

(الأنساب للسمعاني ٤: ٤٨٦).

(٢) (٨) طرق لهندسة الحياة وصناعة التأثير للدكتور عليٍّ الحمادي: ٤٢ و٤٣.

بميزانيَّة قُدِّرت بحوالَي (٢٠٠) مليون دولار. بعدَ صدورِه في (١٢/ ديسمبر/ ١٩٩٧م)، حقَّق الفيلم نجاحاً نقديّاً وتجاريّاً مُنقَطع النظير. وقد وصلت إيرادات الفيلم حول العالم لأكثر من (١,٨٤) مليار دولار، وظلَّ يُعتَبر أعلىٰ فيلم إيرادات حتَّىٰ عام (٢٠١٠م)، حيث تفوَّق عليه فيلم (أفاتار) لجيمس كاميرون أيضاً. وصدرت نُسخة ثلاثية أبعاد للفيلم في (٤/ أبريل/ ٢٠١٢م)، وذلك لإحياء الذكرىٰ المئويَّة لغرق السفينة، وحاز علىٰ إيرادات إضافيَّة وصلت لـ (٣٤٣,٦) مليون دولار، وبذلك يكون مجموع ما حقَّقه الفيلم (٢,١٨) مليار دولار.

ويعلم الله تعالىٰ أنَّ هذه الأموال لو أُنفقت علىٰ فقراء العالم فهل سيبقىٰ هناك من فقير!؟

من هنا ورد عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «من أصغىٰ إلىٰ ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله عزَّ وجلَّ فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»[1].

وهذا يكشف عن أنَّ من أهمّ ما يُؤثِّر علىٰ سلوك الإنسان هي الوسائل الإعلامية، وهذا ما عبَّرت عنه الآية الكريمة التي تحدَّثت عن وسائل الشيطان للإغراء بـ ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ (الإسراء: ٦٤).

وقد أكَّد معهد الأبحاث النفسي والفسيولوجي في نيوزيلاند أنَّ أكثر من (٦٠٪) من حالات الاكتئاب يرجع السبب فيها إلىٰ وسائل الإعلام التي تُركِّز علىٰ السلبيات والصعوبات والحروب والجنس وضياع القيم. ونرىٰ الآن موجة الفضائيات والتركيز علىٰ الأخبار

---

(١) الكافي للكليني ٦: ٤٣٤/ باب الغناء/ ح ٢٤.

السلبية والأغاني الخليعة - والتي لا تمتُّ إلىٰ قيمنا بأيٍّ صلة - منتشرة وتزداد انتشاراً في عالمنا، وتُؤثِّر علىٰ أخلاقيات شبابنا بعمق. وهذا المؤثِّر العميق يضيفه الناس علىٰ برمجتهم، فتصبح أقوىٰ وأعمق عن ذي قبل[١].

مع العلم أنَّ معدَّل مشاهدة الشباب للتلفاز أُسبوعياً قد يصل إلىٰ خمسين ساعة[٢]، وهذا يُؤثِّر علىٰ السلوك ولو من طرفٍ خفيٍّ!

وهنا أيضاً يأتي العقل ليقف موقفاً صلباً اتِّجاه هذه المغريات الإعلامية، فيمكنه أيضاً أن يساعد الإنسان في الخروج عن مصيدته، إذا ما فكَّر بأنَّ وقته أغلىٰ بكثير من مشاهدة فيلم كان قد رآه عدَّة مرّات، وأنَّ عمره أكرم من أن يُنفِقه في مشاهدة برامج خيالية لا مردود عملي فيها ولا تأثير إيجابياً في الحياة، وأنَّ عقله يرفض أن يستغلَّه الإعلام المنحرف في تلقينه بعض الأُمور التي هي غاية في الخيالية والسخافة، فمهما كان الإعلام برّاقاً وجذّاباً لكن العقل يمكنه أن يتجاوز تأثيراته إذا ما تحكَّم بصورة جيِّدة بدقَّة سلوك الإنسان.

٤ - الإيحاء الذاتي للنفس:

من منّا لم يُكلِّم نفسه ولم تُكلِّمه نفسه بمناجاة لا يسمعها إلَّا هو!؟ ومن منّا لم ينصت بقلبه إلىٰ ضميره وهو يخاطبه بلهجة التأنيب أو التقريع لو أخطأ في حقِّ صاحب نعمة أو حقٍّ عليه!؟ وبلهجة الرضا والسرور لو أحسن إلىٰ محتاج أو أدخل الفرح علىٰ قلب يتيم!؟

إنَّ مناجاة النفس أمر تكويني، ولكن لا بدَّ أن تصبَّ في صالح

---

(١) قوَّة التفكير للدكتور إبراهيم الفقي: ١٣.

(٢) المصدر السابق.

الإنسان، بأن تكون المناجاة لتصحيح المسار، وهو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بالنفس اللوّامة[١].

ولكن في بعض الأحيان توحي النفس للعقل فكرة خاطئة تنمو هذه الفكرة بعد أن تُردِّدها النفس وتُكرِّرها للعقل حتَّىٰ يختزنها العقل لتصبح تلك الفكرة عاطفة يشعر بها العقل، وحينئذٍ يُصدِر العقل أوامره للحواسِّ والأعضاء بالعمل وفق تلك الفكرة، لتُترجَم إلىٰ سلوك عملي للفرد، يقول الإمام عليٌّ عليه السلام: «العقول أئمَّة الأفكار، والأفكار أئمَّة القلوب، والقلوب أئمَّة الحواسِّ، والحواسُّ أئمَّة الأعضاء»[٢].

وباختصار إنَّ كلَّ فكرة توحيها النفس للعقل فإنَّها ستختزن فيه لتتحوَّل فيما بعد إلىٰ سلوك عملي، ففكرة سعادة تُسبِّب الإحساس بالسعادة، وفكرة ألم تُسبِّب الألم، وقد نُقِلَ أنَّه قال سقراط: (بالفكرة يستطيع الإنسان أن يجعل عالمه من الورود أو من الشوك)[٣].

وقال الدكتور هلمستتر: (إنَّ ما تضعه في ذهنك - سواء كان إيجابياً أو سلبياً - ستجنيه في النهاية)[٤].

فالإيحاء الذاتي من النفس إلىٰ العقل هو أيضاً من الأُمور التي تُؤثِّر علىٰ سلوك الإنسان.

وهنا يمكن للعقل أن يستفيد من الإيحاء النفسي له، بل ويستطيع أن يتحكَّم فيه بأن يجعله إيحاءً إيجابياً فقط، ذلك عندما يفتح

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ (القيامة: ٢).

(٢) كنز الفوائد للكراجكي: ٨٨.

(٣) قوَّة التفكير للدكتور إبراهيم الفقي: ١٤.

(٤) قوَّة التحكُّم بالذات للدكتور إبراهيم الفقي: ٢٢ - ٢٥.

العقل عينيه ويستعين بالشريعة السماوية. ولذلك نجد أنَّ ديننا الحنيف ليس فقط يُعلِّمنا طريقة الإيحاء الإيجابي للعقل، وإنَّما يجعلنا نمارس هذا المعنىٰ في حياتنا اليومية من خلال الطقوس الدينية، ففي الصلاة أنت تُردِّد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ...﴾ (الفاتحة: ٦)، أي اجعلنا من الذين هديتهم إلىٰ ذلك الصراط، ثمّ يجعلك تناجي نفسك بأنَّك من عباد الله الصالحين حينما تريد إنهاء صلاتك بقولك: (السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين).

وأيضاً ينهانا عن التفكير السلبي المنحرف والإيحاء الخاطئ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «صيام القلب عن الفكر في الآثام أفضل من صيام البطن عن الطعام»[1].

وورد أيضاً: «صوم القلب خير من صيام اللسان، وصوم اللسان خير من صيام البطن»[2].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «اجتمع الحواريون إلىٰ عيسىٰ عليه السلام، فقالوا له: يا معلِّم الخير أرشدنا، فقال لهم: ... إنَّ موسىٰ نبيَّ الله عليه السلام أمركم أن لا تزنوا وأنا آمركم أن لا تُحدِّثوا أنفسكم بالزنا فضلاً عن أن تزنوا، فإنَّ من حدَّث نفسه بالزنا كان كمن أوقد في بيت مزوق فأفسد التزاويق الدخان وإن لم يحترق البيت»[3].

هذا، ولقد أثبت الإيحاء الذاتي تأثيره عندما أُجريت في مستشفىٰ (سيماشكو) في مدينة (غوركي) تجارب علىٰ مجموعة من الذين أُصيبوا

---

(١) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٣٠٢.

(٢) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٣٠٥.

(٣) الكافي للكليني ٥: ٥٤٢/ باب الزاني/ ح ٧.

بالذبحة الصدرية لنوع الألم منهم عن طريق الإيحاء الذاتي، وخلال ثلاثة أشهر تمرَّنوا علىٰ مقاومة الآلام عن هذا الطريق، وكانت النتيجة أنَّ أحد عشر شخصاً من مجموع عشرين شخصاً تخلَّصوا من آلامهم تماماً، بينما قلَّ الألم لدىٰ ستَّة من الباقين بشكل ملحوظ، وبقي منهم ثلاثة أشخاص فقط لم يُؤثِّر فيهم الإيحاء الذاتي، أي إنَّ أكثر من (٨٦٪) تأثَّروا بذلك[١].

ومن الظريف ما نُقِلَ من أنَّ غاندي كان في بداية حياته خجولاً جدّاً، ولأنَّه كان محامياً اضطرَّ أن يقف يوماً في المحكمة، وما إن بدأ الكلام حتَّىٰ أُصيب بانهيار عصبي أدّىٰ به إلىٰ الإغماء! ولكنَّه بعد هذه الحادثة بدأ يوحي لنفسه بـ (أنا شجاع)، وأخذ يُردِّد هذه الكلمة مع نفسه حتَّىٰ اقتنع بها، وصار فيما بعد محرِّر الهند وقائدها وخطيبها المفوَّه[٢]!

ومن لطيف ما يُنقَل من تأثير الإيحاء الذاتي أنَّه كان أحد الملوك القدماء سميناً كثير الشحم واللحم، يُعاني الأمرَّين من زيادة وزنه، فجمع الحكماء لكي يجدوا له حلَّاً لمشكلته ويُخفِّفوا عنه قليلاً من شحمه ولحمه، لكن لم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً للملك، فجاء رجل عاقل لبيب متطبِّب، فقال له الملك: عالجني ولك الغنىٰ. فقال: أصلح الله الملك، أنا طبيب منجِّم، دعني حتَّىٰ أنظر الليلة في طالعك لأرىٰ أيَّ دواءٍ يوافقه. فلمَّا أصبح قال: أيُّها الملك الأمان، فلما أمنه قال: رأيت طالعك يدلُّ علىٰ أنَّه لم يبقَ من عمرك غير شهر واحد، فإن اخترت عالجتك، وإن أردت

---

(١) أساليب النجاح للسيِّد هادي المدرِّسي: ٦٣.

(٢) المصدر السابق، بتصرُّف.

التأكُّد من صدق كلامي فاحبسني عندك، فإن كان لقولي حقيقة فخلِّ عنّي، وإلَّا فاقتصَّ منّي، فحبسه.

ثمّ احتجب الملك عن الناس وخلا وحده مغتمّاً، فكلَّما انسلخ يوم ازداد همّاً وغمّاً حتَّىٰ هزل وخفَّ لحمه، ومضىٰ لذلك ثمان وعشرون يوماً، فأخرجه، فقال: ما ترىٰ؟

فقال المتطبِّب: أعزَّ الله الملك، أنا أهون علىٰ الله من أن أعلم الغيب، والله إنّي لا أعلم عمري فكيف أعلم عمرك!؟ ولكن لم يكن عندي دواء إلَّا الغمّ، فلم أقدر أن أجلب إليك الغمّ إلَّا بهذه الحيلة، فإنَّ الغمَّ يُذيب الشحم، فأجازه الملك علىٰ ذلك، وأحسن إليه غاية الإحسان، وذاق الملك حلاوة الفرح بعد مرارة الغمِّ.

هكذا هو العقل، له من التأثير ما يفوق تصوّراتنا وحساباتنا.

الدور الثاني للعقل: الدعوة إلىٰ دفع الضرر:

شاء الله تعالىٰ أن تكون الحياة الدنيا حياة خطر وحذر، ولم يترك الإنسان سدىٰ، بل وهبه ما يُميِّز به المنافع من المضارِّ، وبالتالي سيكون الإنسان في مأمن من الأخطار إذا ما استعمل ما وهبه الله تعالىٰ له، وذلك هو العقل.

ولكن هذا الكلام واضح ومفهوم في الأخطار المادّية، ولكن ماذا عن الأخطار الغيبية والمصيرية؟ تلك التي تتعلَّق بالاعتقادات القلبية التي تُؤثِّر علىٰ السلوك في الحياة! هل من منبِّه من الضرر والخطر!؟

نعم، والمنبِّه نفسه: العقل!

ويتمثَّل دور العقل هنا في عدَّة موارد، أهمّها:

١ - تحديد المعتَقد:

فمن المعلوم أنَّ الاعتقادات ليست علىٰ شاكلة واحدة، وإن كانت

تشترك في أنَّ السماوية منها كثيراً ما تخالف هوىٰ النفس وشهواتها، فلو أُخبِر أحد ما بدخول الجنَّة جزماً، وتُرِكَ له الخيار في التزام الدين أو عدمه، فلا أظنُّ أنَّه سيتردَّد في اختيار عدمه، إلَّا المعصومين من البشر، وقليل ما هم.

ومن هنا، احتاج كثير من الناس إلىٰ إعمال العقل بدقَّة والتجرُّد عن شهوات النفس، لكي يقتنع بضرورة الالتزام بالدين عملياً.

ومن هذا القبيل ما كان يُنبِّه عليه أهل البيت عليهم السلام المخالفين والمنحرفين علىٰ ضرورة الدين باستخدام معادلة عقلية بسيطة في ألفاظها عميقة في فكرتها.

في رواية أنَّ الإمام الصادق عليه السلام قال لعبد الكريم بن أبي العوجاء: «إن يكن الأمر كما تقول - وليس كما تقول - نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول - وهو كما نقول - نجونا وهلكت»، فأقبل عبد الكريم علىٰ من معه فقال: وجدت في قلبي حزازة، فردّوني، فردّوه، فمات لا رحمه الله[1].

وعن محمّد بن عبد الله الخراساني خادم الرضا عليه السلام، قال: دخل رجل من الزنادقة علىٰ أبي الحسن عليه السلام وعنده جماعة، فقال أبو الحسن عليه السلام: «أيُّها الرجل، أرأيت إن كان القول قولكم - وليس هو كما تقولون -، ألسنا وإيّاكم شرعاً سواء، لا يضرُّنا ما صلَّينا وصمنا وزكَّينا وأقررنا؟»، فسكت، ثمّ قال أبو الحسن عليه السلام: «وإن كان القول قولنا - وهو قولنا -، ألستم قد هلكتم ونجونا؟...»، وبعد نقاش دار بينهما، لم يخرج ذلك الزنديق إلَّا وهو مسلم[2]!

---

(١) الكافي للكليني ١: ٧٨/ باب حدوث العالم وإثبات المحدِث/ ح ٢.

(٢) الكافي للكليني ١: ٧٨/ باب حدوث العالم وإثبات المحدِث/ ح ٣.

إنَّ قيام العقل بهذه المهمَّة الخطرة هو ما جعله حجَّة باطنة علىٰ الإنسان، ففي وصيَّة الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: «يا هشام، إنَّ لله علىٰ الناس حجَّتين: حجَّة ظاهرة وحجَّة باطنة، فأمَّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمَّة عليهم السلام، وأمَّا الباطنة فالعقول»(١).

٢ - تحديد النافع من الضارِّ من طعام الإنسان:

إنَّ من أقوىٰ الغرائز لدىٰ الإنسان هي غريزة حبِّ الطعام، إذ لا يمكنه العيش إلَّا إذا أطعم نفسه، حتَّىٰ ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «لولا الخبز ما صلَّينا ولا صمنا ولا أدَّينا فرائض ربِّنا»(٢).

ولكن هذه الغريزة لا بدَّ من تحديدها بالنافع للإنسان، وقد كان للعقل الدور المهمّ في هذا التحديد، وجاء الشرع ليُنبِّه الإنسان إلىٰ مضارِّ بعض المأكولات ممَّا لم يطَّلع عليه العقل آنذاك، ليكتشف العقل والعلم بعد أكثر من ألف سنة المضارّ الكامنة في ما نهىٰ عنه القرآن الكريم من أكلات، كالخنازير والكلاب والدم والخمر وبول البشر وغير مأكول اللحم والكواسر من الطيور والوحوش... الخ.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ (البقرة: ١٧٣).

وقال تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ...﴾ (المائدة: ٣).

---

(١) الكافي للكليني ١: ١٦/ كتاب العقل والجهل/ ح ١٢.

(٢) الكافي للكليني ٥: ٧٣/ باب الاستعانة بالدنيا علىٰ الآخرة/ ح ١٣.

ولكن الغريب أنَّ البشر يضعون غشاوة علىٰ العقل ليخالفوه في وضح النهار، ولا أقصد تلك المحرَّمات المزبورة، فنحن كمسلمين قد فرغنا عن حرمتها والابتعاد عنها، ولكن أقصد مثل التدخين! فالعلم يصرخ في كلِّ مأذنة بخطره الشديد، ولكن البشر عملياً يخالفون هذا التحذير!

حسب إحصائية عربية أنَّ متوسِّط تدخين الفرد العربي هو (١٠٥٠) سيكارة سنوياً، والمؤتمرات العالمية لشركات التدخين تبحث في رفع هذا المتوسِّط إلىٰ (٤٠٠٠) سيكارة سنوياً! وأمريكا تُقدِّم بليوني دولار لمساعدة زراعة التبغ في الدول النامية، ودول الاتِّحاد الأُوربي قدَّمت سنة (١٩٩١م) مساعدات لزراعة التبغ بقدر(٢٣) ضعفاً بالنسبة لزراعة القمح! فلماذا هذا التأكيد علىٰ الإكثار من هذه المادَّة الضارَّة!؟ وأين منظَّمة الصحَّة العالمية عن هذه الأفعال!؟

تكامل العقل:

يُولَد الإنسان وليس لديه من عقله إلَّا ما يشبه النبتة الجديدة التي تميل حيثما مالت الريح، وهي عرضة للكسر - وبالتالي الموت - في أيِّ لحظة، ولكنَّه ينمو مع بدن الإنسان ويقوىٰ جذره ويتأصَّل في النفس حتَّىٰ يكون هو قائد دفَّة الإنسان في المستقبل. وإنَّما يكون كذلك إذا ما تعاهده المرء بالتربية والتدريب والتقوية حتَّىٰ يتكامل العقل كما تتكامل النبتة بالغذاء، وهذا يعني لابدّية تغذية العقل بما يصب في تكامله.

وعند التأمُّل في الواقع نجد أنَّ هناك العديد من الموارد والمنابع التي تقوّي العقل وتُنمّيه، أو قل: تزيد من ذكاء الإنسان وحِدَّة عقله. وأيضاً هناك عدَّة أُمور تعمل علىٰ نقص العقل وربَّما إماتته، فهناك إذن أُمور تؤدّي إلىٰ تكامل العقل، وأُخرىٰ تميته، فما هي تلك الأُمور؟

أوَّلاً: كيف يتكامل العقل؟

١ - التعلُّم:

يُولَد الإنسان وهو خالٍ من أيِّ معلومة عدا العلوم الفطرية التي أودعها الله تعالىٰ فيه، كهدايته لالتقاط ثدي أُمِّه وبكائه عند الجوع. ولكنَّه زُوِّد بأدوات المعرفة، وواحد من مشاريع الإنسان في هذه الحياة هو مشروع زيادة علمه عبر الاستفادة من أدوات العلم المودَعة في شخصيته، وبزيادة علمه يتكامل عقله وينمو حتَّىٰ يصنع المعجزات!

وبذلك اختلف الإنسان عن الحيوان، فلأنَّ الحيوان لا قدرة له علىٰ التعلُّم - وإن توفَّرت بعض القدرة فهي من القلَّة بمكان -، فقد صارت حياته دائرية، تبدأ من حيث بدأ الآباء وتنتهي حيثما انتهت، ولكن الإنسان حياته تكاملية، تبدأ من حيث انتهىٰ الآباء في بناء هرمي متطوّر ومعقَّد جدّاً. وهذا ما ساعده علىٰ أن يُنمّي قدراته في السيطرة علىٰ الكون ومخلوقاته، فالعلم والتعلُّم هو أهمّ ما يُنمّي العقل ويزيد من قدراته.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أعون الأشياء علىٰ تزكية العقل التعليم»[١].

وقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلىٰ طَعامِهِ ﴿٢٤﴾ (عبس: ٢٤) أنَّ معناه: «علمه الذي يأخذه عمَّن يأخذه»[٢].

إنَّ التعلُّم بحاجة إلىٰ إرادة قويَّة لا تُثنيها الصعاب، ولكي يكون

---

(١) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ١٢٢.

(٢) الكافي للكليني ١: ٤٩ و٥٠/ باب النوادر/ ح ٨.

عندنا تلك الإرادة القويَّة لا بدَّ أن ننظر في أحوال الذين أصرّوا علىٰ طلب العلم رغم الصعاب، وسير علمائنا تنفع كثيراً في هذا المجال.

ولعلَّ شخصاً يقول: إنَّ العلماء كان عندهم من الدافع الذاتي والإلهي ما يجعلهم يتلذَّذون بتعب طلب العلم، ومثل هذا الفرد ينفعه أن يطالع في سيرة أُولئك الذين طلبوا علوماً دنيوية لا علاقة لها بالدين، ولكنَّهم عندما أصرّوا وصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه.

خذ مثالاً علىٰ ذلك: روبرت موريسون، كان أبوه بقّالاً، وبالكاد كان يستطيع أن يتدبَّر أمر عائلته، ولذلك لم يسمح لولده بمواصلة الدراسة بعد الانتهاء من المدرسة الابتدائية، فأخرجه منها وأدخله سوق العمل، لعلَّه يُوفِّر بعض المال لعائلته. ولكن الولد كان شديد التحمُّس للتعلُّم، ودفعه ذلك للاستعاضة بالقراءة والمطالعة عن المعاهد والجامعات، وكان رائده التحمُّس. يقول روبرت:

(لقد استولت الرغبة في التعلُّم علىٰ مشاعري، فتحمَّست للمطالعة، وكانت من أعظم المتع التي عرفتها في حياتي، فكافحت لأُدبِّر الوقت والمكان الصالحين للقراءة، كنت أستيقظ في الصباح أبكر من موعدي المعتاد بساعة، فأرتدي ثيابي في غرفتي الخالية من الدفء التي تقع فوق المتجر، ثمّ ألفُّ نفسي ببطّانية، وأظلُّ أقرأ أكبر قدر مستطاع قبل أن أبدأ العمل، وكانت غرفتي شديدة البرودة لا تصلح للمطالعة ليلاً، فكنت أذهب إلىٰ مقهىٰ قريب وأختار فيه مائدة في ركن بعيد، وفي يدي كتاب، وأظلُّ أقرأ حتَّىٰ ساعة متأخِّرة من الليل، وهكذا أصبحت أقرأ وأقرأ، وازدحمت الأفكار في رأسي، وأُتيحت لي فرص عديدة لاختبارها، إذ أخذت أتحدَّث في الاجتماعات وفي قاعات النقابات، كما

اشتركت في المناقشة التي كانت تجري في أركان الطرقات، وأصبحت عندي نظريات عمَّا يمكن عمله في مائة مشروع مختلف في البلاد، ولذلك انتخبوني وزيراً للخارجية...)[١].

٢ - الاستفادة من التجارب:

إنَّ حياة الإنسان أقصر بكثير من أن يحيط بكلِّ ما حوله، ولكن مع ذلك يمكن له أن يختصر من ذلك الطول إذا ما أخذ النتائج جاهزة عن غيره، ويتمُّ ذلك عبر الاستفادة من تجارب الآخرين، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيَّته لولده الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام: «أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِه، وَنَفْعَه مِنْ ضَرَرِه...»[٢].

وفي خطبة الإمام السجّاد عليه السلام: «... وأشعروا قلوبكم خوف الله، وتذكَّروا ما قد وعدكم الله في مرجعكم إليه من حسن ثوابه، كما قد خوَّفكم من شديد العقاب، فإنَّه من خاف شيئاً حَذَره، ومن حَذَر شيئاً تركه، ولا تكونوا من الغافلين المائلين إلىٰ زهرة الدنيا، الذين مكروا السيِّئات، فإنَّ الله يقول في محكم كتابه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧]، فاحذروا ما حذَّركم الله بما فعل بالظلمة

---

(١) فنون النجاح للسيِّد هادي المدرِّسي: ٤٣ و٤٤.

(٢) نهج البلاغة: ٣٩٣ و٣٩٤/ ح ٣١.

في كتابه، ولا تأمنوا أن ينزل بكم بعض ما تواعد به القوم الظالمين في الكتاب، **والله لقد وعظكم الله في كتابه بغيركم، فإنَّ السعيد من وُعِظَ بغيره**، ولقد أسمعكم الله في كتابه ما قد فعل بالقوم الظالمين من أهل القرىٰ قبلكم حيث قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً﴾، وإنَّما عنىٰ بالقرية أهلها حيث يقول: ﴿ وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١]...»[١].

بزر جمهر، اسم لامع في تاريخ إيران، ولقد عُرِفَ الرجل بحكمته وقلَّة أخطائه ووفرة معارفه، حتَّىٰ سمّوه بزر جمهر الحكيم، سُئِلَ: ممَّن تعلَّمت الأدب والحكمة والأخلاق؟ فقال: تعلَّمته ممَّن لا أدب ولا حكمة ولا أخلاق! فقيل: وكيف ذاك؟ فقال: نظرت إلىٰ الأحمق فكلَّما تصرَّف بشكل خاطئ تجنَّبت الوقوع في أخطائه، ونظرت إلىٰ من لا أخلاق له فكلَّما قام بعمل اشمأزَّ منه الناس لم أفعل مثله، ونظرت إلىٰ من لا أدب له فلم أعمل عمله...»[٢].

ولذلك كان من تعاليم أمير المؤمنين عليه السلام لأتباعه أن أمرهم بالاعتبار بما جرىٰ علىٰ إبليس (لعنه الله) حيث يقول: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الله بِإِبْلِيسَ، إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَه الطَّوِيلَ وَجَهْدَه الجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ الله سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ لَا يُدْرَىٰ أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَىٰ الله بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ...»[٣].

٣ - التأمُّل:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كثرة النظر في العلم يفتح العقل»[٤].

---

(١) الكافي للكليني ٨: ٧٤/ ح ٢٩، خطبة عليٍّ بن الحسين عليهما السلام...

(٢) كيف تتغلَّب علىٰ الفشل للسيِّد هادي المدرِّسي: ٥٩ و٦٠.

(٣) نهج البلاغة: ٢٨٧/ الخطبة ١٩٢.

(٤) الدعوات للراوندي: ٢٢١/ ح ٦٠٣.

إنَّ التأمُّل هو الذي جعل نيوتن يكتشف قانون الجاذبية عندما سقطت التفّاحة بين يديه ولم تصعد إلىٰ السماء، وهو الذي أعطىٰ أرخميدس قانون الكثافة النوعية - علىٰ ما سنسمع بعد قليل -، وهو الذي جعل الحرّ الرياحي يترك الجاه والسلطة ليلتحق بركب الحسين عليه السلام.

وينبغي الانتباه إلىٰ مسألة مهمَّة، وهي: صحيح أنَّ التأمُّل يُنمّي العقل ويزيد من نضجه، ولكن التأمُّل بدوره محتاج إلىٰ راحة بدنية واطمئنان نفسي حتَّىٰ يُؤتي التأمُّل ثمرته.

نسمع من البعض عبارات لا تلتقي مع مقتضيات الدين والعقل والتجارب البشرية، فالبعض يظنُّ بأنَّ النجاح هو أن تتعب وتتعب وتتعب حتَّىٰ تسقط علىٰ الأرض، والحال أنَّ الدين والعقل والتجارب علىٰ عكس هذا، فالنبيُّ موسىٰ عليه السلام بعد أن عانىٰ تعباً شديداً من سفره من مصر إلىٰ مدين، ثمّ سقيه لأغنام ابنتي شعيب عليه السلام، بعد هذا كلِّه يُعطي نفسه فرصة للاستراحة من التعب ويستظلُّ بظلِّ شجرة ثمّ يتوجَّه بالدعاء إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ (القصص: ٢٤).

وأرخميدس، الذي عاش في سيراكيوز حوالي عام (٢٥٠) قبل الميلاد قفز من حمّامه الذي كان يسترخي فيه ودار الشوارع وهو يصيح بأعلىٰ صوته: وجدتها وجدتها.

وإليك ما حدث:

أعطىٰ الملك (هيرد) أحد الصاغة قدراً كبيراً من الذهب ليصنع منه تاجاً له، وفعل الصائغ ذلك، ولكن الملك المتشكِّك قال في نفسه: ماذا لو خلط الصائغ مقداراً من الفضَّة مع الذهب وأخذ ما يقابله من

ذهب؟ وأحال المسألة إلىٰ أرخميدس ليعرف حقيقة الأمر، ولكن أرخميدس لم يكن له علم التحليل الكيميائي، فأصبح وحيداً في العالم، وأرَّقته الفكرة، وتعب ونصب، فما كان منه بعد طول تعب إلَّا أن استلقىٰ في حمّامه، فأزاح بدنه بعض الماء، وهنا لمعت فكرة الكثافة النوعية في ذهنه. وكانت كالتالي: أسقط التاج في إناء ممتلئ إلىٰ حافته بالماء، وأجمع الماء المزاح، وبعد ذلك أسقط قطعة من الذهب الخالص يعادل وزنها وزن التاج في إناء كالأوَّل، وأجمع الماء المزاح، فإذا كان حجم الماء واحداً في الحالتين فالتاج من الذهب الخالص، ذلك لأنَّ مقدار الماء المزاح من أوقية من الفضَّة يختلف عن الماء الذي تزيحه أوقية من الذهب[1].

٤ - التوازن بين العقل والعاطفة:

شاء الباري تعالىٰ أن يجعل للإنسان عاطفة إلىٰ جانب عقله، لها حقوقها وعليها واجباتها كما كان العقل كذلك، والتفريط بها أو الإفراط بها له أثر سيِّئ كما هو الأمر في العقل، والمطلوب هو إحداث توازن بين متطلِّبات العاطفة والمشاعر وبين متطلِّبات العقل.

إنَّ هذا التوازن من شأنه أن يدفع بالعقل نحو النموِّ والتطوّر، وهذا التوازن يُولِّد ما يُسمّىٰ علمياً بالذكاء العاطفي، وقد لاحظ العلماء بأنَّ نجاح الإنسان لا يقتصر علىٰ الذكاء العقلي، فكم من ذكي قد فشل في حياته الأُسرية والاجتماعية، وإنَّما يحتاج إلىٰ الذكاء العاطفي الذي يساهم في البناء القلبي والعاطفي...[2].

---

(١) مفاتيح النجاح للسيِّد هادي المدرِّسي: ٣٩ و٤٠، بتصرُّف.

(٢) المحاضرات الأخلاقية للسيِّد حسين نجيب محمّد: ٢٧٨.

إنَّ العقل يعتمد علىٰ المحاسبة الدقيقة، وتعامله جدّي جدّاً بحيث لا يقبل الخطأ، فهو كالآلة القاسية الجامدة التي لا تقبل إلَّا ما بنيت عليه، ولأجل تحقيق هدفه لا يُعطي مجالاً لصفات الرحمة أو الرأفة أو التسامح، إنَّما عنده (لا يصحُّ إلَّا الصحّ)!

وهذا الأمر وإن كان مطلوباً في بعض جوانب الحياة كالاعتقادات والتزام الدين، ولكنَّه لا يسري علىٰ جميع مستويات الحياة، إذ في كثير من الأحيان نحتاج إلىٰ تحكيم الرحمة والرأفة والتسامح والحبِّ، وعدمها في موردها يؤدّي إلىٰ خلل ملحوظ في الحياة، ولذا كان واحداً من مشاريع الإنسان الناجح هو إحداث التوازن بين متطلِّبات العقل ومتطلّبات العاطفة.

ومن هنا يذكر علماء التنمية البشرية أنَّه لا بدَّ للرجل أن لا يُعطي كلَّ كيانه لعمله، بل عليه أن يجعل جزءاً مهمّاً منه خاصّاً بعائلته، فيُحدِّد وقتاً خاصّاً للجلوس معهم والتكلُّم معهم، يجب أن يكون هناك وقت تلعب فيه مع أولادك الصغار حتَّىٰ تزرع في قلوبهم إحساساً بأنَّك إلىٰ جنبهم وأنَّهم أهمّ من العمل، يجب أن تُعطي بعض وقتك لزوجتك حتَّىٰ تُكلِّمك بمشاعرها، يجب أن تكون مستمعاً جيِّداً كما تُحِبُّ أن تكون متكلِّماً جيِّداً، يجب أن تلاحظ أنَّ أولادك وبناتك يكبرون، وكلُّ مرحلة عمرية يمرّون بها يحتاجون فيها إلىٰ تعامل خاصٍّ بها، فابنتك تحتاج إلىٰ العاطفة أكثر من التعامل العقلي، وليس معنىٰ هذا أنَّ الولد يحتاج إلىٰ التعامل العقلي فحسب، كلَّا، بل هو أيضاً يحتاج إلىٰ العاطفة، ولكن علىٰ مستوىٰ أقلّ قليلاً من البنت.

يقال: إنَّ رجلاً كان منهمكاً بعمله الذي يدر عليه أرباحاً كثيرة ومستمرَّة، فجاءه ولده يوماً وطلب منه أن يجلس معه ساعة واحدة، فردَّ

عليه: يجب أن أذهب إلىٰ العمل، لأنّني في هذه الساعة أحصل علىٰ مبلغ خمسين ألفاً، ولكن سأُعطيك ألف دينار كمصروف يومي لك، فسكت الطفل وأخذ الألف، وبعد مدَّة من الزمن طلب من والده ألفاً آخر غير الألف المعهود، فتعجَّب الوالد الحنون، وقال: ألم أعطك مصروفك اليومي!؟ فردَّ عليه: سأُعلمك بالسبب بعد أن تعطيني، فأعطاه الألف، ففرح الولد ولم تكد الدنيا تحويه، وأمسك بيد والده وجرَّه معه إلىٰ غرفته، وهناك، رفع وسادته وأخرج من تحتها مبلغاً وعدَّده فإذا هو خمسون ألفاً، فأعطاها لوالده، وقال له: هذه هي الخمسون ألفاً التي تحصل عليها خلال ساعة، خذها واجلس معي هذه الساعة!

وعندما نلاحظ تربويات الدين، نجد أنَّ التوازن مطلب مهمّ في كثير من مستويات الحياة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»[1].

وهكذا الأمر في العلاقة مع الأولاد والأطفال عموماً وبالزوجة والأبوين والجيران والزملاء والأصدقاء ومن تلاقيهم في الشارع ومن يجلس إلىٰ جنب مقعدك في السيّارة.

النبيُّ الأكرم صلى الله عليه وآله كان يُعلِّمنا هذا التوازن، فقد كان صلى الله عليه وآله يُؤتىٰ بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة أو يُسمّيه، فيأخذه فيضعه في حجره تكرمة لأهله، فربَّما بال الصبي عليه، فيصيح بعض من رآه حين يبول، فيقول صلى الله عليه وآله: «لا تزرموا[2] بالصبي»، فيدعه حتَّىٰ يقضي بوله، ثمّ يفرغ

---

(١) نهج البلاغة: ٥٢٢/ ح ٢٦٨.

(٢) زرم البول: انقطع. ولا تزرموا، يعني لا تقطعوا بوله. (من المصدر).

له من دعائه أو تسميته، ويبلغ سرور أهله فيه، ولا يرون أنَّه يتأذّىٰ ببول صبيهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده[١].

فالنبيُّ الأكرم ﷺ هنا قدَّم التعامل العاطفي علىٰ العقلي.

ومن هنا نجد أنَّ من المحتمل أنَّ أحد أسباب ما فعله إخوة يوسف معه هو أنَّ أباهم كان يتعامل معهم تعاملاً عقلياً، بينما كان يتعامل مع يوسف بعاطفة أقوىٰ، وحيث وجد الأبناء خللاً في التوازن العقلي والعاطفي، ثاروا وفعلوا ما فعلوا.

الإمام الحسين عليه السلام في اللحظة التي حكَّم التعامل العقلي ليُقدِّم ولده الأكبر للحرب، ولكنَّه لم يغفل التعامل العاطفي المتوازن، فلا يدعه يتقدَّم حتَّىٰ تلاحقه عيناه بدموع حنان الأب الذي ودَّع ولده إلىٰ حيث الموت[٢].

ثانياً: ما هي الأُمور التي تُنقِص العقل؟

الأمر الأوَّل: عدم استغلال أوقات الفراغ:

دَقّاتُ قَلبِ المرءِ قائِلَةٌ لَهُ   إِنَّ الحَياةَ دَقائِقٌ وَثَواني

---

(١) مكارم الأخلاق للطبرسي: ٢٥.

(٢) روىٰ الصدوق رحمه الله في أماليه (ص ٢٢٦/ ح ٢٣٩/ ١)، قال: (... فلـمَّا برز إليهم دمعت عين الحسين عليه السلام، فقال: «اللّهمّ كن أنت الشهيد عليهم، فقد برز إليهم ابن رسولك، وأشبه الناس وجهاً وسمتاً به»، فجعل يرتجز وهو يقول:

أنا عليُّ بن الحسين بن عليّ   نحن وبيت الله أولىٰ بالنبيِّ

أمَا ترون كيف أحمي عن أبي

فقتل منهم عشرة، ثمّ رجع إلىٰ أبيه، فقال: يا أبه العطش، فقال الحسين عليه السلام: «صبرا يا بنيَّ، يسقيك جدُّك بالكأس الأوفىٰ. فرجع فقاتل حتَّىٰ قتل منهم أربعة وأربعين رجلاً، ثمّ قُتِلَ صلّىٰ الله عليه).

فَارفَع لِنَفسِكَ بَعدَ مَوتِكَ ذِكرَها   فَالذِكرُ لِلإِنسانِ عُمرٌ ثاني[١]

ما أن يولد الإنسان علىٰ هذه الأرض حتَّىٰ يبدأ عداد أيّامه بالعدِّ التنازلي، فكلَّما مرَّ يوم انسلخ من روزنامة عمره، تتساقط أيّامه بين يديه كما يتساقط ورق الشجرة في الخريف، حتَّىٰ يأتي اليوم الذي تتعرّىٰ فيه الشجرة من أيِّ ورقة، وهناك ينتهي العمر.

من هنا ورد عن الإمام السجّاد عليه السلام: «أكبر ما يكون ابن آدم اليوم الذي يلد من أُمِّه»، قالت الحكماء: ما سبقه إلىٰ هذا أحد[٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّما أنت عدد أيّام، فكلُّ يوم يمضي عليك يمضي ببعضك، فخفِّض في الطلب و أجمل في المكتسب»[٣].

إنَّ التاجر الناجح هو من يصرف من أرباحه مع حفاظه علىٰ رأس ماله، ولكن الإنسان دائماً يصرف من رأس ماله - وهو عمره -، فهو من هذه الناحية في خسران دائم، وفعلاً ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ (العصر: ٢)، ولا يمكن تعويض هذه الخسارة إلَّا إذا ملأ الإنسان إناء عمره بما ينفعه.

وهنا تكمن المصيبة، فكثير من الناس - خصوصاً في عالم الدول النامية - يعيش حالة ممَّا يُسمّىٰ بوقت الفراغ، وكأنَّه وقت زائد وغير محتسب من العمر، فتجد هكذا إنساناً يحاول أن يسدَّ وقت فراغه بشيء، فلا يجد إلَّا الجلوس أمام التلفاز ليشاهد عرضاً قد حفظه عن ظهر قلب، أو ليدور الشوارع وكأنَّه يقيسها بالأمتار، أو يجلس مع

---

(١) البيتان للشاعر أحمد شوقي من قصيدته المعروفة: المشرقانِ عليكَ ينتحبان.

(٢) الاختصاص للمفيد: ٣٤٢.

(٣) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ١٧٨.

رفقائه ليخوضوا حديثاً في التوافه والغيبة والنميمة، وهم في ذلك يلهون ويُطلِقون الضحكات العالية والقهقهات غير المسؤولة، أو يلعب كرة القدم لوقت غير محدود، أو يقف منتظراً في عيادة الطبيب أو في سيّارة النقل ولا حركة له سوىٰ إطلاق النظرات البلهاء هنا وهناك، أو يقضي الليل سهراناً يجلس أمام التلفاز أو الإنترنيت من دون إلتفات إلىٰ وقته المهدور.

وهذا الوقت المسمّىٰ بوقت الفراغ هو أكثر ما يقتل قدرات العقل ويوقفه عن التفكير والإبداع، لأنَّه يجعل صاحبه يحسُّ بالملل والضجر وعدم الراحة والشعور بالضياع وعدم الهدفية وعدم وضوح الرؤية، وهذه الأُمور كلُّها تهدم قدرات العقل وتحجمها.

وعندما التفت الإنسان إلىٰ هذه الحالة عمل بجد ليُؤسِّس علماً ضخماً يعتني بإدارة الوقت وكيفية استغلاله، وأقام الكثير من الدورات التدريبية، وألَّف مئات الكتب، وأسَّس عشرات المعاهد، كلُّ ذلك ليجد طريقة يستغلُّ فيها ذلك الوقت المهدور فيما ينفع البشرية عموماً والحياة الخاصَّة أيضاً.

والإنسان في ذلك كان محقّاً، ولكنَّه غفل عن أنَّه أضاع الكثير من الوقت والجهود والخبرات في تحصيل تلك الطرق، لأنَّ تلك الطرق كانت بين يديه، وكان من السهل جدّاً عليه تحصيلها، ليختصر بدوره وقتاً هائلاً كان قد ضاع في تحصيلها.

وقد تسأل: وأين تلك الطرق؟

فأقول لك: إنَّها موجودة في تربويات الدين! فعلم إدارة الوقت كان محطّاً لنظر كثير من الأحاديث الدينية، التي عالجت هذا الموضوع علاجاً شافياً، وسنذكر بعضها في الخطوة الأُولىٰ التالية.

وهنا أُريد التنبيه إلىٰ أنَّ من أهمّ ما يُوقِف قدرات العقل هو ما يُسمّىٰ بوقت الفراغ، وحتّىٰ نتخلّص من الملل والضجر في هذا الوقت، وحتّىٰ نُعطي للعقل فرصته في التكامل والإبداع، وحتّىٰ لا يضيع علينا عمرنا سدىٰ، لا بدَّ من اتِّباع خطوات عملية من شأنها أن تجعل أوقاتنا مريحة ومفيدة ومساعِدة علىٰ تنمية العقل، وإذا كان البعض يتصوَّر صعوبة بعضها، فعليه أن يتذكَّر: **إنَّ التقدُّم البطيء خير من التوقُّف التامّ**، هذه الخطوات هي:

الخطوة الأُولىٰ: مطالعة الكلمات التي تُحذِّر من ضياع الوقت، والتي تُعطي الحلول المناسبة لتنظيمه.

فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «يفتح للعبد يوم القيامة علىٰ كلِّ يوم من أيّام عمره أربع وعشرون خزانة عدد ساعات الليل والنهار، فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وُزِّع علىٰ أهل النار لأدهشهم عن الإحساس بألم النار، وهي الساعة التي أطاع فيها ربَّه. ثمّ يُفتَح له خزانة أُخرىٰ فيراها مظلمة منتنة مفزعة فيناله عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قُسِّم علىٰ أهل الجنَّة لنغَّص عليهم نعيمها، وهي الساعة التي عصىٰ فيها ربَّه. ثمّ يُفتَح له خزانة أُخرىٰ فيراها فارغة ليس فيها ما يسرُّه ولا يسوؤه، وهي الساعة التي نام فيها أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فيناله من الغبن والأسف علىٰ فواتها - حيث كان متمكِّنا من أن يملأها حسنات - ما لا يوصف، ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ﴾ [التغابن: ٩]»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتَّىٰ يُسئل

(١) عدَّة الداعي لابن فهد الحلّي: ١٠٣.

عن أربع: عن عمره فيما أفناه، و[عن] شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبِّنا أهل البيت»[١].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان والثقات الذين يُعرِّفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذّاتكم في غير محرَّم، وبهذه الساعة تقدرون علىٰ الثلاث ساعات»[٢].

الخطوة الثانية: القراءة، كان الناس فيما سبق يعتمدون علىٰ القراءة في علومهم، ولكن بعد أن تقدَّمت العلوم وتطوَّرت جاءت الكثير من البدائل عن القراءة كالمذياع والتلفاز والشبكة المعلوماتية وغيرها، ولكن رغم ذلك يبقىٰ للكتاب النصيب الأوفر في حفظ العلم ونشره، والشاهد علىٰ ذلك أنَّ جميع البدائل عنه تعتمد عليه، فإنَّها إنَّما تستمدُّ معلوماتها من خلال الكتاب.

وشعب لا يقرأ مصيره الجهل.

وأُمَّة لا تُحِبُّ الكتاب مصيرها الظلام.

وفرد لا يقرأ هو والأعمىٰ سواء!

ومن هنا نجد أنَّ العقل وتربويات الدين في دعوة مستمرَّة للقراءة، يكفي أنَّها من أهمّ الوسائل لتنمية وزيادة الذكاء، وقد سمعنا كيف أنَّ (**روبرت موريسون**) استطاع أن يصل إلىٰ منصب وزير الخارجية من القراءة فقط. وقد نُقِلَ أنَّ اليابان تضع مكتبة لكتب صغيرة

---

(١) الخصال للصدوق: ٢٥٣/ ح ١٢٥.

(٢) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني: ٤٠٩ و٤١٠.

في بيت الخلاء، فيمكن لمن يقضي حاجته أن يقرأ معلومة أو اثنتين فيزيد من دخله العلمي. ومهما كان نوع الكتاب الذي تقرؤه فإنَّه سيساهم في ملئ بعض أوقات الفراغ.

وثَمَّة ملاحظات مهمَّة بالنسبة للقراءة التي نريد أن نملأ بها ما يُسمّىٰ بوقت الفراغ:

أ - لا تُكرِه نفسك علىٰ قراءة ما لا تُحِبُّ، فالقراءة كالطعام ما لم تشتهه لن تتلذَّذ به. علماً أنَّك في بعض الأحيان سوف تضطرُّ لأكل بعض أنواع الطعام لأنَّها تُمثِّل شفاءً لك مثلاً، وهكذا الكتب فبعضها ستضطرُّ لقراءته، فينبغي أن تُكيِّف نفسك معه. وكان أحد العلماء يقول: (إنَّني إذا تعبت من القراءة فأستريح بالقراءة)، بمعنىٰ أنَّه إذا كان يقرأ الكتب العلمية مثلاً، فإذا تعب منها قرأ الكتب الأدبية والتاريخية والقصصية.

ب - احمل قلماً معك أثناء القراءة، حتَّىٰ تُلخِّص الأفكار المهمَّة في دفتر مستقلٍّ، أو يمكنك أن تضع خطّاً تحتها في نفس الكتاب.

ج - عندما تقرأ سيبدأ عقلك بالإبداع، فإذا أبدع فكرة فلا تهملها، بل حاول أن تُدوِّنها بسرعة قبل أن تطير!

د - إذا فقدت التركيز علىٰ القراءة فاقرأ بصوتٍ عالٍ، فسماعك لصوتك يزيد من إمكانية التركيز والحفظ.

الخطوة الثالثة: حضور المؤتمرات والندوات والمحاضرات الجديدة، فإنَّ لذلك أثراً مهمّاً في ملئ أوقات الفراغ، وإن لم يمكن ذلك لقلَّة الإمكانيات، فيمكن سماعها بواسطة الأقراص الليزرية وما شابه، وبالتجربة قد استفدت كثيراً من الدورات التدريبية والندوات التي لم

أكن أستطيع حضورها، ولكنّي استعضت عن الحضور بالكمبيوتر. علماً أنَّه يلزم كتابة تلك الندوات والدورات، وإلَّا فإنَّ المعلومة ستفرُّ كما يفرُّ طائر سجين من قفصه!

وصدق الصادق الأمين ﷺ حينما قال: «قيدوا العلم بالكتاب»[١].

وقد قيل: ما كُتِبَ قرَّ، وما حُفِظَ فرَّ.

الخطوة الرابعة: الاستفادة من أجهزة الإعلام الحديثة كالتلفاز والمذياع والإنترنيت، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة عدم الانخداع بكلِّ ما يُطرَح فيها، بمعنىٰ أن ينتبه الشخص إلىٰ النافع منها ويهرب من الضارِّ، فإنَّها من نوع السلاح ذي الحدَّين. أي إنَّه لا بدَّ من القيام بعملية انتقاء مدروس لوسائل الإعلام.

ولا يحقُّ لأحد أن يقول: ما دمت أُريد أن أملأ وقت فراغي فلا تُقيِّدْني بشيء.

لأنّا نقول له: وهل إذا أردت أن تملأ معدتك من الطعام تملؤها بدون محاسبة سابقة وانتقاء مسبق لنوعية الطعام!؟

فعجباً لمن يعتني بطعام بطنه كيف لا يعتني بطعام عقله!؟

الخطوة الخامسة: تعلُّم المهارات الجديدة، التي من شأنها أن تقضي علىٰ وقت الفراغ من جانب، وتزيد من إبداع الشخص ومدخوله المادّي من جانب آخر. فيمكن للفرد أن يتعلَّم قراءة القرآن الكريم وأحكامه، أو علوم الحاسوب المتنوِّعة، أو فنَّ التصوير، أو السياقة أو الحدادة أو النجارة. ويمكن للمرأة أن تتعلَّم الحياكة

---

(١) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني: ٣٦.

والخياطة، يمكنها أن تأخذ كتاباً لتتعلَّم طبخ أنواع جديدة من الأكل، يمكن لنا أن نتعلَّم أُسلوب الإسعافات الأوَّلية، أو أن نتعلَّم لغة جديدة، أو ندرس في معهد ما، يمكن للمرء أن يُطوِّر نفسه في ألف فرع وفرع من فروع الحياة، وبذا يمكنه أن يملأ وقته بالنافع المفيد. وليتذكَّر أنَّ: «قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُه»[1]، وليضع نصب عينيه أنَّ: **التمرين يؤدّي إلىٰ الكمال.**

الخطوة السادسة: تخصيص جزء من وقت الفراغ لقضائه مع الأُسرة، فالأُسرة مؤسَّسة تربوية، فيها تتمُّ تنمية طرق التفكير والتعبير، وفيها يُكتَسب الدين، واللغة، والتقاليد، والعادات، وطريقة الكلام. فلا بدَّ أن يشعر الجميع بروح التعاون والتآلف، ويساعد علىٰ ذلك أن يقضوا معاً أوقات فراغهم بشكل منظَّم، وأن يشمل ذلك مختلف الأنشطة التي يُحِبُّها الأبناء ويُفضِّلونها من أنشطة رياضية وفنّية وألعاب ومسابقات ثقافية، ويكون ذلك كالتالي:

- استغلال فترة الغذاء وتجمُّع الأُسرة وتبادل الأحاديث والمواقف التي تعرَّض لها الأب والأُمُّ، وشرح طريقة تصرُّف كلٍّ منهما تجاه كلِّ موقف.
- الاستفادة من المسافات الطويلة التي يقطعها أفراد الأُسرة معاً في السيّارة بسرد قصص شيِّقة من الواقع تشرح تجارب الآخرين، وكذلك بالاستماع للأشرطة المفيدة.
- اصطحاب الأُسرة لزيارة المعالم الأثرية والثقافية.

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨٢/ ح ٨١، وعلَّق الشريف الرضي رحمه الله علىٰ هذه الكلمة بقوله: (وهذه الكلمة التي لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تُقرَن إليها كلمة).

- اقتناء مكتبة تضمُّ المراجع المختلفة وبعض الكتب النافعة.

- اقتناء أُسطوانات الكمبيوتر التي تضمُّ القيم والمعلومات المفيدة.

- قراءة القرآن بالمنزل وتعليمه أهل بيتك، فعن رسول الله ﷺ: «من علَّم ولداً له القرآن، قلَّده الله قلادة يعجب منها الأوَّلون والآخرون يوم القيامة»[١].

الخطوة السابعة: قضاء بعض الوقت في الترفيه والترويح، بشرط خلوّه من المفاسد والمحرَّمات، ومن الإسراف والتبذير، والحذر من أن يأخذ الترفيه كلَّ الوقت، بل لا بدَّ أن يُحدَّد له وقتٌ لا يزيد ولا ينقص إلَّا بمقدار الضرورة. ويمكن إعطاء قائمة متنوِّعة من أساليب الترويح عن النفس، منها التالي:

أ - **الترويح الرياضي**، ككرة القدم، وألعاب القوىٰ، وفنِّ الاسترخاء، والتنفُّس الصحيح للأُوكسجين، والسباحة، والرماية، والسياقة، وركوب الخيل، وغيرها. يقول رسول الله ﷺ: «علِّموا أولادكم السباحة والرماية»[٢].

ب - **الترويح الفنّي**، كممارسة هواية الرسم، والخطِّ، والنقش، والتخريم، والأشغال اليدوية من حياكة، وتطريز، وصناعة الورد، وتزيين البيوت...

ج - **الترويح الاجتماعي**، كالتزاور الذي حثَّ الإسلام عليه كثيراً، ومنه المراسلة والمهاتفة وإحياء مناسبات عيد الميلاد والزواج، وغيرها ممَّا له أثر في تقوية أواصر المحبَّة، وفي نفس الوقت يملأ بعضاً من وقت الفراغ.

---

(١) كنز العمّال للمتَّقي الهندي ١: ٥٣٣/ ح ٢٣٨٦.

(٢) الكافي للكليني ٦: ٤٧/ باب تأديب الولد/ ح ٤.

د - **الترويح السياحي**، كزيارة المراقد المقدَّسة والمناطق الأثرية والتاريخية والسياحية، ممَّا له فوائد نفسية وثقافية وبدنية.

وفي كلِّ أنواع الترويح ينبغي اصطحاب الأهل من زوجة وأطفال ووالدين مهما أمكن، ليكون الترويح شاملاً لأفراد العائلة عموماً، ممَّا يرجع بالفائدة للعائلة عموماً.

الخطوة الثامنة: مطالعة حياة المثابرين وكيف أنَّهم كانوا يستغلّون كلَّ لحظة من حياتهم، وأثمر ذلك لهم النجاح والخلود.

الأمر الثاني: اتِّباع الهوىٰ والشهوات:

غالباً هناك تعارض بين متطلِّبات العقل وبين متطلِّبات الشهوات، فمن طبيعة الإنسان أنَّه يُحِبُّ أن يكون متموِّلاً، والشهوات تقول له: كن كذلك بأيِّ أُسلوب، سواءً كان بالربا أو بالسلب أو بقتل النفس المحرَّمة وما شابه، ولكن العقل يُحدِّد تلك الرغبة، ويقول: لا تكن كذلك إلَّا من الطريق الصحيح. ولأجل تحقيق الطريق الصحيح تجد العقل يحاول أن يُبدِع ويخترع من باب (الحاجة أُمُّ الاختراع)، فلو أطاع أحد هواه لكبَّل عقله ومنعه من التطوّر والنموِّ، وهو ما عبَّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام: «ذهاب العقل بين الهوىٰ والشهوة»[1].

وهكذا في جميع مجالات الحياة، هناك تعارض بين العقل والهوىٰ، فالهوىٰ والشهوات تريد إشباع الغرائز بأيِّ وسيلة والعقل يُقيِّدها، وحتَّىٰ يملأ الفراغ تجده يُبدِع ويخترع ويتقدَّم وينمو.

فإذا ما اتَّبع المرء شهواته، فقد قيَّد، بل وقتل عقله.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٢٥٦.

الأمر الثالث: عدم الاستماع إلىٰ ذوي العقول:

إنَّ العقل يصدأ في بعض الأحيان، لتراكم الهموم والأحزان، ولكثرة المشاغل والأعمال، وتعدُّد المسؤوليات والمهامّ، فيصل إلىٰ حالة ربَّما يتوقَّف عن العمل، ولا يجد أيَّ حلٍّ بين يديه، وهنا يحتاج إلىٰ استماع من ذوي العقول الثاقبة، وهو ما دعت إليه الأديان والعقول، فموضوع الاستشارة وجمع عقول الآخرين إلىٰ عقلك أمر مهمٌّ في تنمية العقل، أمَّا إذا أبىٰ المرء إلَّا أن لا يسمع كلام غيره، عندها سيواجه مصيره المحتوم: عقلاً جافّاً، وقلَّة خبرة، وأحداثاً متوالية، تؤدّي إلىٰ الفشل الذريع.

يقول الإمام عليٌّ عليه السلام: «من ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله»[1].

الأمر الرابع: مصاحبة الجاهل:

هناك ما يُسمّىٰ بالعقل الجمعي، ومعناه أنَّ الإنسان يتأثَّر بالكثرة من حوله، فلو كنت ماشياً في طريق ورأيت كلَّ من هم أمامك عبروا الشارع، فإنَّ العقل الجمعي يدعوك لأن تسلك مسلكهم. ولو كنت جالساً مع جماعة، وتثاءب أحدكم، فتلقائياً ستجد نفسك تتثاءب معه، وربَّما تسري هذه الحالة إلىٰ جميع الجالسين!

وفي غالب الأحيان يُعطي العقل الجمعي أوامره من دون رويَّة ولا تفكُّر، بل من باب (حشرٌ مع الناس عيدٌ).

ومن هنا جاءت التعاليم علىٰ ضرورة اختيار الجماعة الصالحة، بما في ذلك الأصدقاء، إذ قد أثبتت الأبحاث العلمية أنَّ للأصدقاء تأثيراً، ربَّما بل هو يفوق تأثير الأبوين والمدرسة وحتَّىٰ الأعراف والتقاليد

---

(١) كنز الفوائد للكراجكي: ٨٨.

الرسمية. وبصورة عامَّة فإنَّ للأصدقاء تأثيراً خفيّاً وتدريجياً علىٰ الشخص، خصوصاً في الأخلاق والعادات السيِّئة، إذ في بعض الأحيان يكون تأثير الأخلاق السيِّئة علىٰ الشخص أقوىٰ من تأثير الأخلاق الحسنة، تماماً كما أنَّ بعض الأمراض تُعدي، بعكس الصحَّة فإنَّها لا تُعدي. ومن هنا أمكن لأخلاق الصاحب أن تنتقل إلىٰ صاحبه، ولذا وردت التأكيدات علىٰ اختيار الصاحب الجيِّد.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قالت الحواريون لعيسىٰ: يا روح الله، من نجالس؟ قال: من يُذكِّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويُرغِّبكم في الآخرة عمله»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «جالس الحكماء يكمل عقلك، وتشرف نفسك، وينتفِ عنك جهلك»[2].

ومن هنا كانت مجالسة الجاهل تُعدي، ممَّا يعني تأثيرها علىٰ العقل سلباً، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من صحب جاهلاً نقص من عقله»[3].

ويقول عليه السلام: «ليس من جالس الجاهل بذي معقول، من جالس الجاهل فليستعدَّ لقيل وقال»[4].

الإضلال في العقل:

إذا عرفنا معنىٰ هداية العقل، فالضلالة حينئذٍ هي بأحد معاني:

المعنىٰ الأوَّل: عدم إعطاء العقل، كما في النبات والحيوان، أو

---

(١) الكافي للكليني ١: ٣٩/ باب مجالسة العلماء وصحبتهم/ ح ٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٢٢٣.

(٣) كنز الفوائد للكراجكي: ٨٨.

(٤) الكافي للكليني ٨: ٢٢/ ح ٤، خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، وهي خطبة الوسيلة.

بزوال العقل من الإنسان. وهو وإن كان من الله تعالىٰ، ولكنَّه ليس بقبيح في النباتات والحيوانات كما هو واضح.

وأمَّا في الإنسان، فهو ليس قبيحاً أيضاً، لعدَّة أسباب، منها التالي:

أوَّلاً: أنَّ الإنسان باعتبار أنَّه عبد مملوك لله تعالىٰ فلا يستحقُّ شيئاً علىٰ الله ﷻ لا عقلاً ولا أيَّ شيء، وإعطاؤه العقل إنَّما هو من باب التفضُّل، فإذا لم يرد أن يتفضَّل فلا قبح فيه.

ثانياً: فضلاً عن هذا فإنَّ عدم إعطاء العقل للإنسان يعني الجنون، والجنون قد تكون له أسباب طبيعية تدخل ضمن نظام العلَّة والمعلول، إذ لعلَّه لمرض وراثي أو صدمة نفسية أو عقار معيَّن فَقَدَ الإنسان عقله، وهذا هو نظام هذا العالم.

ثالثاً: أنَّ الله تعالىٰ عندما أعطىٰ العقل للإنسان فإنَّه جعله في موضع المسؤولية، فكلَّفه وأوجب عليه التزام التكليف، وأمَّا إذا فَقَدَ الإنسان عقله فتلك التكاليف تُرفَع عنه، فلا يلزم من ذهاب العقل تكليف المجنون بما لا يُطاق، **فلا قبح من هذه الجهة**[١].

المعنىٰ الثاني: التفاوت في درجات العقل، وهذا أمر واقع بالوجدان، ولكنَّه أمر تقتضيه طبيعة الحياة، فتصوَّر لو أنَّ كلَّ الناس علماء أذكياء، فهل سيرضىٰ أحدهم أن يكون خادماً لآخر أو عاملاً عنده!؟

مع أنَّ هذا التفاوت قد يكون بسبب نفس الإنسان، كقلَّة التعليم أو عدمه، وكالوراثة. فضلاً عن أنَّه تعالىٰ لا يغبن قليل العقل، فإنَّ الروايات تؤكِّد علىٰ أنَّ الحساب هو علىٰ درجة عقل الإنسان، فعن أبي

---

(١) وقد قيل بأنَّه يعود عاقلاً يوم القيامة، وبأنَّه سيدخل الجنَّة. وقيل بأنَّه سيُختَبر هناك ليعلم إيمانه من عدمه. راجع التفاصيل في الأمر الثاني من الفصل السادس: هداية الفلاح.

جعفر عليه السلام، قال: «إنَّما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة علىٰ قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[١].

وينبغي الالتفات إلىٰ أنَّ هذا المعنىٰ (المداقَّة علىٰ قدر العقول) يجري في جانب الثواب والعقاب كليهما، ولذا كان بعض الناس قليل العمل لكنَّه عظيم الثواب، والبعض عظيم العمل لكنَّه قليل الثواب، كلُّ ذلك تبعاً لمقدار المعرفة والعقل.

عن محمّد بن سليمان الديلمي، عن أبيه، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله؟ فقال: «كيف عقله؟»، قلت: لا أدري، فقال: «إنَّ الثواب علىٰ قدر العقل، إنَّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة، كثيرة الشجر، ظاهرة الماء، وإنَّ ملكاً من الملائكة مرَّ به، فقال: يا ربِّ، أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله [تعالىٰ] ذلك، فاستقلَّه الملك، فأوحىٰ الله [تعالىٰ] إليه: أن اصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسي فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد، بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان، فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك، فلمَّا أصبح قال له الملك: إنَّ مكانك لنزه، وما يصلح إلَّا للعبادة، فقال له العابد: إنَّ لمكاننا هذا عيباً! فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربِّنا بهيمة، فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضع، فإنَّ هذا الحشيش يضيع، فقال له [ذلك] الملك: وما لربِّك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يُضيِّع مثل هذا الحشيش، فأوحىٰ الله إلىٰ الملك: إنَّما أُثيبه علىٰ قدر عقله»[٢].

---

(١) الكافي للكليني ١: ١١/ كتاب العقل والجهل/ ح ٧.

(٢) الكافي للكليني ١: ١١ و١٢/ كتاب العقل والجهل/ ح ٨.

المعنىٰ الثالث: عدم الجري علىٰ مقتضىٰ العقل وما يستدعيه، أي توظيف العقل توظيفاً خاطئاً. وهذا من الإنسان باختياره لا من الله تعالىٰ، فلا ظلم فيه ولا جبر.

والعجيب أنَّ بإمكان الإنسان أن يستعمل عقله في ضدِّ ما يمليه عليه عقله، وهذا من عجائب العقل، وعندئذٍ ينسلخ العقل عن حقيقته الملكوتية ليصبح أداة قاتلة وفتّاكة، وبدلاً من أن يدلَّ علىٰ الله تعالىٰ يصبح أداة للإبعاد عن الله تعالىٰ. وهذا المعنىٰ يدعونا إلىٰ أن نتعرَّف حقيقة العقل، فليس كلُّ ذكاء أو دهاء يُسمّىٰ عقلاً، بل العقل هو ما دعا صاحبه لطاعة الله تعالىٰ وألزمه بالعمل والجري علىٰ مقتضىٰ هذه الدلالة، فقد قيل لأبي عبد الله عليه السلام: ما العقل؟ قال: «ما عُبِدَ به الرحمن واكتُسِبَ به الجنان»، فقيل: فالذي كان في معاوية؟ فقال: «تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل»[1].

قال مطرف بن المغيرة بن شعبة: وفدت مع أبي المغيرة علىٰ معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدَّث معه ثمّ ينصرف إليَّ، **فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب ممَّا يرىٰ منه،** إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمّاً، فانتظرته ساعة، وظننت أنَّه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت: ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟ فقال: يا بنيَّ، إنّي جئت من عند أخبث الناس!

قلت: وما ذاك؟

قال: قلت له وخلوت به: إنَّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فإنَّك قد كبرت، ولو نظرت إلىٰ إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوَالله ما عندهم اليوم شيء تخافه.

---

(١) الكافي للكليني ١: ١١/ كتاب العقل والجهل/ ح ٣.

فقال: هيهاتَ هيهاتَ، ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فوَالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلَّا أن يقول قائل: أبو بكر. ثمّ ملك أخو عدي، فاجتهد وشمَّر عشر سنين، فوَالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلَّا أن يقول قائل: عمر. ثمّ ملك أخونا عثمان، فهلك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه، فعمل ما عمل وعمل به، فوَالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، وذكر ما فعل به. وإنَّ أخا بني هاشم يُصرَخ به في كلِّ يوم خمس مرّات: (أشهد أنَّ محمّداً رسول الله)، فأيُّ عمل يبقىٰ بعد هذا لا أُمَّ لك؟ لا والله إلَّا دفناً دفناً[1].

ومن هذا القبيل - أي عدم الجري علىٰ مقتضىٰ العقل - ما يُبتلىٰ به البعض من الوسوسة وكثرة الشكِّ في وضوئه أو صلاته، فعن عبد الله بن سنان، قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلىٰ بالوضوء والصلاة، وقلت: هو رجل عاقل، فقال أبو عبد الله: «وأيُّ عقل له وهو يطيع الشيطان؟»، فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: «سَلْه، هذا الذي يأتيه من أيِّ شيء هو؟ فإنَّه يقول لك: من عمل الشيطان»[2].

* * *

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٤٥٤.

(٢) الكافي للكليني ١: ١٢/ كتاب العقل والجهل/ ح ١٠.

الفصل الثالث:

هداية الدعوة

هداية الدعوة:

وهـي بمعنـىٰ إرسـال الله عَزَّ وَجَلَّ مجموعـة مـن البشـر بعنـوان كـونهم رسـلاً منـه جـلَّ وعـلا إلىٰ النـاس، ليـدلّوهم عـلىٰ مـا فيـه صـلاحهم، وليبعدوهم عمَّا فيه هلاكهـم، سـواء كـان ذلـك فـيما يتعلَّـق بـالأُمور الدنيويـة أو ما يتعلَّق بالأُمور الأُخروية، لطفاً منه بعباده، وتحنُّناً عليهم.

وهي هداية منفصلة - في قبال الهداية المتَّصلة التي هـي هدايـة العقـل - بواسطة الأنبياء والرسل والأوصياء والكتب، وهي هداية عامَّـة لكـلِّ عاقـل، فيكون العقل الذي ميَّز الإنسان عن غيره من الموجودات الأرضية قد عُزِّز بعقل منفصل يعينه ويدلُّه علىٰ الطريق المستقيم لكي لا يخفق أو يتعثَّر.

فكلُّ عاقل كان له مـا يدفعـه نحـو مـا يخـالف مقتضـىٰ العقـل - مـن الجـنِّ والإنـس وغيرهمـا - فـإنَّ الله تعـالىٰ يُرسِـل لـه الـدعاة، سـواء قبـل العاقل منهم أو لم يقبل.

وهذه الهداية هـي واجبـة عـلىٰ الله تعـالىٰ مـن بـاب اللطـف، بمعنـىٰ أنَّ الله تعالىٰ قـد أوجـب عـلىٰ نفسـه أن يسـاعد بنـي آدم في الوصـول إلىٰ الهـدف، حيث علم جلَّ وعـلا بـأنَّهم يحتـاجون إلىٰ تـدخُّل غيبـي، فمـن بـاب اللطـف بعث لهم الأنبياء والرُّسُل وأنزل الكتب ونصَّب الأوصياء.

وهذه الهداية تامَّـة مـن قِبَـل الله تعـالىٰ، ولا خلـل فيهـا، وهنـاك آيـات عديدة تدلُّ علىٰ أنَّه جلَّ وعلا قد أكمل هذ المشروع علىٰ أتمّ وجه.

وتشير إلىٰ هذا النوع من الهداية عدَّة آيات، منها التالي:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران: ١٦٤).

فقبل إرسال الأنبياء كان الناس في ضلال من هذه الجهة، جهة عدم توفُّر الداعي إلىٰ الله تعالىٰ، فأزال الله جلَّ وعلا عنهم هذا الضلال بإرساله الأنبياء والرُّسُل، فهي هداية منه جلَّ وعلا.

وفي نفس السياق جاء قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة: ٢).

وأيضاً قوله تعالىٰ: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة: ١٥ و١٦).

ضلال الدعوة:

الضلال في هذه المرتبة يُتصوَّر بأحد شكلين:

الشكل الأوَّل: عدم إرسال الله ﷻ الأنبياء والرسل، وعدم إنزال الكتب.

وهذا الأمر غير متحقَّق قطعاً، لأنَّ الله تعالىٰ لم يدع أُمَّة من غير نذير، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (فاطر: ٢٤).

وهنا قد يتبادر إلىٰ الذهن التالي:

إنَّ القرآن الكريم وفي مقام حديثه عن إرسال النبيِّ الأكرم ﷺ يُصرِّح

بأنَّ إرساله كان علىٰ فترة من الرسل، قال تعالىٰ: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ (المائدة: ١٩).

ومعنىٰ (الفترة) هي ما بين الرسولين، فهذه الآية تقول: إنَّ الله تعالىٰ أرسل الرسول الأكرم ﷺ في فترة كانت خالية من الرُّسُل، وهذا يتنافىٰ مع الآية المتقدِّمة الدالّة علىٰ أنَّ كلَّ أُمَّة كان فيها نذير.

والجواب:

أوَّلاً: الآية قالت: إنَّه ﷺ جاء علىٰ فترة من الرُّسُل لا الأنبياء، ومعلوم أنَّ الأنبياء أكثر بكثير من الرُّسُل، فلا ملازمة بين عدم وجود رسول وبين عدم وجود نبيٍّ، فقد يكون في زمن لا يوجد رسول ولكنَّه يوجد نبيٌّ. وهذا هو المروي، حيث ذكرت بعض الروايات وجود بعض الأنبياء بين النبيِّ الأكرم ﷺ وبين النبيِّ عيسىٰ عليه السلام، كخالد بن سنان العبسي كما سيأتي بعد قليل.

ثانياً: فضلاً عن هذا فإنَّه وبوجود الكتاب السماوي (الإنجيل) وبوجود العلماء والأوصياء في تلك الفترة فإنَّ الحجَّة قائمة علىٰ الناس، وإنَّما يرسل الله تعالىٰ الرُّسُل لإتمام الحجَّة عليهم، فإذا كانت الحجَّة تامَّة لم يكن عدم الإرسال منافياً لهداية الدعوة، إذ الهداية موجودة حسب الفرض.

ثالثاً: أنَّ المقصود من الفترة هو خلوّها من حجَّة ظاهر، وأمَّا الحجَّة غير الظاهر فقد كان موجوداً في تلك الفترة.

وهذا المعنىٰ - أي عدم خلوِّ الأرض من حجَّة ولو غير ظاهر - هو ما صرَّح به أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «اللَّهُمَّ بَلَىٰ لَا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لله بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ الله وَبَيِّنَاتُه»[1].

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩٧/ ح ١٤٧.

وهذا ما ذهب إليه الشيخ الصدوق رحمه الله في إكماله، حيث قال ما نصُّه:

(وإنَّما معنىٰ الفترة أنَّه لم يكن بينهما رسول ولا نبيٌّ ولا وصيٌّ ظاهر مشهور كمن كان قبله، وعلىٰ ذلك دلَّ الكتاب المنزل أنَّ الله عز وجل بعث محمّداً صلى الله عليه وآله علىٰ حين فترة من الرُّسُل، لا من الأنبياء و الأوصياء، ولكن قد كان بينه وبين عيسىٰ عليهما السلام أنبياء وأئمَّة مستورون خائفون، منهم خالد بن سنان العبسي، نبيٌّ لا يدفعه دافع ولا ينكره منكر، لتواطئ الأخبار بذلك عن الخاصِّ والعامِّ، وشهرته عندهم، وأنَّ ابنته أدركت رسول الله صلى الله عليه وآله ودخلت عليه، فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «هذه ابنة نبيٍّ ضيَّعه قومُه، خالد بن سنان العبسي»[1]، وكان بين مبعثه ومبعث نبيِّنا محمّد صلى الله عليه وآله خمسون سنة...»[2].

---

(١) في الكافي للكليني (ج ٨/ ص ٣٤٢ و٣٤٣/ ح ٥٤٠، حديث ابنة خالد بن سنان): عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً إذ جاءته امرأة، فرحَّب بها وأخذ بيدها وأقعدها، ثمّ قال: ابنة نبيٍّ ضيَّعه قومه، خالد بن سنان، دعاهم فأبوا أن يؤمنوا، وكانت نار يقال لها: نار الحدثان تأتيهم كلَّ سنة فتأكل بعضهم، وكانت تخرج في وقت معلوم، فقال لهم: إن رددتها عنكم تؤمنون؟ قالوا: نعم»، قال: «فجاءت فاستقبلها بثوبه فردَّها، ثمّ تبعها حتَّىٰ دخلت كهفها ودخل معها، وجلسوا علىٰ باب الكهف وهم يرون ألَّا يخرج أبداً، فخرج وهو يقول: هذا هذا وكلُّ هذا من ذا (أي هذا شأني وإعجازي)، زعمت بنو عبس أنّي لا أخرج وجبيني ينديٰ (أي يبتلُّ من العرق)، ثمّ قال: تؤمنون بي؟ قالوا: لا، قال: فإنّي ميِّت يوم كذا وكذا، فإذا أنا متُّ فادفنوني، فإنَّها ستجيء عانة (القطيع من حمر الوحش) من حمر يقدمها عَير أبتر (والعَير بالفتح: الحمار الوحشي، وقد يُطلَق علىٰ الأهلي أيضاً. والأبتر: المقطوع الذنب) حتَّىٰ يقف علىٰ قبري، فانبشوني وسَلوني عمَّا شئتم، فلمَّا مات دفنوه، وكان ذلك اليوم إذ جاءت العانة اجتمعوا وجاؤوا يريدون نبشه، فقالوا: ما آمنتم به في حياته، فكيف تؤمنون به بعد موته؟ ولئن نبشتموه ليكون سبَّة عليكم، فاتركوه، فتركوه».

(٢) كمال الدين للصدوق: ٦٥٩/ باب ٥٨/ ذيل الحديث ٢.

نكتة مهدوية:

ذكرت بعض الروايات الشريفة أنَّ الإمام المهدي عليه السلام يظهر بعد فترة من الأئمَّة، بمعنىٰ أنَّه يظهر بعد وجود فاصل زمني بينه وبينه آخر ظهور وحضور للمعصوم.

فقد روي عن أبي حمزة، قال: دخلت علىٰ أبي عبد الله عليه السلام، فقلت له: أنت صاحب هذا الأمر؟ فقال: «لا»، فقلت: فولدك؟ فقال: «لا»، فقلت: فولد ولدك هو؟ قال: «لا»، فقلت: فولد ولد ولدك؟ فقال: «لا»، قلت: من هو؟ قال: «الذي يملؤها عدلاً كما مُلِئَت ظلماً وجوراً، علىٰ فترة من الأئمَّة، كما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بُعِثَ علىٰ فترة من الرُّسُل»[1].

وهذا يتناسب مع المعنىٰ الأخير الذي ذُكِرَ عن الشيخ الصدوق رحمه الله.

الشكل الثاني: الإضلال بمعنىٰ عدم اتِّباع الإنسان للنبيِّ، وهذا الأمر وإن كان واقعاً ولكنَّه ليس قبيحاً علىٰ الله تعالىٰ، لأنَّه من فعل الإنسان وباختياره.

فما هو من جانب الله تعالىٰ - وهو توفير الدعاة والحجج - قد كمل علىٰ أتمّ وجه.

ويبقىٰ ما هو علىٰ الإنسان، فهو عليه أن يُعمِل ويُفعِّل اختياره في اتِّباع الحجج، والله تعالىٰ لا يُجبِر أحداً ولا يسلب اختياره في هذا المجال.

وربَّما هذا واحد من معاني: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾، بمعنىٰ أنَّ الله تعالىٰ لا يُجبِر أحداً علىٰ التزام الدين تكويناً، وإنَّما عليه بيان الحقِّ من الباطل: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ

---

(١) الكافي للكليني ١: ٣٤١/ باب في الغيبة/ ح ٢١.

فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقىٰ لاَ انْفِصامَ لَها وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقال تعالىٰ مبيِّناً أنَّه جلَّ وعلا قد أكمل البيان، وترك الاختيار للإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴿٣﴾﴾ (الإنسان: ٣).

فالله تعالىٰ قد هدىٰ الإنسان نحو السبيل بأن بيَّن له الطريق، ولكن ترك اختيار سلوك أحد الطريقين للإنسان نفسه.

وعلىٰ نفس المنوال جاء قوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ (البلد: ١٠)، أي: بيَّنا له طريق الخير والشرِّ[1].

ويُبيِّن القرآن الكريم أنَّ السبب الرئيسي وراء عدم اتِّباع الناس للأنبياء وللهدىٰ، هو اتِّباعهم لأهوائهم الضالَّة، يقول تعالىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القصص: ٥٠).

نقاط مهمَّة:

وفيما يتعلَّق بالدعوة هنا عدَّة نقاط:

النقطة الأُولىٰ: الخطوط التربوية العامَّة لرسالات الأنبياء:

جميع دعوات الأنبياء كانت متَّحدة في كونها تأخذ أوامرها من الله تعالىٰ وتدعو إلىٰ دينه لا غير، قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ وَعِيسىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (الشورىٰ: ١٣).

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٤٢٢.

وتتلخَّص دعواتهم بعد هذا بثلاث قضايا:

القضيَّة الأُولىٰ: قانون السنخية والتماثل بين النتيجة والسبب:

إنَّ هذا العالم هو عالم الأسباب والمسبَّبات، ولا حقيقة واقعية للصدفة واللاهدفية والعبث فيه، وإنَّ هذا القانون يبتني علىٰ أساس أنَّ هناك تسانخاً بين السبب والنتيجة، فالنتيجة دائماً تأتي من لون السبب ومن قماشته.

جرِّب أن تعصر بصلاً، هل يمكن أن تحصل منه علىٰ عصير الليمون!؟

وجرِّب أن تزرع شوكةً، هل يمكن أن تحصل منها علىٰ شجرة التفّاح!؟

فلا يتصوَّر أحد أنَّه سيحصد غير ما زرع، يقول رسول الله ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذرٍّ، إنَّكم في ممرِّ الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن يزرع خيراً يوشك أن يحصد رغبة، ومن يزرع شرّاً يوشك أن يحصد ندامة، ولكلِّ زارع ما زرع»[1].

ومن أمثلة هذا القانون قرآنياً، هو ما حكاه الله تعالىٰ عن الذين لا يؤدّون الحقوق الشرعية للأموال التي تحت أيديهم، فيقول تعالىٰ: ﴿...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ **فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴿٣٥﴾﴾ (التوبة: ٣٤ و٣٥).

وهذه القضيَّة قطعت الطريق علىٰ من يُسوِّل لنفسه بالتجاوز علىٰ

---

(١) أمالي الطوسي: ٥٢٧/ ح (١١٦٢/ ١).

الأوامر الإلهيَّة بحجَّة أنَّ الله تعالىٰ غفور رحيم، وهو يُحِبُّ عباده، فلا يُعقَل أنَّه سيعاقب عباده لأجل معصية لا تضرُّه ولا تُنقِص من ملكه شيئاً.

إنَّ هذه الحجَّة هي من تسويلات الشيطان ليُزيِّن لأتباعه المعصية، والحال أنَّ أهمّ قضيَّة جاء الأنبياء لبيانها هي أنَّ الجزاء من قماشة السبب، ومن نفس صنفه ونوعه ولونه، بل إنَّ ما يراه الإنسان من جزاء عمله ليس هو إلَّا نفس عمله لا شيئاً آخر، وهو ما عبَّرت عنه الآية الكريمة: ﴿هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يُروىٰ أنَّه دخل ابن عبّاس علىٰ عمرو بن العاص في مرضه، فسلَّم عليه، فقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلاً، وأفسدت من ديني كثيراً، فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت، لفزت. ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان ينجيني أن أهرب هربت، فقد صرت كالمنخنق بين السماء والأرض، لا أرقىٰ بيدين، ولا أهبط برجلين، فعظني بعظة أنتفع بها يا ابن أخي. فقال له ابن عبّاس: هيهاتَ يا أبا عبد الله، صار ابن أخيك أخاك، ولا نشاء أن أبكي إلَّا بكيت، كيف يؤمن برحيل من هو مقيم؟ فقال عمرو علىٰ حينها: من حين ابن بضع وثمانين سنة تُقنِطني من رحمة ربّي. اللّهمّ إنَّ ابن عبّاس يُقنِطني من رحمتك، فخذ مني حتَّىٰ ترضىٰ. فقال ابن عبّاس: هيهاتَ أبا عبد الله! أخذت جديداً وتُعطي خَلِقاً، قال عمرو: ما لي ولك يا بن عبّاس! ما أُرسل كلمة إلَّا أرسلت نقيضها[1].

صحيح أنَّ الله تعالىٰ غفور رحيم، ولكن لا يمكن لأحد أن

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البرِّ ٣: ١١٨٩.

يخدعه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالىٰ يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾﴾ (النساء: ١٤٢).

فمن يعمل الذنوب ويتجرَّأ علىٰ الله تعالىٰ مع سبق الإصرار والترصُّد، ثمّ يُرِدْ منه تعالىٰ أن يغفر له، هذا شخص يخدع نفسه، تماماً كمن يستغفر وهو مقيم علىٰ الذنب، يقول الإمام الرضا عليه السلام: «مثل الاستغفار مثل ورق علىٰ شجرة تحرَّك فيتناثر، والمستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربِّه»[١].

ويقول عليه السلام: «من استغفر بلسانه ولم يندم بقلبه فقد استهزأ بنفسه»[٢].

القضيَّة الثانية: أنَّ كلَّ عمل - سواء أكان خيراً أو شرّاً - يعود إلىٰ صاحبه لا إلىٰ غيره:

إنَّ رجوع العمل إلىٰ صاحبه سُنَّة إلهيَّة لا يمكن أن تتخلَّف، ففي الدنيا ربَّما يُسرَق منك حقُّك، ربَّما يُسرَق فكرك أو مالك أو غيرهما، ولكن يوم القيامة كلُّ شيء يرجع إلىٰ صاحبه، ربَّما يرمي شخص بجرمه علىٰ غيره، ولكنَّه في يوم القيامة يرجع إليه، وهذا ما أكَّدته الآيات الكريمة.

- ﴿ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ (الأنفال: ٥١).

- ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ (الانفطار: ٥).

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٥٠٤/ باب الاستغفار/ ح ٣.

(٢) كنز الفوائد للكراجكي: ١٥٢ و١٥٣.

- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ (الزلزلة: ٧ و٨).

- ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها ...﴾ (الإسراء: ٧).

- ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ۝١٢﴾ (العنكبوت: ١٢).

- ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝١٠٤﴾ (الأنعام: ١٠٤).

وغيرها من الآيات الواضحة في هذا المعنىٰ.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّك إن أحسنت فلنفسك تكرم وإليها تحسن، إنَّك إن أسأت فلنفسك تمتهن وإيّاها تغبن»[1].

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «جاء رجل إلىٰ أبي ذرٍّ، فقال: يا أبا ذرٍّ، ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنَّكم عَمَرتم الدنيا وأخربتم الآخرة، فتكرهون أن تُنقَلوا من عمران إلىٰ خراب، فقال له: فكيف ترىٰ قدومنا علىٰ الله؟ فقال: أمَّا المحسن منكم فكالغائب يقدم علىٰ أهله، وأمَّا المسيء منكم فكالآبق يرد علىٰ مولاه، قال: فكيف ترىٰ حالنا عند الله؟ قال: اعرضوا أعمالكم علىٰ الكتاب، إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣ و١٤]»، قال: «فقال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾، [الأعراف: ٥٦]».

---

(١) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ١٧٢.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «وكتب رجل إلىٰ أبي ذرٍّ رضي الله عنه: يا أبا ذرٍّ، أطرفني بشيء من العلم، فكتب إليه: العلم كثير، ولكن إن قدرت أن لا تسيء إلىٰ من تُحِبُّه فافعل»، قال: «فقال له الرجل: وهل رأيت أحداً يُسيء إلىٰ من يُحِبُّه؟ فقال له: نعم نفسك أحبّ الأنفس إليك، فإذا أنت عصيت الله فقد أسأت إليها»[1].

قال وكيع: ما أحسنت قطُّ إلىٰ أحد، ولا أسأت إليه، قيل: كيف؟ قال: لأنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧][2].

تعجيل الجزاء في الدنيا:

وكما سنَّ الله تعالىٰ رجوع الأعمال إلىٰ صاحبها في الآخرة، سنَّ أيضاً رجوع بعض الأعمال إلىٰ صاحبها في الدنيا قبل الآخرة، وتلك الأعمال المعجَّل جزاؤها بعضها صالحة وبعضها طالحة.

أمَّا الأعمال الصالحة، فهي تطبيق لكبرىٰ ذكرها القرآن الكريم فيما يتعلَّق بالنبيِّ إبراهيم عليه السلام، حيث يذكر القرآن الكريم بأنَّ الله تعالىٰ أعطاه أجراً في الدنيا بالإضافة إلىٰ الاحتفاظ بأجره الأُخروي، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ (البقرة: ١٣٠).

وقال تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ (النحل: ١٢٢).

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٤٥٨/ باب محاسبة العمل/ ح ٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٢٣٦.

وقال تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (العنكبوت: ٢٧).

ومن تلك الأعمال الصالحة هي صلة الرحم، فإنَّها تنسئ الأجل وتزيد الرزق، وهو ما أكَّدته الروايات الكثيرة[١].

ومنها: الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب، فإنَّ من دعا لمؤمن بظهر الغيب ناداه الله تعالىٰ: (ولك أضعافها)[٢]، فهو عمل صالح يُعجِّل الله تعالىٰ ثوابه، وهو تعالىٰ أكرم وأجود، فجزاء الآخرة محفوظ وعلىٰ أتمّ وجه.

وأمَّا الأعمال الطالحة، فمنها: عقوق الوالدين، والشواهد علىٰ ذلك من الواقع أكثر من أن تُحصىٰ.

ومنها: البغي علىٰ الناس وظلمهم، وسيرة الظالمين شاهدة علىٰ ذلك، فهذا القاهر بالله العبّاسي، كان قد فعل ما فعل، وسلب ما سلب،

---

(١) عن أبي حمزة، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «صلة الأرحام تُزكّي الأعمال، وتُنمّي الأموال، وتدفع البلوىٰ، وتُيسِّر الحساب، وتُنسئ في الأجل». (الكافي للكليني ٢: ١٥٠/ باب صلة الرحم/ ح ٤).

وعنه أيضاً، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «صلة الأرحام تُحسِّن الخُلُق، وتسمح الكفَّ، وتُطيِّب النفس، وتزيد في الرزق، وتُنسئ في الأجل». (الكافي للكليني ٢: ١٥١/ باب صلة الرحم/ ح ٦).

(٢) عن عليٍّ، عن أبيه، قال: رأيت عبد الله بن جندب في الموقف، فلم أرَ موقفاً كان أحسن من موقفه، ما زال مادّاً يديه إلىٰ السماء ودموعه تسيل علىٰ خدَّيه حتَّىٰ تبلغ الأرض، فلمَّا صدر الناس قلت له: يا أبا محمّد، ما رأيت موقفاً قطُّ أحسن من موقفك، قال: والله ما دعوت إلَّا لإخواني، وذلك أنَّ أبا الحسن موسىٰ عليه السلام أخبرني أنَّ «من دعا لأخيه بظهر الغيب نودي من العرش: ولك مائة ألف ضعف»، فكرهت أن أدع مائة ألف مضمونة لواحدة لا أدري تُستجاب أم لا. (الكافي للكليني ٢: ٥٠٨/ باب الدعاء للإخوان بظهر الغيب/ ح ٦).

وبنىٰ ما بنىٰ، ولكن أمره آل إلىٰ أن يُخلَع، وتُسمَل عيناه، ويُشرَّد، حتَّىٰ يصل به الأمر إلىٰ أن يتكفَّف الناس[1]!

---

(١) كان المقتدر خُلِعَ في سنة سبع عشرة وثلاث مائة، فبايعوا القاهر هذا، وحكم ثمّ تعصَّب أصحاب المقتدر له، وأُعيد بعد قتل جماعة، منهم: أبو الهيجاء بن حمدان، وعفا المقتدر عن أخيه، وحضر بين يديه باكياً. فقال: يا أخي، أنت لا ذنب لك، ثمّ بايعوه بعد المقتدر، فصادر حاشية أخيه وعذَّبهم، وضرب أُمَّ المقتدر بيده، وهي عليلة، ثمّ ماتت معلَّقة بحبل، وعذَّب أُمَّ موسىٰ القهرمانة، وبالغ في الإساءة، فنفرت منه القلوب، وطلب ابن مقلة من الأهواز واستوزره، وكان قد نفي...

ثمّ قوي القاهر ونهب دور مخالفيه، وطيَّن علىٰ ولد أخيه المكتفي بين حيطين، وضرب ابن بليق وسجنه، ثمّ أمر بذبحه، وبذبح أبيه، وذبح بعدهما مؤنساً الكبير ويمناً وابن زيرك، وبذل للجند العطاء، وعظم شأنه، ونادىٰ بتحريم الغناء والخمر، وكسر الملاهي، وهو مع ذلك يشرب المطبوخ والسلاف، ويسكر ويسمع القينات، واستوزر غير واحد، وقتل أبا السرايا بن حمدان، وإسحاق النوبختي ألقاهما في بئر وطُمَّت لكونهما زايداه في جارية قبل الخلافة...

قال الصولي: كان أهوج، سفّاكاً للدماء، كثير التلوّن، قبيح السيرة، مدمن الخمر، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل، وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتَّىٰ يقتل إنساناً...

قال المسعودي: أخذ من مؤنس وأصحابه أموالاً كثيرة، فلما خُلِعَ طولب بها، فأنكر، فعُذِّب بأنواع العذاب، فما أقرَّ بشيء، فأخذه الراضي بالله فقرَّبه وأدناه، وقال: ترىٰ مطالبة الجند لنا، والذي عندك ليس بنافعك، فاعترف به، قال: أمَا إذ فعلت هذا، فالمال دفنته في البستان، وكان قد أنشأ بستاناً فيه أصناف الثمر، والقصر الذي زخرفه، فقال: وفي أيِّ مكان هو؟ قال: أنا مكفوف ولا أهتدي إلىٰ البقعة، فاحفر البستان تجده، فحفروا البستان وأساس القصر، وقلعوا الشجر فلم يوجد شيء، فقال: وأين المال؟ قال: وهل عندي مال!؟ إنَّما كان حسرتي في جلوسك في البستان وتنعُّمك، ففجعتك به، فأبعده وحبسه، فأقام إلىٰ سنة ثلاث وثلاثين، ثمّ أُخرج إلىٰ دار ابن طاهر، فكان تارةً يُحبَس، وتارةً يُهمَل، فوقف يوماً بالجامع بين الصفوف، وعليه جبَّة بيضاء، وقال: تصدَّقوا عليَّ، فأنا من قد عرفتم...

قال محمود الأصبهاني: كان سبب خلعهم للقاهر سوء سيرته، وسفكه الدماء، فامتنع عليهم من الخلع، فسملوه حتَّىٰ سالت عيناه... (سير أعلام النبلاء للذهبي ١٥: ٩٨ - ١٠١).

ومنها: كفر الإحسان، فقد جعل الله تعالىٰ جزاء الإحسان إحساناً مثله أو أفضل، فمن يُسلِّم عليك يكن محسناً إليك، فيتوجَّب عليك ردُّ هذا الإحسان، يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللهَ كانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴿٨٦﴾﴾ (النساء: ٨٦).

هذا، ولكن الذي يكفر الإحسان فإنَّ الله تعالىٰ يُعجِّل له العقوبة، ويدَّخر له خزياً في الآخرة.

عن عليِّ بن جعفر بن محمّد، قال: جاءني محمّد بن إسماعيل بن جعفر يسألني أن أسأل أبا الحسن موسىٰ عليه السلام أن يأذن له في الخروج إلىٰ العراق، وأن يرضىٰ عنه، ويوصيه بوصية. قال: فتجنَّب حتَّىٰ دخل المتوضَّأ، وخرج - وهو وقت كان يتهيَّأ لي أن أخلو به وأُكلِّمه -. قال: فلمَّا خرج قلت له: إنَّ ابن أخيك محمّد بن إسماعيل يسألك أن تأذن له في الخروج إلىٰ العراق، وأن توصيه. فأذن له عليه السلام. فلمَّا رجع إلىٰ مجلسه قام محمّد بن إسماعيل وقال: يا عمُّ، أُحِبُّ أن توصيني. فقال: «أُوصيك أن تتَّقي الله في دمي»، فقال: لعن الله من يسعىٰ في دمك، ثمّ قال: يا عمُّ، أوصني. فقال: «أُوصيك أن تتَّقي الله في دمي»، قال: ثمّ ناوله أبو الحسن عليه السلام صرَّة فيها مائة وخمسون ديناراً، فقبضها محمّد، ثمّ ناوله أُخرىٰ فيها مائة وخمسون ديناراً، فقبضها، ثمّ أعطاه صرَّة أُخرىٰ فيها مائة وخمسون ديناراً، فقبضها، ثمّ أمر له بألف وخمسمائة درهم كانت عنده، فقلت له في ذلك واستكثرته، فقال: «هذا ليكون أوكد لحجَّتي إذا قطعني ووصلته». قال: فخرج إلىٰ العراق، فلمَّا ورد حضرة هارون أتىٰ باب هارون بثياب طريقه قبل أن ينزل، واستأذن علىٰ هارون، وقال للحاجب: قل لأمير المؤمنين: إنَّ محمّد بن إسماعيل بن جعفر بن محمّد

بالباب، فقال الحاجب: انزل أوّلاً وغيِّر ثياب طريقك وعد لأُدخِلك إليه بغير إذن، فقد نام أمير المؤمنين في هذا الوقت. فقال: أُعلِم أمير المؤمنين أنّي حضرت ولم تأذن لي، فدخل الحاجب وأعلم هارون قول محمّد بن إسماعيل، فأمر بدخوله، فدخل، قال: يا أمير المؤمنين، خليفتان في الأرض: موسىٰ بن جعفر بالمدينة يُجبىٰ له الخراج، وأنت بالعراق يُجبىٰ لك الخراج. فقال: والله!؟ فقال: والله، قال: فأمر له بمائة ألف درهم، فلمّا قبضها وحمل إلىٰ منزله أخذته الذبحة[1] في جوف ليلته، فمات وحوّل من الغد المال الذي حُمِلَ إليه[2].

القضيَّة الثالثة: ما زال الله تعالىٰ قادراً علىٰ التدخُّل في أُمور مملكته، وهو يتدخَّل دوماً بالعدل، فهو ليس محايداً في هذا المجال:

لا كما يقول اليهود ومن علىٰ شاكلتهم من المفوِّضة من أنَّ الله تعالىٰ بعد أن خلق العالم وفرغ منه رفع يده عنه، فهو لا يتدخَّل في مجرياته أبداً، بل بعضهم ذهب إلىٰ عدم قدرته جلَّ وعلا علىٰ التدخُّل أصلاً، تماماً كما حكىٰ القرآن الكريم ذلك عنهم، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَقالَتِ

---

(١) في البحار: (الريحة).

(٢) مسائل عليِّ بن جعفر ١٩ - ٢١؛ بحار الأنوار ٤٨: ٢٣٩ و٢٤٠/ ح ٤٨. وقال: (روىٰ في الكافي [ج ٨/ ص ٤٨٥ و٤٨٦/ باب مولد أبي الحسن موسىٰ بن جعفر عليه السلام/ ح ٨] قريباً من ذلك عن عليِّ بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسىٰ، عن موسىٰ بن القاسم، عن عليِّ بن جعفر. وفيه: فرماه الله بالذبحة. وهي كهمزة وعنبة وكسرة وصبرة وجع في الحلق أو دم يخنق فيُقتَل، ثمّ إنَّ في بعض الروايات: محمّد بن إسماعيل، وفي بعضها: عليّ بن إسماعيل...).

وقال الشيخ محمّد تقي التستري في قاموس الرجال (ج ٩/ ص ١١٧) باحتمال اتِّحادهما، وأنَّهما شخص واحد.

الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ﴾ (المائدة: ٦٤).

وقد تحدَّثت الكثير من الآيات الشريفة عن أنَّ الله تعالىٰ يتدخَّل بالحساب بالعدل إن في عاجل الدنيا أو آجلها.

يقول تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً ﴿١٣﴾﴾ (الإسراء: ١٣).

ويقول تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهٰذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴿٤٩﴾﴾ (الكهف: ٤٩).

وفي الروايات أنَّ علىٰ الصراط عقبة تُسمّىٰ المرصاد، لا يجوزها عبد بمظلمة[١]، ويكون الحاكم المباشر فيها هو الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ ﴿١٤﴾﴾ (الفجر: ١٤).

نعم، اقتضت الحكمة الإلهيَّة إمهال المذنبين لبعض الوقت.

ولكن أصلاً، **لماذا يُمهِل الله الظالمين؟** أوَليس الأفضل أن ينتقم مباشرةً من الظالم!؟

هناك عدَّة أسباب تُبرِّر هذا الإمهال، وهي:

١ - لأنَّه تعالىٰ لا يخاف الفوت، وإنَّما يعجل من يخاف الفوت، فإنَّ الذي يستعجل بالعقوبة أو بالأخذ هو من يخاف أن تفوته الفرصة

---

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، قال: «قنطرة علىٰ الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة». (الكافي للكليني ٢: ٣٣١/ باب الظلم/ ح ٢).

لو لم يستعجل، أمَّا الله عَزَّ وَجَلَّ فإنَّه محيط بكل شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يهرب منه شيء، فحتَّىٰ لو لم يعاجل المذنب بالعقوبة فإنَّه لن يهرب منه. وهل يستطيع أحد أن يهرب من الموت!؟ والموت خلقٌ من خلق الله تعالىٰ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ (الملك: ٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ وَطَرِيقٍ إِلَىٰ الآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْه هَارِبُه، وَلَا يَفُوتُه طَالِبُه، وَلَا بُدَّ أَنَّه مُدْرِكُه...»[1].

٢ - لأنَّ رحمته تعالىٰ سبقت غضبه، وهذا الأمر شمل حتَّىٰ المجرمين!

قيل للإمام السجّاد عليه السلام يوماً: قال الحسن البصري: ليس العجب ممَّن هلك كيف هلك، وإنَّما العجب ممَّن نجا كيف نجا، فقال عليه السلام: «أنا أقول: ليس العجب ممَّن نجا كيف نجا، إنَّما العجب ممَّن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله»[2].

وروي أنَّه قَدِمَ علىٰ النبيِّ صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيّاً من السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»، قلنا: لا وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[3].

---

(١) نهج البلاغة: ٤٠٠/ ح ٣١.

(٢) أمالي المرتضىٰ ١: ١١٣.

(٣) صحيح البخاري ٧: ٧٥.

كلُّ ذلك لأنَّ رحمة الله تعالىٰ سبقت غضبه[1]، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

٣ - ويمكن أن يكون إمهال الله تعالىٰ لبعض المجرمين لعلمه بأنَّهم سيتوبون ويُصلِحون ما أفسدوا، كما حصل للفضيل بن عياض، قاطع الطريق المعروف، حيث تاب وأصلح وصار من عبّاد وزهّاد أهل زمانه.

حيث روي أنَّ سبب توبته أنَّه عشق جارية، فواعدته ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فرجع القهقرىٰ وهو يقول: بلىٰ والله قد آن. فآواه الليل إلىٰ خربة، وفيها جماعه من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إنَّ فضيلاً يقطع الطريق، فقال الفضيل: أواه! أراني بالليل أسعىٰ في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللّهمّ إنّي قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام»[2].

---

(١) قال العلَّامة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار (ج ٧٠/ ص ٣٤٠) في معنىٰ: «إنَّ رحمتي سبقت غضبي»: (هذا يحتمل وجوها: **الأوَّل**: أن يكون المراد بالسبق الغلبة، أي رحمتي غالبة علىٰ غضبي وزائدة عليه، فإنَّه إذا اشتدَّ سبب الغضب وكان هناك سبب ضعيف للرحمة يتعلَّق الرحمة بفضله تعالىٰ. **الثاني**: أن يكون المراد به السبق المعنوي أيضاً علىٰ وجه آخر، فإنَّ أسباب الرحمة من إقامة دلائل الربوبية في الآفاق والأنفس وبعثة الأنبياء والأوصياء وإنزال الكتب وخلق الملائكة وبعثهم لهداية الخلق وإرشادهم ودفع وساوس الشياطين وغير ذلك من أسباب التوفيق أكثر من أسباب الضلالة من القوىٰ الشهوانية والغضبية وخلق الشياطين وعدم دفع أئمَّة الضلالة وأشباه ذلك من أسباب الخذلان. **الثالث**: أن يُراد به السبق الزماني، فإنَّ تقدير وجود الإنسان وإيجاده وإعطاء الجوارح والسمع والبصر وسائر القوىٰ ونصب الدلائل والحجج وغير ذلك، كلُّها قبل التكليف، والتكليف مقدّم علىٰ الغضب والعقاب. ويمكن إرادة الجميع، بل هو الأظهر).

(٢) تفسير القرطبي ١٧: ٢٥١.

٤ - **لأنَّه تعالىٰ يُمهِل المجرمين في بعض الأحيان لا لكرامة لهم عليه، بل من أجل استدراجهم بالنعم**، فلعلَّ المجرم عنده بعض الحسنات فيريد تعالىٰ أن يجازيه بها في الدنيا، فيستدرجه إلىٰ أن تصل لحظة القصم، قال تعالىٰ: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ (آل عمران: ١٧٨).

٥ - **وقد يكون إمهالهم لا لكرامتهم هم**، بل لأنَّ الله تعالىٰ يعلم أنَّه سيخرج من ذرّيتهم مؤمنون مخلصون، لذلك يُمهِلهم حتَّىٰ تتاح الفرصة للمؤمنين بالوصول إلىٰ عالم الدنيا.

ومن هنا ورد أنَّ من بعض علل غيبة الإمام المهدي عليه السلام هو أن لا تضيع ودائع الله عزَّ وجلَّ، أي المؤمنين الذين يظهرون من أصلاب الكافرين، فعن أبي عبد الله عليه السلام في حديث ابن أبي عمير، عمَّن ذكره، قال: قلت له - يعني أبا عبد الله عليه السلام -: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم يقاتل مخالفيه في الأوَّل؟ قال: «لآية في كتاب الله تعالىٰ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٥]»، قال: قلت: وما يعني بتزايلهم؟ قال: «ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين، وكذلك القائم عليه السلام لم يظهر أبداً حتَّىٰ تخرج ودائع الله عزَّ وجلَّ، فإذا خرجت ظهر علىٰ من ظهر من أعداء الله عزَّ وجلَّ فقتلهم»[1].

النقطة الثانية: الركائز العامَّة لأُسلوب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ:

من خلال تتبُّع حركات الأنبياء وطريقة تعاملهم مع مجتمعاتهم وأساليبهم في هداية الناس، يمكن أن نجد عدَّة خطوط رئيسية مثَّلت منهجاً متكاملاً في الدعوة الإلهيَّة.

---

(١) كمال الدين للصدوق: ٦٤١.

إنَّ اطِّلاعنا علىٰ هذه الخطوط العامَّة يُحدِّد لنا طريقة دعوتنا إلىٰ دين الله تعالىٰ، علىٰ ما سنعرفه في النقطة الثالثة.

إنَّ خلاصة تلك الخطوط العامَّة هي أنَّ الدعوة جاءت لهداية الناس، والهداية تتمركز علىٰ ركائز عديدة، هي:

الركيزة الأُولىٰ: مخاطبة الناس بلغتهم، فإنَّ الهدف من الدعوة هي الهداية، وهذا يستلزم ضرورة أن يفهم المخاطَب لغة الدعوة، وهو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بالبيان، قال تعالىٰ: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)[١].

الركيزة الثانية: مخاطبة الناس بما يفهمونه من معاني وكلمات، وهو ما عبَّرت عنه الروايات بالمخاطبة علىٰ قدر العقول.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «ما كلَّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله العبادَ بكنه عقله قطُّ»، وقال: قال رسول الله: «إنَّا معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نُكلِّم الناس علىٰ قدر عقولهم»[٢].

ويقول الإمام السجّاد عليه السلام: «وأمَّا حقُّ المستنصح فإنَّ حقَّه أن... تُكلِّمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإنَّ لكلِّ عقلٍ طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه، وليكن مذهبك الرحمة ولا قوَّة إلَّا بالله»[٣].

وعن مدرك بن الهزهاز، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا مدرك، رحم الله عبداً اجترَّ مودَّة الناس إلىٰ نفسه، فحدَّثهم بما يعرفون، وترك ما يُنكِرون»[٤].

---

(١) مع الالتفات إلىٰ ما سنذكره في النقطة الثالثة إن شاء الله تعالىٰ.

(٢) الكافي للكليني ١: ٢٣/ كتاب العقل والجهل/ ح ١٥.

(٣) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني: ٢٦٩.

(٤) الخصال للصدوق: ٢٥/ ح ٨٩.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أتُحِبُّون أن يُكذَّب الله ورسوله؟ حدِّثوا الناس بما يعرفون وأمسكوا عمَّا يُنكِرون»[١].

الركيزة الثالثة: مواجهة الناس بأشهر علم عندهم وبأهمّ ما يحترمونه، وهذا قانون من قوانين المعجزات، حيث كانت معجزة النبيِّ - أيّ نبيٍّ - تواجه ما اشتهر عند قومه وما يحترمونه ويُقدِّسونه، وما يُمثِّل عصب الحياة لديهم، فالنبيُّ موسىٰ عليه السلام واجه قومه بإبطال سحر السحرة، وبتدمير جيش فرعون، وهم كانوا يُقدِّسون السحر والقوَّة. والنبيُّ عيسىٰ عليه السلام واجه قومه بالإخبار عن الغيبيات، وبطبٍّ لا مثيل له كان يتمثَّل بإحياء من مرَّت علىٰ موته عشرات السنين، وبشفاء أمراض مستعصية بلمسة يد، وهم الذين كانوا يُقدِّسون المخبرين عن الغيب والأطبّاء. والنبيُّ الأكرم صلى الله عليه وآله واجه قومه بلغة البيان التي أعجزتهم عن مجاراتها، بحيث ورد أنَّه عندما نزلت بعض سور القرآن الكريم فإنَّ قريشاً استحيوا من القصائد المعلَّقات التي كانت علىٰ جدار الكعبة، والتي كانوا يعتبرونها القمَّة في البلاغة والفصاحة وأداء المعنىٰ وجزالة الأُسلوب، فأنزلوها لما رأوا من بلاغة تلك السور، وخوفاً من الفضيحة[٢].

وهكذا واجههم بقوَّة السيف الرحيمة، فرغم أنَّ النبيَّ الأكرم صلى الله عليه وآله خاض ما يقرب من (٨٢) معركة وغزوة، إلَّا أنَّه لم يقتل إلَّا أقلّ من (٧٠٠)، ولم يُقتَل من أتباعه إلَّا أقلّ من (٧٠٠) فقط، ومع ذلك فقد

---

(١) الغيبة للنعماني: ٤١/ باب ١/ ح ١.

(٢) نُقِلَ هذا المعنىٰ عن السيِّد عبد الله شبَّر في كتابه حقُّ اليقين (ج ١/ ص ١١٣)؛ وذكره السيِّد حسن الشيرازي في كتابه الإمام المهدي نظرة وجيزة شاملة، وهو مقدّمة كتابه كلمة الإمام المهدي عليه السلام (ص ٣٢).

انتصر انتصاراً نلمس آثاره إلىٰ يوم الناس هذا[١]. وهذا ما صرَّحت به بعض الروايات الشريفة، حيث روي عن أبي يعقوب البغدادي، قال: قال ابن السكّيت لأبي الحسن عليه السلام: لماذا بعث الله موسىٰ بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسىٰ بآلة الطبِّ؟ وبعث محمّداً صلّىٰ الله عليه وآله وعلىٰ جميع الأنبياء بالكلام والخُطَب؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنَّ الله لـمَّا بعث موسىٰ عليه السلام كان الغالب علىٰ أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجَّة عليهم. وإنَّ الله بعث عيسىٰ عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات[٢] واحتاج الناس إلىٰ الطبِّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيىٰ لهم الموتىٰ، وأبرء الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجَّة عليهم. وإنَّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب علىٰ أهل عصره الخُطَب والكلام - وأظنُّه قال: الشعر -، فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجَّة عليهم».

قال: فقال ابن السكّيت: تالله ما رأيت مثلك قطُّ، فما الحجَّة علىٰ الخلق اليوم؟

قال: فقال عليه السلام: «العقل، يعرف به الصادق علىٰ الله فيُصدِّقه والكاذب علىٰ الله فيُكذِّبه.

قال: فقال ابن السكّيت: هذا والله هو الجواب[٣].

---

(١) ذكره السيِّد حسن الشيرازي في كتابه الإمام المهدي نظرة وجيزة شاملة: ٣٢.

(٢) الزمانات: الآفات الواردة علىٰ بعض الأعضاء فيمنعها عن الحركة كالفالج واللقوة، ويُطلَق المزمن علىٰ مرض طال زمانه. (من المصدر).

(٣) الكافي للكليني ١: ٢٤ و٢٥/ كتاب العقل والجهل/ ح ٢٠.

إنَّ هذه الركائز الثلاثة تُمثِّل عمق الدعوة وجوهرها، وهي تُمثِّل أخصر الطرق للوصول إلىٰ (البيان) الذي هو هدف الدعوة، والمأمول أن يترتَّب علىٰ البيان امتثال الناس للدعوة. وهذا الجزء من الدعوة (الامتثال) ليس مهمَّة الأنبياء، إنَّما هي مهمَّة الناس أنفسهم، ومهمَّة عقولهم، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

النقطة الثالثة: الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ مشروع الصالحين:

صحيح أنَّ مهمَّة الدعوة أُلقيت علىٰ عاتق الأنبياء والمرسلين بأمر الله تعالىٰ، وهم عليهم السلام أدّوا ما عليهم علىٰ أحسن وجه، ولكن ليكن معلوماً أنَّ هذه المهمَّة لا تنتهي في حدود ما عمله الأنبياء، وإنَّما هي مشروع الصالحين علىٰ هذه الأرض، فدين الله تعالىٰ لا بدَّ أن يستمرَّ، ولا بدَّ له من داعٍ يدعو إليه، والداعي إليه ليس هو فقط الأنبياء، وإنَّما هم عليهم السلام أسَّسوا المراحل الأُولىٰ للدعوة، وبقي علىٰ الصالحين أن يُكمِلوا المسيرة.

وحتَّىٰ يستمرَّ الصالحون بمهمَّة الأنبياء لا بدَّ أن يلتفتوا إلىٰ النقاط التالية:

١ - اتِّباع الأُسلوب ذاته الذي استعمله الأنبياء في الدعوة، مع مراعاة مقتضيات المرحلة، فاللغة لا بدَّ أن لا تقف عند اللغة العربية، وإنَّما يجب أن تتعدّاها إلىٰ بقيَّة اللغات، أي لا بدَّ من تفعيل عنصر الترجمة في هداية من لا يعرف اللغة العربية، أي إنَّ علينا أن نتواصل في طريق الهداية مع ما فعله الأنبياء، خصوصاً وأنَّ من أهمّ صفات الرسالة الإسلاميَّة هي الشمولية لكلِّ الناس، قال تعالىٰ: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ: ٢٨).

وهكذا يجب أن يكون الخطاب متوافقاً مع ما يُدركه الناس، وأن يكون مبتنياً علىٰ الركائز العلمية المتوافقة مع تقدُّم العلوم، فاستعمال الأجهزة والطرق الحديثة وهكذا الأساليب الدعائية المتطوّرة في الدعوة، هو الطريق الصحيح لهداية الناس وبيان الإسلام لهم، ومن هذا القبيل ما يقوم به العديد من العلماء الذين كشفوا عن الإعجاز العلمي الموجود في القرآن، والموضوع أطول من أن يُبحَث في هذه العجالة.

إنَّ هذا يدعونا إلىٰ التماسك وإقامة الهيئات والمؤسَّسات المتطوّرة المبتنية علىٰ الأُسس العلمية، والتي يجب أن تضمَّ كفاءات علمية وسواعد عملية تسعىٰ للدعوة إلىٰ الدين الحنيف.

٢ - وممَّا يدفع إلىٰ ذلك ويدعو إليه، بل ويوجبه، هو ما نراه من حملات دعائية وإعلامية وبشتّىٰ الوسائل للتقليل من تأثير الإسلام في نفوس الناس، ومن عمل دؤوب لنشر برامج الشيطان، فقادة الغرب اليوم يدعون إلىٰ تدمير الإسلام وإبادة أهله، وعلىٰ هذا شواهد كثيرة[١]:

أ - عندما دخلت إسرائيل القدس عام (١٩٦٧م)، تجمهر الجنود حول حائط المبكىٰ، وأخذوا يهتفون مع موشي دايان: (هذا يوم بيوم خيبر، يا لثارات خيبر، حطّوا المشمش عالتفاح، دين محمّد ولّىٰ وراح، محمّد مات، خلَّف بنات).

ب - ويقول غلادستون - رئيس وزراء بريطانيا سابقاً -: (ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أُوروبا السيطرة علىٰ الشرق).

---

(١) انظر كُتيِّب: قادة الغرب يقولون: دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله لجلال العالم تحت عنوان: خططهم لتدمير الإسلام (ص ٤٧) وما بعدها.

ج - ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرىٰ مرور مائة سنة علىٰ استعمار الجزائر: (إنَّنا لن ننتصر علىٰ الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلَّمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم).

وعقيب هذه التصريحات حدثت حادثة لطيفة:

فمن أجل القضاء علىٰ القرآن في نفوس شباب الجزائر قامت فرنسا بتجربة عملية، وقامت بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات، أدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية وألبستهن الثياب الفرنسية، فأصبحن كالفرنسيات تماماً، وبعد أحد عشر عاماً من الجهود، هيَّأت لهنَّ حفلة تخرُّج رائعة، دُعي إليها الوزراء والمفكِّرون والصحفيون...، ولـمَّا بدأت الحفلة فوجئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهنَّ الإسلامي الجزائري...، فثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عاماً؟ فأجاب لاكسوت - وزير المستعمرات الفرنسي -: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوىٰ من فرنسا!؟

د - يقول بن غوريون - رئيس وزراء إسرائيل سابقاً -: (إنَّ أخشىٰ ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمّد جديد).

هـ - يقول غاردنر: (إنَّ الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس، إنَّما كانت لتدمير الإسلام).

و - يقول المستشرق الفرنسي كيمون في كتابه (باثولوجيا الإسلام): (إنَّ الديانة المحمّدية جذام تفشّىٰ بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع وشلل عامٌّ، وجنون ذهولي...، وما قبر

محمّد إلَّا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين، فيأتون بمظاهر الصرع والذهول العقلي إلىٰ ما لا نهاية، ويعتادون علىٰ عادات تنقلب إلىٰ طباع أصيلة، ككراهة لحم الخنزير والخمر والموسيقىٰ، إذ الإسلام كلُّه قائم علىٰ القسوة والفجور في اللذّات...، وأعتقد أنَّ من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم علىٰ الباقين بالأشغال الشاقَّة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمّد وجثّته في متحف اللوفر...).

٣ - وممَّا يُشجِّع علىٰ ضرورة الدعوة وإحياء مهمَّة الأنبياء، هو الجزاء العظيم الذي ادَّخره الله تعالىٰ لمن يهدي الناس إلىٰ دينه القويم.

سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالىٰ: ﴿... وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾ [المائدة: ٣٢]، فقال: «من أخرجها من ضلال إلىٰ هدىٰ فكأنَّما أحياها، ومن أخرجها من هدىٰ إلىٰ ضلال فقد قتلها»[١].

وقال صلى الله عليه وآله لرجل سأله أن يوصيه: «وادعُ الناس إلىٰ الإسلام، واعلم أنَّ لك بكلِّ من أجابك عتق رقبة من ولد يعقوب»[٢].

النقطة الرابعة: ممارسة التغيير:

في يوم من الأيّام بعث الرسولُ الأكرم صلى الله عليه وآله أميرَ المؤمنين عليه السلام إلىٰ اليمن، فقال له آنذاك: «يا عليُّ، لا تقاتلن أحداً حتَّىٰ تدعوه، وأيم الله، لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك ممَّا طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا عليُّ»[٣].

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٢١٠/ باب في إحياء المؤمن/ ح ١.

(٢) كتاب الزهد لحسين بن سعيد الكوفي: ٢٠/ ح ٤٤.

(٣) الكافي للكليني ٥: ٢٨/ باب وصيَّة رسول الله صلى الله عليه وآله .../ ح ٤.

لا يحتاج أحد بعد سماع هذا الحديث والأحاديث السابقة أن يتساءل عن عظمة ثواب هداية الناس، ولكن المشكلة تكمن في دعوىٰ، يُطبِّل لها البعض بأفعالهم وأقوالهم، إذ يقولون: إنَّ الأخلاق والطباع والعقائد غير قابلة للتغيير، فمن كانت ذاته ملوَّثة في الأصل يكون مجبولاً علىٰ الشرِّ، فهو يُولَد شرّيراً ويبقىٰ شرّيراً، ولسان حاله يقول:

إذا كان الطباع طباع سوءٍ ... فلا أدب يفيد ولا أديبُ[1]

وأنت إذا تأمَّلت في هذه المقولة لوجدتها تدعو بصراحة إلىٰ توقيف وإلغاء مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلىٰ إلغاء مبدأ التناصح بين المؤمنين، وتدعو إلىٰ مبدأ (عيسىٰ بدينه وموسىٰ بدينه) كما يُعبِّر العرف العامّ!

وهذه الدعوة تلغي أهمّ هدف من أهداف البعثات السماوية للأنبياء والمرسلين، وهي هداية الناس المنحرفين وإرجاعهم إلىٰ طريق القويم.

أدلَّة إمكان التغيير:

وعلىٰ كلِّ حالٍ فهذه الشبهة باطلة، وهناك الكثير من الأدلَّة علىٰ إمكانية التغيير، نذكر منها:

١ - لقد بات واضحاً أنَّ الإنسان استطاع بطريقة وبأُخرىٰ ترويض الحيوانات الوحشية لتطيع أوامره ولتؤدّي أعمالاً هي غاية في الأُلفة والسلام، بحيث إنَّها بعيدة جدّاً عن التصرّفات التي جُبِلَت عليها تلك الحيوانات.

---

(١) راجع: المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف للأبشيهي ١: ٣٤٥.

أفهل الحيوان عديم العقل أفضل حالاً من الإنسان صاحب جوهرة العقل الملكوتية!؟

وأكثر من ذلك، نجد الإنسان قد عالج بعض النباتات المثمرة بعملية تُسمّىٰ علمياً بالتطعيم، لينتج شجرة من نوع جديد تُعطي ثمراً يختلف عن ثمرة الشجرة الأصل! أفلا يكون قادراً علىٰ تغيير الإنسان من الأسوأ إلىٰ الأحسن!؟

٢ - إنَّ التاريخ والواقع شاهدان علىٰ أنَّ كثيراً من الأفراد الذين كانوا لا يرعون إلًّا ولا ذمَّةً، عتاة مردة، لا يعيرون للأخلاق أيَّ أهمّية، وإذا بهم وعلىٰ إثر حادث ما تنقلب أحوالهم ليكونوا من الزهّاد والعبّاد، وليس بعيداً عنك قصَّة بشر الحافي(١)، ولا توبة الفضيل بن عياض(٢)، ولا أوبة مالك بن دينار(٣).

---

(١) روىٰ العلَّامة الحلّي رحمه الله في منهاج الكرامة (ص ٥٩) في سبب توبته أنَّ الإمام الكاظم عليه السلام اجتاز علىٰ داره ببغداد، فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار، فخرجت جارية وبيدها قمامة البقل، فرمت بها في الدرب، فقال لها: «يا جارية، صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبد؟»، فقالت: بل حرٌّ، فقال: «صدقتِ، لو كان عبداً خاف من مولاه، فلمَّا دخلت قال مولاها وهو علىٰ مائدة السكر: ما أبطأكِ علينا؟ فقالت: حدَّثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافياً حتَّىٰ لقي مولانا الكاظم عليه السلام فتاب علىٰ يده.

(٢) قد مرَّت قصَّته في (ص ١١٠)، فراجع.

(٣) روي عن مالك بن دينار أنَّه سُئِلَ عن سبب توبته، فقال: كنت شرطياً، وكنت منهمكاً علىٰ شرب الخمر. ثمّ إنَّني اشتريت جارية نفيسة، ووقعت منّي أحسن موقع، فولدت لي بنتاً. فشغفت بها، فلمَّا دبَّت علىٰ الأرض ازدادت في قلبي حبّاً، وألفتني وألفتها.

قال: فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إليَّ وجاذبتني عليه وهرقته من ثوبي.

فلمَّا تمَّ لها سنتان ماتت، فأكمدني حزنها. فلمَّا كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة، بتُّ ثملاً من الخمر، ولم أُصلِّ فيها عشاء الآخرة. ⇦

⇦ فرأيت فيما يرىٰ النائم كأنَّ القيامة قد قامت، ونُفِخَ في الصور، وبُعثِرت القبور، وحُشِرَ الخلائق، وأنا معهم. فسمعت حسّاً من ورائي، فالتفت، فإذا أنا بتنّين أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعاً نحوي، فمررت بين يديه هارباً فزعاً مرعوباً، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيِّب الرائحة، فسلَّمت عليه، فردَّ السلام. فقلت: أيُّها الشيخ، أجرني من هذا التنّين أجارك الله.

فبكىٰ الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوىٰ منّي وما أقدر عليه، لكن مُرْ وأسرِع، فلعلَّ الله أن يتيح لك ما يُنجيك منه. فولَّيت هارباً علىٰ وجهي، فصعدت علىٰ شُرَف من شُرَف القيامة، فأشرفت علىٰ طبقات النيران، فنظرت إلىٰ هولها، وكدت أهوي فيها من فزع التنّين، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها، فاطمأننت إلىٰ قوله ورجعت، ورجع التنّين في طلبي.

فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ، سألتك أن تجيرني من هذا التنّين فلم تفعل.

فبكىٰ الشيخ، وقال: أنا ضعيف ولكن سِرْ إلىٰ هذا الجبل فإنَّ فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك.

قال: فنظرت إلىٰ جبل مستدير من فضَّة، وفيه كوىٰ مخرمة وستور معلَّقة، علىٰ كلِّ خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر، مفصَّلة باليواقيت مكوكبة بالدُّرِّ علىٰ كلِّ مصراع ستر من الحرير. فلمّا نظرت إلىٰ الجبل ولَّيت إليه هارباً والتنّين من ورائي، حتَّىٰ إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا، فلعلَّ لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوِّه. فإذا الستور قد رُفِعَت والمصاريع قد فُتِحَت، فأشرف عليَّ من تلك المخرمات أطفال بوجوه كالأقمار. وقرب التنّين منّي. فتحيَّرت في أمري. فصاح بعض الأطفال: ويحكم، أشرفوا كلُّكم فقد قرب منه عدوّه. فأشرفوا فوجاً بعد فوج، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت عليَّ معهم.

فلمَّا رأتني بكت وقالت: أبي والله، ثمّ وثبت في كفَّة من نور كرمية السهم حتَّىٰ مثلت بين يدي. فمدَّت يدها الشمال إلىٰ يدي اليمنىٰ فتعلَّقت بها، ومدَّت يدها اليمنىٰ إلىٰ التنّين فولّىٰ هارباً.

ثمّ أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنىٰ إلىٰ لحيتي وقالت: يا أبت، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ [الحديد: ١٦].

فبكيت وقلت: يا بنيَّة، وأنتم تعرفون القرآن؟ ⇦

وقصص التوّابين أكثر من أن يُذكر لها شاهد واحد.

وهـذا إن دلَّ علىٰ شيء، فـإنَّما يـدلُّ علىٰ إمكانيـة تغيـير الأخـلاق، إذ الوقوع أدلُّ دليل علىٰ الإمكان.

٣ - إنَّ مـن أهـمّ أهـداف الأنبيـاء هـي تزكيـة أخـلاق النـاس وهدايتهم، ولو كانت الأخلاق لا تتغيَّر، فهـل تتوقَّـع مـن الله تعـالىٰ - وهـو الحكيم - أن يُرسِل الأنبياء عبثاً لتغيير أخلاق الناس!؟ حاشا وكلَّا.

وما حـال العـرب قبـل مجـيء النبـيِّ الأكـرم ﷺ وتغـيُّره إلىٰ مـا بعـد مجيئه ﷺ إلَّا دليل علىٰ ذلك. وما ألطـف مـا تكلَّـم بـه جعفـر بـن أبي طالـب (رضوان الله تعالىٰ عليه) مع ملك الحبشة في ذلك، حيث قال له:

(أيُّهـا الملـك، كنّـا قومـاً أهـل جاهليـة، نعبـد الأصـنام، ونأكـل الميتـة، ونـأتي الفـواحش، ونقطـع الأرحـام، ونسـيء الجـوار، يأكـل القـويُّ منّـا الضـعيفَ، فكنّـا علىٰ ذلـك حتَّـىٰ بعـث الله إلينـا رسـولاً منّـا، نعـرف نسبه وصـدقه وأمانتـه وعفافـه، فـدعانا إلىٰ الله لنُوحِّـده ونعبـده، ونخلـع مـا كنّـا

⇦ فقالت: يا أبت، نحن أعرف به منكم.

قلت: فأخبريني عن التنّين الذي أراد أن يُهلكني.

قالت: ذلك عملك السوء قوَّيته فأراد أن يُغرقك في نار جهنَّم.

قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي.

قالت: يا أبت، ذلك عملك الصالح أضعفته حتَّىٰ لم يكن له طاقة بعملك السوء.

قلت: يا بنيَّة، وما تصنعون في هذا الجبل؟

قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلىٰ أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم.

قال مالك: فانتبهت فزعاً، وأصبحت فأرقت المسكر وكسرت الآنية، وتبت إلىٰ الله ﷻ. وهذا كان سبب توبتي.

(كتاب التوابين لابن قدامة: ٢٠٢ - ٢٠٥/ الرقم ٧٧، توبة مالك بن دينار).

نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام...، فصدَّقناه، وآمنا به، واتَّبعناه علىٰ ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نُشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا)[١].

وهذا ما بيَّنته الزهراء عليها السلام في خطبتها حيث قالت: «... وكنتم علىٰ شفا حفرة من النار، مذقة[٢] الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق[٣]، وتقتاتون القدَّ[٤]، أذلَّة خاسئين، تخافون أن يتخطَّفكم الناس من حولكم...»[٥].

٤ - هناك الكثير من الآيات القرآنية الدالَّة علىٰ أنَّ الإنسان قادر علىٰ تغيير خصاله واختيار الأخلاق الحسنة، يقول تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها ۝٧ فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ۝٩ وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها ۝١٠﴾ (الشمس: ٧ - ١٠).

(... فالتعبير بكلمة ﴿دَسَّاها﴾ والتي هي في الأصل بمعنىٰ خلط الشيء بشيء آخر غير مرغوب فيه من غير جنسه، مثل دسِّ الحنطة بالتراب، يُبيِّن لنا أنَّ الطبيعة الإنسانية مجبولة علىٰ الصفاء والنقاوة

(١) مسند أحمد بن حنبل ١: ٢٠٢.

(٢) المذقة: اللبن الممزوج بالماء، كناية عن سهولة شربه.

(٣) الطرق: الماء الذي خوضته الإبل وبركت فيه.

(٤) القدُّ: قطعة جلد غير مدبوغة.

(٥) الاحتجاج للطبرسي ١: ١٣٥ و١٣٦.

والتقوىٰ، والتلويث والرذائل تعرض عليها من الخارج وتنفذ إليها، والاثنان قابلان للتغير والتبدُّل...)[١].

٥ - الروايات الكثيرة الدالَّة علىٰ إمكانية تغيير الأخلاق، كقول النبيِّ الأكرم ﷺ: «إنَّما بُعثت لأُتمِّم مكارم الأخلاق»[٢]، وقوله لجرير بن عبد الله: «إنَّك امرؤٌ قد أحسن الله خَلْقك فأحسن خُلُقك»[٣].

أُمور ينبغي تذكُّرها عند ممارسة التغيير:

أوَّلاً: أنَّ التغيير ضرورة لكلِّ إنسان وفي كلِّ مجالات الحياة، والتغيير يُمثِّل رغبة كاملة في نفس كلِّ إنسان. هذا كلُّه بالاتِّفاق من الناحية النظرية.

ولكن التغيير عملية صعبة، وأصعب ما فيها ليس هو الإمكانيات والفرص والمواهب، بل أصعب ما فيها هو التوفُّر علىٰ الإرادة للتغيير، فلو أراد الإنسان فعل شيء صعب جدّاً، فإنَّ إرادته تزيح الجبال. وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلىٰ قوَّة الإرادة بقوله عليه السلام: «ما ضعف بدن عمَّا قويت عليه النيَّة»[٤].

إلَّا أنَّنا ربَّما نجد أنَّ كثيراً من عمليات التغيير تحصل كردَّة فعل لحادثة أو مشكلة أو فقدان عزيز. وفرق بين التغيير الحاصل من ردَّة فعل والحاصل من إرادة قويَّة، فالأوَّل قد يتراجع عنه الإنسان إذا خفَّت ردَّة الفعل، حتَّىٰ في مسألة الإيمان والإسلام.

---

(١) الأخلاق في القرآن للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ١: ٢٥.

(٢) مكارم الأخلاق للطبرسي: ٨؛ بحار الأنوار للمجلسي ١٦: ٢١٠.

(٣) تنبيه الخواطر (مجموعة ورّام): ٩٨.

(٤) من لا يحضره الفقيه للصدوق ٤: ٤٠٠/ ح ٥٨٥٩.

ومعه، فيكون من أهمّ ما يجب أن يدعو إليه الداعي هو توفير القرار الحازم والمحاولة المستمرَّة الجادَّة في من يُراد تغييره، إذ هذان العنصران هما طريق التغيير.

في لقاء تلفزيوني مع فقير أمريكي صار مليونيراً، سُئِلَ عن سبب غناه، فقال: أنا عملت أمرين، وأيُّ واحد يفعلهما سيصير مليونيراً، وهما: أنّي قررت أن أصبح مليونيراً، ثمّ حاولت ذلك بجدٍّ واستمرار.

ثانياً: التغيير المادّي أسهل من التغيير الفكري، وهذا يعني توجيه الجهود إلىٰ تغيير الفكر. أمَّا التغيير المادّي فإنَّه سهل، فالبناية تُهدَم وتُبنىٰ من جديد، وسيّارة جديدة تشتريها، وهكذا لـمَّا تُربّي ابنك وفق مبدأ الضرب والصياح، تجده يخاف منك ويحترمك مادّياً، أي فقط إذا أحسَّ بوجودك قربه، ولكنَّه في اللحظة التي تغيب فيها فإنَّه سيخالفك بالقول والفعل.

ولذا فالنبيُّ الأكرم ﷺ غيَّر الفكر، وصبَّ جهوده علىٰ هذا الجانب أكثر من أيِّ جانب آخر.

ومن هنا ذكر العلماء أنَّ من الحِكَم المرجوَّة من طول غيبة الإمام المهدي عليه السلام هو أنَّ الغيبة فرصة مهمَّة جدّاً لتغيير الفكر والعقيدة، حتَّىٰ إذا ما وصل الناس عموماً إلىٰ مستوىٰ فكري متكامل نوعاً ما، بحيث يمكنه تقبُّل الأُطروحة المهدوية، آنذاك نحصل علىٰ مؤشّر مهمٍّ من مؤشّرات قرب الظهور. وفي هذا دافع لمحبِّ المهدي عليه السلام نحو ممارسة التغيير الفكري، بما يعمل علىٰ تسهيل وتعجيل عملية الظهور.

ثالثاً: أنَّ الطموحين والمثقَّفين لديهم استعداد للتغيير أكثر من غيرهم[1]، أمَّا غير الطموح وغير المثقَّف فإنَّه يرزح تحت وطأة الواقع

---

(١) راجع: كيف تُغيِّر نفسك/ دورة تدريبية مسجَّلة للدكتور طرق سويدان.

ويـرضىٰ بـه. والأُمـم تأخـذ وقتـاً كبـيراً وطـويلاً إلىٰ أن تصـل إلىٰ القمَّـة، ولكنَّها لا تحتاج إلَّا إلىٰ وقـت قصـير لكـي تنهـار، إلَّا مـا حـدث في الإسـلام، فإنَّه في فترة قصيرة وصل إلىٰ القمَّـة، وعنـدما انهـار أخـذ وقتـاً طـويلاً حـوالي (٨٠٠) سـنة حتَّـىٰ انهـار، لأنَّ الحضـارة الإسـلاميَّة قوَّتهـا لـيس في رجالهـا بقـدر قوَّتهـا بـنفس منهجهـا المتوافـق مـع العقـل وطبيعـة البشـر والتكنولوجيـا والتقـدُّم والحضـارة والمدنيـة. أمَّـا الغـرب فعنـدما أراد أن يـنهض فإنَّـه تصـادم مـع الكنيسـة! فالإسـلام يحمـل في ذاتـه التوافـق بـين الدين والدنيا.

فـإذا تواجـد أصـحاب الفكـر بكثـرة، فهـذا يرسـم صـورة للاطمئنـان بالتقدُّم والحضارة.

واليوم بـدأ الإسـلام بالصـعود، ولـيس معنـىٰ الصـعود هـو الحصـول علىٰ الحكم والتكنولوجيا، كـلَّا، بـل إنَّ تقـدُّم الفكـر والسياسـة هـي آخـر مـا ينضج. اليوم بدأ الفكر الإسلامي يغزو العالم.

والفكـر يـزداد بـالحوار، فكلَّـما حـاورت إنسـاناً تعلَّمـت شـيئاً زائـداً، خصوصاً إذا كان المحاور مخالفاً لفكري.

وهكذا الاحتكاك بالمتميِّزين، يزيد من قوَّة الفكر.

رابعاً: أعظـم التغيـير هـو مـا ينبـع مـن داخـل الـنفس البشـرية، مـن التأمُّل والنظر والتفكُّـر، فحـاول تحريـك الـنفس للتأمُّـل، ﴿الَّذِيـنَ يَـذْكُرُونَ اللهَ قِيامـاً وَقُعُـوداً وَعَلىٰ جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـماواتِ وَالْأَرضِ رَبَّنـا مـا خَلَقْـتَ هـذا بـاطِلاً سُـبْحانَكَ فَقِنـا عَـذابَ النَّـارِ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران: ١٩١).

ولذا فـإنَّ التغيـير الحقيقـي إنَّـما يبـدأ مـن الـنفس، ومـا مهمَّـة الـداعي

إلَّا تمهيد الأرضية المناسبة للتغيير، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

فمهمَّة الداعي شبيهة بمهمَّة الزارع، فهو يلقي البذور بعد أن يُهيِّئ الأرض الصالحة للزراعة، ويسقيها بالماء، ولكن الذي يُنبِت الزرع هو الله تعالىٰ، فمقدّمات الزرع عليك، والباقي علىٰ الله تعالىٰ. وهكذا مهمَّة التغيير، مقدّماتها عليك، والباقي يبقىٰ لإرادة الإنسان وتوفيق الباري تعالىٰ.

ولا يعني هذا تخلّي الداعي عن مهمَّته، بل تبقىٰ مهمَّة توفير الأرضية المناسبة للتغيير من أعظم الطرق للتغيير، ولذا تجد الأنبياء والأئمَّة ما تخلّوا عن مهمَّتهم حتَّىٰ مع قلَّة المتغيِّرين.

خامساً: ليس مهمّاً الكمُّ الكبير الذي يُرجىٰ هدايته، بل المهمُّ أن يعمل الداعي وفق ما يُمليه عليه تكليفه الشرعي، فإن وافق هذا هداية أكبر عدد ممكن فبها ونعمت، وإلَّا، ففي دعوات الأنبياء لنا أُسوة، فهذا النبيُّ نوح عليه السلام رغم طول مهمَّته التبليغية، ولكن ﴿ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ (هود: ٤٠)، وهم ثمانية[1]، وروي أنَّهم ثمانون في أكثر الاحتمالات[2].

وهذا النبيُّ الأكرم صلى الله عليه وآله اكتفىٰ بهداية رجل واحد في سفرة كادت تؤدّي بحياته! فقد روي أنَّه لـمَّا مات أبو طالب خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وحده إلىٰ الطائف يلتمس ثقيف النصرة والمنعة له من قومه، فروىٰ

---

(١) عن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾، قال: «كانوا ثمانية». (معاني الأخبار للصدوق: ١٥١/ باب معنىٰ القليل/ ح ١).

(٢) راجع: تفسير مجمع البيان للطبرسي ٥: ٢٧٩.

محمّد بن أحمد، عن يزيد بن زياد، عن محمّد بن كعب القرظي، قال: لـمّا انتهىٰ رسول الله ﷺ وحده إلىٰ الطائف عمد إلىٰ نفر من ثقيف هم يومئذٍ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبدياليل، ومسعود، وحبيب، بنو عمر بن عمير، عندهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم، فدعاهم إلىٰ الله تعالىٰ، وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته علىٰ الإسلام، والقيام معه علىٰ من خالفه من قومه.

فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله تعالىٰ أرسلك، وقال الآخر: أمَا وجد الله أحد يُرسِله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أُكلِّمك كلمة أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب علىٰ الله ما ينبغي لي أن أُكلِّمك... وأغرّوا به سفهاءهم وعبيدهم يُسبّونه ويصيحون به، حتّىٰ اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلىٰ حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة هما فيه، ورجع عنه سفهاء ثقيف.

... فلـمّا اطمئنَّ رسول الله، قال: «اللّهم إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، أرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربّي ، إلىٰ من تكلني، إلىٰ بعيد يتجهَّمني أو إلىٰ عدوٍّ ملَّكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع، وأعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، ويحلَّ عليَّ سخطك، لك العتبىٰ حتّىٰ ترضىٰ، لا حول ولا قوّة إلّا بك».

فلمّا رأىٰ أبناء ربيعة ما لقي تحرَّكت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له: **عداس**. فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق، ثمّ اذهب به إلىٰ ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل

عداس، ثمّ أقبل به حتّىٰ وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلمّا وضع رسول الله يده قال: «بسم الله»، ثمّ أكل، فنظر عداس إلىٰ وجهه، ثمّ قال: والله، إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة. قال له رسول الله: «ومن أيِّ أهل البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟»، قال: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوىٰ. فقال له رسول الله: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متّىٰ»، قال له: وما يُدريك ما يونس بن متّىٰ؟ قال له رسول الله: «ذاك أخي، كان نبيّاً وأنا نبيٌّ»، فأكبَّ عداس علىٰ رسول الله ﷺ، فقبَّل رأسه ويديه ورجليه.

قال: فيقول أبناء ربيعة أحدهما لصاحبه: أمَّا غلامك فقد أفسده عليك. فلمَّا جاءهم عداس، قالا له: ويلك يا عداس ما لكَ تُقبِّل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه؟ قال: يا سيِّدي، ما في الأرض خيرٌ من هذا...[1].

النقطة الخامسة: تنويع طرق الهداية:

ليس من الحكمة أن نتَّخذ طريقة واحدة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ذلك لأنَّ أذواق الناس مختلفة، فالناس تختلف في نوع الأكل الذي يُفضِّلونه، وفي اللون الذي يُعجِبهم، وفي نوع القماش الذي يلبسونه، في كلِّ شيء هناك اختلاف وتفاوت. ومن ذلك أيضاً هناك تفاوت في ما يتعلَّق بأُسلوب القناعة الفكرية والعقائدية، فالبعض يقتنع بالدليل العقلي الفلسفي، والبعض يقتنع بالدليل الفطري، البعض يقتنع بالدليل الساذج، البعض يقتنع بعقيدةٍ ما لأنَّ شخصاً محبوباً له قد اعتنق تلك العقيدة، أو لأنَّ شعار تلك العقيدة يتناسب مع مصالحه.

---

(١) تفسير الثعلبي ٩: ١٩ و٢٠.

ولـذلك فمـن الحكمـة أن تكـون للـدعاة إلىٰ الله تعـالىٰ طـرق متعـدِّدة يستعملونها في نقل العقيدة للناس وهدايتهم إلىٰ الصـراط المستقيم، ويمكـن أن نستلخص عدَّة طرق لهداية الناس من تربويات الإسلام، وهي:

١ - الهداية بالدليل العقلي:

فمـن النـاس مـن لا يقتنـع بأدلَّـة فطريـة تحـاكي فطـرة الإنسـان التـي فطـر الله تعـالىٰ النـاس عليهـا، وإنَّـما يكـون منغمسـاً بالأدلَّـة العقليـة و(الأكاديميـة)، فهـذا يحتـاج إلىٰ أدلَّـة هـو يقتنـع بهـا حتَّـىٰ نجعلـه يُصـدِّق بمقولات الدين، فمثلاً كـان الكنـدي غـير معـترف بعصـمة القـرآن الكـريم، ولكن استطاع الإمـام العسـكري عليه السلام بكلمـة بسـيطة أن يجعلـه يقـرُّ بـذلك، إذ روي أنَّ إسحاق الكنـدي الـذي كـان فيلسـوف العـراق في زمانـه أخـذ في تأليف تناقض القـرآن وشـغل نفسـه بـذلك وتفـرَّد بـه في منزلـه، وأنَّ بعـض تلامذتـه دخـل يومـاً عـلىٰ الإمـام الحسـن العسـكري، فقـال لـه أبـو محمّـد عليه السلام : «أمَـا فـيكم رجـل رشـيد يـردع أُسـتاذكم الكنـدي عـمَّا أخـذ فيـه مـن تشـاغله القـرآن؟»، فقـال التلميـذ: نحـن مـن تلامذتـه، كيـف يجـوز منّـا الاعتراض عليـه في هـذا أو في غـيره؟ فقـال لـه أبـو محمّـد: «أتـؤدّي إليـه مـا أُلقيه إليك؟»، قـال: نعـم، قـال: «فصـر إليـه وتلطَّـف في مؤانسـته ومعونتـه علىٰ ما هو بسبيله، فإذا وقعـت الأُنسـة في ذلـك فقـال: قـد حضـرتني مسـألة أسألك عنها، فإنَّه يستدعي ذلك منـك، فقـل لـه: إن أتـاك هـذا المـتكلِّم بهـذا القرآن، هل يجوز أن يكون مراده بـما تكلَّـم منـه غـير المعـاني التـي قـد ظننتهـا أنَّك ذهبت إليهـا؟ فإنَّـه سـيقول لـك: إنَّـه مـن الجـائز، لأنَّـه رجـل يفهـم إذا سـمع، فـإذا أوجـب ذلـك فقـل لـه: فـما يُـدريك لعلَّـه قـد أراد غـير الـذي ذهبت أنت إليه، فيكون واضعاً لغير معانيه».

فصار الرجل إلىٰ الكندي وتلطَّف إلىٰ أن ألقىٰ عليه هذه المسألة فقال له: أعد عليَّ، فأعاد عليه، فتفكَّر في نفسه، ورأىٰ ذلك محتملاً في اللغة وسائغاً في النظر، فقال: أقسمت عليك إلَّا أخبرتني من أين لك؟ فقال: إنَّه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك، فقال: كلَّا، ما مثلك من اهتدىٰ إلىٰ هذا ولا من بلغ هذه المنزلة، فعرِّفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمّد، فقال: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلَّا من ذلك البيت، ثمّ إنَّه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألَّفه[1].

٢ - الهداية بالدليل الفطري:

وقد كان هذا الدليل ملاذاً للكثير من أهل الشكِّ، فقد يؤمن أحدنا ولكن يبقىٰ قلبه يُشكِّك في الحقائق، فيحتاج إلىٰ ما يثير فيه فطرته ليوقظ عقله إلىٰ الحقيقة.

قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله، دلَّني علىٰ الله ما هو!؟ فقد أكثر عليَّ المجادلون وحيَّروني، فقال له: «يا عبد الله، هل ركبت سفينة قطُّ؟»، قال: نعم، قال: «فهل كُسِرَ بك حيث لا سفينة تُنجيك ولا سباحة تُغنيك؟»، قال: نعم، قال: «فهل تعلَّق قلبك هنالك أنَّ شيئاً من الأشياء قادر علىٰ أن يُخلِّصك من ورطتك؟»، فقال: نعم، قال الصادق عليه السلام: «فذلك الشيء هو الله القادر علىٰ الإنجاء حيث لا منجي، وعلىٰ الإغاثة حيث لا مغيث»[2].

وعن عبد الله بن سنان، قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلىٰ بالوضوء والصلاة، وقلت: هو رجل عاقل، فقال أبو عبد الله

---

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ٥٢٥ و٥٢٦.

(٢) التوحيد للصدوق: ٢٣١/ ح ٥.

عليه السلام: «وأيُّ عقل له وهو يطيع الشيطان؟»، فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: «سَلْه هذا الذي يأتيه من أيِّ شيء هو؟ فإنَّه يقول لك: من عمل الشيطان»[١].

٣ - الهداية بالمال:

من المعلوم أنَّ الله تعالىٰ سمح للمسلمين بأن يعطوا قسماً من زكاتهم إلىٰ الكفّار الذين يُرجىٰ من إعطائهم المال تقريبهم للإسلام، إذ البعض منهم يميل إلىٰ الدين الذي يغدق عليه الأموال، ولأنَّ الله تعالىٰ يُحِبُّ أن يهتدي جميع عبيده، سمح للمسلمين بذلك.

ومن هذا القبيل روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السلام، ومنها: ما روي أنَّ رجلاً من ولد عمر بن الخطّاب كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسىٰ عليه السلام ويسبُّه إذا رآه، ويشتم عليّاً، فقال له بعض جلسائه يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي، وزجرهم أشدّ الزجر، وسأل عن العمري، فذكر أنَّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب، فوجده في مزرعة له، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمري: لا توطئ زرعنا، فتوطَّأه أبو الحسن عليه السلام بالحمار، حتَّىٰ وصل إليه، فنزل وجلس عنده، وباسطه وضاحكه، وقال له: «كم غرمت في زرعك هذا؟»، قال: مائة دينار، قال: «وكم ترجو أن تصيب فيه؟»، قال: لست أعلم الغيب، قال: «إنَّما قلت لك: كم ترجو أن يجيئك فيه؟»، قال: أرجو فيه مائتي دينار. قال: فأخرج له أبو الحسن عليه السلام صرَّة فيها ثلاثمائة دينار، وقال: «هذا زرعك علىٰ حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو»، قال: فقام العمري، فقبَّل رأسه، وسأله أن يصفح عن فارطه، فتبسَّم إليه أبو الحسن وانصرف.

---

(١) الكافي للكليني ١: ١٢/ كتاب العقل والجهل/ ح ١٠.

قال: وراح إلىٰ المسجد، فوجد العمري جالساً، فلـمّا نظر إليه قال: الله أعلم حيث يجعل رسالاته، قال: فوثب أصحابه إليه، فقالوا له: ما قصّتك؟ قد كنت تقول غير هذا، قال: فقال لهم: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام، فخاصموه وخاصمهم، فلـمّا رجع أبو الحسن إلىٰ داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري: «أيّما كان خيراً؟ ما أردتم أو ما أردت؟ إنّني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم، وكفيت به شرّه»[1].

٤ - الهداية بالتذكير بالمواقف الخالدة والمقدّسة:

فبعض الناس يمرُّ عليه موقف مقدّس، فيعاهد الله تعالىٰ علىٰ أن يفي بحقِّ هذا الموقف، فإذا ما تذكّره أو ذكّرته به فإنّه سيؤوب إلىٰ ربّه، كما إذا ذكّرْتَ أحد العصاة بأنّه مسلم، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، وأنّ عمله يعرض علىٰ إمامه، أفهل يرضىٰ أحد بأن يفتضح بالمعاصي أمام إمامه!؟

حدَّث جماعة من فزارة ومن بجيلة، قالوا: كنّا مع زهير بن القين البجلي حين أقبلنا من مكّة، فكنّا نساير الحسين عليه السلام، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن ننازله في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام ونزل منزلاً لم نجد بدّاً من أن ننازله، فنزل الحسين في جانب ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغذّىٰ من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّىٰ سلّم ثمّ دخل، فقال: يا زهير بن القين، إنَّ أبا عبد الله الحسين بعثني إليك لتأتيه، فطرح كلُّ إنسان منّا ما في يده حتّىٰ كأنَّ علىٰ رؤوسنا الطير، فقالت له امرأته: سبحان الله، أيبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه؟ لو

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٣٣ و٢٣٤.

أتيته فسمعت من كلامه، ثمّ انصرفت. فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه، فأمر فسطاطه وثقله ورحله ومتاعه، فقُوِّض وحمل إلىٰ الحسين عليه السلام، ثمّ قال لامرأته: «أنتِ طالق، الحقي بأهلكِ، فإنّي لا أُحِبُّ أن يصيبكِ بسببي إلّا خير، ثمّ قال لأصحابه: من أحبَّ منكم أن يتبعني، وإلّا فهو آخر العهد، إنّي سأُحدِّثكم حديثاً: إنّا غزونا البحر، ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم. فقال لنا سلمان الفارسي رضي الله عنه: أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم، فقال: إذا أدركتم شباب آل محمّد فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم ممّا أصبتم اليوم من الغنائم. فأمّا أنا فأستودعكم الله. قالوا: ثمّ والله ما زال في القوم مع الحسين عليه السلام حتّىٰ قُتِلَ رحمة الله عليه[1].

هذا، ولكن التذكير بالمواقف المقدَّسة ربَّما لا ينفع في بعض الأحيان، إذا كانت النفس قد توغَّلت في المعصية ونست طريق التوبة، فالزبير بن العوّام قد ذكَّره أمير المؤمنين عليه السلام بحادثة له مع رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يتب[2]، إذ إنَّ مجرَّد ابتعاده عن ساحة المعركة لا يعدُّ توبةً منه،

---

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ٧٢ و٧٣.

(٢) روىٰ ابن عقدة في كتابه فضائل أمير المؤمنين عليه السلام (ص ١٦٦ و١٦٧)، قال: (لـمَّا كان يوم الجمل خرج عليُّ بن أبي طالب عليه السلام حتّىٰ وقف بين الصفّين، وقد أحاطت بالهودج بنو ضبة، فنادىٰ: «أين طلحة وأين الزبير؟»، فبرز له الزبير، فخرجا حتّىٰ التقيا بين الصفّين، فقال: «يا زبير، ما الذي حملك علىٰ هذا؟»، قال: الطلب بدم عثمان. قال: «قاتل الله أولانا بدم عثمان، أمَا تذكر يوماً كنّا في بني بياضة، فاستقبلنا رسول الله صلى الله عليه وآله متّكئ عليك، فضحكتُ إليك وضحكتَ إليَّ، فقلتَ: يا رسول الله، إنَّ عليّاً لا يبركه زهو، فقال: ما به زهو، ولكنَّك لتقاتله يوماً وأنت له ظالم؟»، قال: نعم، ولكن كيف أرجع الآن، إنَّه لهو العار، قال: «ارجع بالعار قبل أن يجتمع عليك العار والنار»، قال: كيف أدخل النار وقد شهد لي رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنَّة؟ ⇦

لأنَّ توبة كلِّ شخص بحسبه، وتوبته كانت تقتضي منه أن يُعلِن علىٰ رؤوس الملأ خطأه وانحراف طلحة وعائشة ومن قاتل أمير المؤمنين عليه السلام حتَّىٰ يهتدي بقوله بعض أتباعه، وكان المفترض عليه أن ينتقل إلىٰ صفِّ أمير المؤمنين عليه السلام كما فعل الحرُّ بن يزيد الرياحي عندما انتقل إلىٰ صفِّ الحسين عليه السلام. أمَّا أن يترك الحرب فقط، فهذا ليس بتوبة.

٥ - الهداية بالأخلاق الحسنة:

وهذا الطريق في الحقيقة من أنجع الطرق وأكثرها استعمالاً في حياة الأنبياء عموماً والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام خصوصاً.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنَّ يهودياً كان له علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله دنانير، فتقاضاه، فقال له: يا يهودي ما عندي ما أُعطيك، فقال: فإنّي لا أُفارقك يا محمّد حتَّىٰ تقضيني، فقال صلى الله عليه وآله: إذن أجلس معك، فجلس صلى الله عليه وآله معه حتَّىٰ صلّىٰ في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يتهدَّدونه ويتواعدونه، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم فقال: ما الذي تصنعون به؟ فقالوا: يا رسول الله، يهودي يحبسك؟ فقال صلى الله عليه وآله: لم يبعثني ربّي عزَّ وجلَّ بأن أظلم معاهداً ولا غيره، فلمَّا علا النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله. أمَا والله

⇦ قال: «متىٰ؟»، قال: سمعت سعيد بن يزيد يُحدِّث عثمان بن عفّان في خلافته أنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «عشرة في الجنَّة»، قال: «ومن العشرة؟»، قال: أنا حتَّىٰ عدَّ تسعة، قال: «فمن العاشر؟»، قال: أنت، قال: «أمَّا أنت فقد شهدت لي بالجنَّة، وأمَّا أنا فلك ولأصحابك من الجاحدين، ولقد حدَّثني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنَّ سبعة ممَّن ذكرتهم في تابوت من نار في أسفل درك من الجحيم، علىٰ ذلك التابوت صخرة إذا أراد الله عزَّ وجلَّ عذاب أهل الجحيم رُفِعَت تلك الصخرة...).

ما فعلت بك الذي فعلت إلَّا لأنظر إلىٰ نعتك في التوراة، فإنّي قرأت نعتك في التوراة: محمّد بن عبد الله، مولده بمكّة ومهاجره بطيبة، وليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخاب، ولا متزيَّن بالفحش، ولا قول الخنا، وأنا أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّك رسول الله، وهذا مالي، فاحكم فيه بما أنزل الله، وكان اليهودي كثير المال»[١].

وقال نصراني للإمام الباقر عليه السلام : أنت بقر؟ قال: «أنا باقر»، قال: أنت ابن الطبّاخة؟ قال: «ذاك حرفتها»، قال: أنت ابن السوداء الزنجية البذيَّة؟ قال: «إن كنت صدقت غفر الله لها، وإن كنت كذبت غفر الله لك»، قال: فأسلم النصراني[٢].

٦ - الهداية بإظهار عبادة الله تعالىٰ:

صحيح أنَّ الرياء بالعمل العبادي مبطل له، ولكن إذا كان إظهار العبادة من أجل هداية الآخرين وتعليمهم دينهم فهذا أمر غير مبطل للعبادة. ومن هذا القبيل ما اشتهر في قضيَّة الإمامين الحسنين عليهما السلام وكيفية تعليمهما الشيخ الكبير الوضوء الصحيح.

فقد روي أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام مرّا علىٰ شيخ يتوضَّأ ولا يُحسِن، فأخذا بالتنازع، يقول كلُّ واحد منهما: «أنت لا تُحسِن الوضوء»، فقالا: «أيُّها الشيخ، كن حكماً بيننا، يتوضَّأ كلُّ واحد منّا سويةً»، ثم قالا: «أيُّنا يُحسِن؟»، قال: كلاكما تحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يُحسِن، وقد تعلَّم الآن منكما، وتاب علىٰ يديكما، ببركتكما وشفقتكما علىٰ أُمَّة جدِّكما[٣].

---

(١) أمالي الصدوق ٥٥١ و٥٥٢/ ح (٧٣٧/ ٦).

(٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ٣٣٧.

(٣) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ١٦٨ و١٦٩.

وعن عمّار بن أبان، قال: حُبِسَ أبو الحسن موسىٰ بن جعفر [عليه السلام] عند السندي بن شاهك، فسألته أُخته أن تتولّىٰ حبسه - وكانت تتديَّن -، ففعل، فكانت تلي خدمته، فحكىٰ لنا أنّها قالت: كان إذا صلّىٰ العتمة حمد الله ومجّده ودعاه، فلم يزل كذلك حتَّىٰ يزول الليل، فإذا زال الليل قام يُصلّي حتَّىٰ يُصلّي الصبح، ثمّ يذكر قليلاً حتَّىٰ تطلع الشمس، ثمّ يقعد إلىٰ ارتفاع الضحىٰ، ثمّ يتهيَّأ ويستاك ويأكل، ثمّ يرقد إلىٰ قبل الزوال، ثمّ يتوضَّأ ويُصلّي حتَّىٰ يُصلّي العصر، ثمّ يذكر في القبلة حتَّىٰ يُصلّي المغرب، ثمّ يُصلّي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه. **فكانت أُخت السندي إذا نظرت إليه قالت: خاب قوم تعرَّضوا لهذا الرجل،** وكان عبداً صالحاً(١).

فانظر كيف أنَّ عبادة الإمام الكاظم عليه السلام جعلت أُخت سجّانه تعترف بفضله، بل قال الشيخ عبّاس القمّي رحمه الله عنها: (كانت... أُخت السندي من المحبّين لأهل البيت عليهم السلام، وكانت تلي خدمة موسىٰ بن جعفر عليه السلام لـمَّا كان في محبس السندي)(٢).



---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣: ٣٢ و٣٣.

(٢) الكنىٰ والألقاب للشيخ عبّاس القمّي ٣: ١١٤/ في ترجمة (كشاجم) محمود بن الحسين بن السندي بن الشاهك.

الفصل الرابع:

هداية التشريع

هداية التشريع:

بعد أن هيَّأ الله عَجَلَّ في الكون كلَّ ما من شأنه أن يخدم الإنسان في وصوله إلىٰ هدفه، وبعد أن ركَّب فيه عقلاً يُفكِّر به ويُدرك ويُحلِّل المعلومات ويعرف النافع من الضارِّ، وأيضاً به استطاع بناء حضارته، وأتمَّ ذلك له بإرسال الأنبياء الذين ما قصَّروا في أداء ما عليهم من مهمَّة هداية الناس، أكمل الله تعالىٰ لطفه ورحمته بالناس بأن أنزل لهم شريعةً ودستوراً يساعدهم في المسير نحو الهدف بكلِّ وضوح، فالشريعة هي أشبه بالعلامات التي تُوضَع علىٰ الطريق لتدلَّ المسافر علىٰ وجهته وهدفه، وهذا هو معنىٰ هداية التشريع.

إنَّها باختصار بمعنىٰ سنِّ القانون وجعل الأحكام والآداب والسنن، ليتمكَّن الذي جروا علىٰ مقتضىٰ العقل وقبلوا دعوة الدعاة الربّانيين من سلوك ما أمر به النبيُّ.

والدليل علىٰ هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ۞﴾ (البقرة: ١ و٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞﴾ (البقرة: ٥٣).

والآيات كثيرة في هذا الجانب.

وحتَّىٰ تتَّضح الهداية هنا أكثر نذكر عدَّة نقاط:

النقطة الأُولىٰ: تقدَّم أنَّ المعنىٰ الثالث للهداية هي هداية الدعوة، والتي تعني أنَّ هناك عقلاً منفصلاً يفتح طريق التكامل للإنسان ويُحذِّره

من عقبات الطريق، وهذا المعنىٰ الرابع (هداية التشريع) هو في الحقيقة معنىٰ مكمِّل لهداية الدعوة، وبعبارة واضحة: إنَّ التشريع هو جزء من مهامِّ الداعي والدعوة الإلهيَّة.

فالسماء تدخَّلت وضخَّت لنا شريعة متكاملة لتنظيم علاقات الفرد المختلفة (الأُفقية والعمودية)، ولم تترك الأمر إلىٰ تجربة الإنسان وقدراته الذهنية، أي إنَّها اختصرت الطريق كثيراً علىٰ الإنسان في إصدار وثيقة دستورية لتنظيم كلِّ مفردات الحياة، وهنا تكمن الهداية واللطف الذي يُقرِّب الإنسان من الطاعة ويُبعِّده عن المعصية.

النقطة الثانية: وقد يسأل البعض: لماذا لم تترك السماء أمر التشريع لتجربة الإنسان وعقله؟ فإنَّه وبالتجربة استطاع أن يخترع ويكتشف الكثير من الأُمور علىٰ طول خطِّ وجوده، خصوصاً وأنَّ نظام الحياة قائم علىٰ أساس (**الاختيار الإنساني**) الذي أسَّس للمسؤولية علىٰ الفعل؟

والجواب:

١ - بغضِّ النظر عن هذا الكلام، فإنَّه بالتالي عندما أنزلت السماء شريعة متكاملة، فإنَّها قد اختصرت الطريق علىٰ الإنسان، فلم تتركه يتجشَّم عناء البحث والتجربة والوقوع في الأخطاء المتكثِّرة والمتتالية، والتي لا يُعلَم متىٰ سيصل من خلال تلك التجربة إلىٰ تشريع يضمن حقوق الجميع ولا يعتدي علىٰ أحد[1].

---

(١) وممَّا يُشير إلىٰ أنَّ التجربة الإنسانية غير قادرة علىٰ إقامة التشريع من دون تدخُّل سماوي، هو ما تذكره بعض الروايات من أنَّ دولة أهل البيت عليهم السلام ستكون هي آخر الدول، بعد أن تُجرِّب كلُّ الحضارات الإنسانية حظَّها في قيادة العالم ويثبت عدم قدرتها علىٰ إدارة دفَّتها بصورة متكاملة وعادلة. ⇦

٢ - إنَّ هذا الكلام يستبطن القول بأنَّه لا ضرورة للتشريع السماوي، ولو سلَّمناه، فإنَّه لا ينفي حُسْنَ الشريعة علىٰ كلِّ حالٍ، فسواء كان التشريع ضرورياً أو لا، فإنَّه وبلا شكٍّ حَسَنٌ علىٰ كلِّ حالٍ، كيف، ونحن نرىٰ أنَّ التجربة الإنسانية قد تأخذ مئات السنين حتَّىٰ تصل إلىٰ قضيَّة تخدم المجتمع، فقد تأخذ آلاف السنين لتنتج شريعة تعالج جميع مشاكل الحياة وتُعطي الحلول الناجعة من دون محاباة ولا تأثير الظرف المعاش ولا الأمزجة المختلفة، فعندما تبرَّعت السماء ومنَّت بشريعة متكاملة، لا شكَّ أنَّ هذا أمر حسن ومحبوب بحكم العقل، حتَّىٰ لو قلنا جدلاً بأنَّه ليس ضرورياً.

٣ - وقد يكون في ذلك السؤال إثارة تستهدف القول بأنَّ الشريعة تسلب اختيار الإنسان، فإن كان كذلك فالجواب هو: أنَّ الشريعة ألزمت الأفراد باتِّباعها تشريعاً لا تكويناً، ممَّا يعني أنَّها لم تسلب اختيار الإنسان. وما زال نظام الحياة قائماً علىٰ الاختيار الإنساني، ولذلك ما زال الإنسان مسؤولاً عن فعله، بل إنَّ الشريعة أكَّدت مسؤولية الإنسان أكثر وأكثر، عندما صرَّحت النصوص الكثيرة بذلك.

قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ (المدَّثِّر: ٣٨).

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعىٰ ﴿٣٥﴾﴾ (النازعات: ٣٥).

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النجم: ٣٩ - ٤١).

⇨ فقد روىٰ الطوسي رحمه الله في كتابه الغيبة (ص ٤٧٢ و٤٧٣/ ح ٤٩٣) عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «دولتنا آخر الدول، ولن يبقَ أهل بيت لهم دولة إلَّا ملكوا قبلنا، لئلَّا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]».

٤ - وهذا جواب دقيق يحتاج إلىٰ تأمُّل، وهو:

قالوا: إنَّ المرجعيات العلمية والأدلَّة والحجج هي: العلم - أي القطع والجزم واليقين -، والأمارة - مثل خبر الواحد -، والأصل العملي - وهو الاستصحاب والبراءة والاشتغال والتخيير -.

وهذه الحجج ليست علىٰ مستوىٰ واحد من الحجّية، فالقطع يأتي في الدرجة الأُولىٰ، لأنَّ حجّيته ذاتية لا جعلية، ثمّ الأمارة، ثمّ الأصل العملي الذي موضوعه الشكّ، وحجّيتها جعلية لا ذاتية.

الملاحظة المهمَّة هنا هي: أنَّه لا بدَّ في الحجج وفي أيِّ وسيلة إثبات أُخرىٰ أن تنتهي صعوداً إلىٰ وسيلة إثبات لا تقبل الشكَّ ولا النقيض، بأن تكون مضمونة الحقّانية والتطابق مع الواقع، فتكون هي المرجع لغيرها من الحجج، فينقطع التسلسل.

لذلك قالوا بأنَّ النظري لا بدَّ أن يرجع إلىٰ البديهي الذي لا يحتاج إلىٰ استدلال، بل لا بدَّ أن نصل إلىٰ مستوىٰ من البداهة بحيث لا يقبل الإثبات، لأنَّه لا يوجد شيء أوضح وأعرف وأبين منه ليُثبِته، فلا بدَّ من الوصول إلىٰ الضمان الذاتي بالمطابقة للواقع، بحيث لا يمكن النهي عنه أو نقضه، وإلَّا لانتهينا إلىٰ السفسطة، فإنَّ القول بأنَّ كلَّ ما في الوجود هو مشكوك الوجود، هو السفسطة بعينها.

إذن، لا بدَّ من الوصول إلىٰ بديهي أوَّل، وحجَّة أرقىٰ بتمام معنىٰ الكلمة، بحيث لا يقبل النقاش ولا الرأي الآخر، لأنَّه مطابق للواقع والحقِّ (١٠٠٪)، فيكون مرجعاً لكلِّ النظريات الأُخرىٰ.

إذا تبيَّن هذا نقول: إنَّ النبيَّ عندما يأتي بشريعة معيَّنة من السماء، فهذا يُمثِّل البديهة الأُولىٰ التي لا تقبل النقاش، فلا معنىٰ لتخطئته أو

حتَّىٰ تصويبه آنذاك، لأنَّ التخطئة والتصويب مساحتها النظريات، أمَّا البديهة الأُولىٰ فهي مطابقة للواقع تماماً. أو قل: إنَّ التخطئة والتصويب محلُّها عالم الإثبات والحجج، والنبوَّة تُمثِّل عالم الثبوت والواقع.

ومعه، فلا معنىٰ للنقاش في ضرورة النبوَّة والشريعة أو عدم ضرورتها، فإنَّ ضرورتها مفروغ عنها، لأنَّها تُمثِّل البديهة الأُولىٰ. وهذا معناه أنَّنا نعتقد أنَّ المعصوم عموماً ليس مجرَّد طريق للواقع، بل هو الواقع بعينه.

النقطة الثالثة: وقد اتَّضح من الجواب الرابع أمر فكري، وهو: أنَّه ليس مهمّاً في التنمية الفكرية وغيرها أن يكون باب السؤال والتخطئة مفتوحاً باستمرار، بل يمكن أن تكون التنمية مأخوذة من (معصوم) لا يخطئ، فوجود المعصوم لا يُغلِق باب التنمية أبداً، وفي نفس الوقت لا يسلب الاختيار، ولا يُحوِّلنا إلىٰ متلقِّين فقط، بل ما زال الاختيار الإنساني موجوداً، وما زال باب التفكير والإنتاج الجديد مفتوحاً، ولكن المعصوم يُمثِّل البديهة التي يُرجَع إليها عند إرادة الاستدلال علىٰ حقّانية أو عدم حقّانية فكرة معيَّنة.

وهذا واحد من المعاني التي أشارت إليها الروايات التي ذكرت بأنَّ أيَّ حقٍّ عند الناس فإنَّه مأخوذ من أهل بيت العصمة.

فعن محمّد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «ليس عند أحد من الناس حقٌّ ولا صواب، ولا أحد من الناس يقضي بقضاء حقٍّ إلَّا ما خرج منّا أهل البيت، وإذا تشعَّبت بهم الأُمور كان الخطاء منهم والصواب من عليٍّ عليه السلام»[1].

وعن زرارة، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام فقال له رجل من

(١) الكافي للكليني ١: ٣٩٩/ باب أنَّه ليس شيء من الحقِّ في يد الناس إلَّا ما خرج من عند الأئمَّة عليهم السلام.../ ح ١.

أهل الكوفة يسأله عن قول أمير المؤمنين عليه السلام: «سلوني عمَّا شئتم، فلا تسألوني عن شيء إلَّا أنبأتكم به»، قال: «إنَّه ليس أحد عنده علم شيء إلَّا خرج من عند أمير المؤمنين عليه السلام، فليذهب الناس حيث شاؤوا، فوَالله ليس الأمر إلَّا من هاهنا - وأشار بيده إلىٰ بيته -»[١].

وعن أبي مريم، قال: قال أبو جعفر عليه السلام لسَلَمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «شرِّقا وغرِّبا، فلا تجدان علماً صحيحاً إلَّا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت»[٢].

الضلال التشريعي:

والضلال في هذه المرحلة من العبد أيضاً، لأنَّه تعالىٰ لم يترك أُمَّة من دون قانون وميزان وتكليف.

نعم، شاء الله تعالىٰ أن لا يجبر عبده علىٰ التزام القانون إذا أراد ذلك العبد - باختياره - عدم الالتزام، وهذه ضلالة غير قبيحة علىٰ الله تعالىٰ، بل الهداية بالجبر فيها نقض للغرض الإلهي من خلقة الإنسان، إذ الحكمة هي اختبار العبد بالاختيار.

وهذا هو معنىٰ ما تقدَّم من أنَّ السماء تُلزم العبد تشريعاً لا تكويناً، فالله تعالىٰ لا يجبر عبداً علىٰ أن يلتزم الشريعة بحيث يسلب اختياره، كلَّا، بل هو إلزام تشريعي، تبقىٰ إرادة الإنسان محفوظة فيه بتمام معنىٰ الكلمة[٣].

---

(١) الكافي للكليني ١: ٣٩٩/ باب أنَّه ليس شيء من الحقِّ في يد الناس إلَّا ما خرج من عند الأئمَّة عليهم السلام.../ ح ٢.

(٢) الكافي للكليني ١: ٣٩٩/ باب أنَّه ليس شيء من الحقِّ في يد الناس إلَّا ما خرج من عند الأئمَّة عليهم السلام.../ ح ٣.

(٣) وهو أحد معاني: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، الذي تقدَّم في الشكل الأوَّل من أشكال ضلال الدعوة.

أمور مهمَّة في المقام:

الأمر الأوَّل: من له حقُّ التشريع؟

لا شكَّ أنَّ تشريع الأحكام وسنَّ القوانين لهو من الضرورة بمكان، وفي نفس الوقت يُمثِّل عنصراً مهمّاً من عناصر تكوين أيِّ دولة يُراد لها النجاح. وبالتالي، يُمثِّل القانون - أو قل: الدستور - ضرورة ملحَّة، وفي نفس الوقت مهمَّة خطرة، علىٰ أحدٍ ما القيام بها.

والإسلام واضح المنهج في هذا الجانب، فالمقنِّن والواضع للدستور هو الله تعالىٰ بلا منازع، وقد أنزل القرآن الكريم الذي يُمثِّل القانون الأهمّ في الدولة الإسلاميَّة، وفيه يذكر تعالىٰ أنَّ من له حقُّ التشريع هو الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿... إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يوسف: ٤٠).

وهذا من الوضوح بمكان، ولكن السؤال هنا: هل يحقُّ لأحد غير الله تعالىٰ أن يقوم بعملية التشريع، فيأمر بشيء أو ينهىٰ عن آخر؟

هذا السؤال كان مدار البحث بين العلماء، وخلاصة ما يمكن أن يقال هنا:

إنَّه لا بدَّ أن نبحث مسألة مهمَّة في هذا المجال، إذا فهمناها أمكننا أن نجيب عن ذلك السؤال بكلِّ صراحة، تلك المسألة هي:

ما هو الملاك في تشريع الأحكام؟ أي ما هو الأساس الذي يعتمده الباري جلَّ وعلا في تشريعه للأحكام؟

والجواب: حيث إنَّه تعالىٰ حكيم لا يعبث، وهو غير محتاج إلىٰ عبادة أحد ولا تضرُّه معصية آخر، وحيث عَلِمَ تعالىٰ بما يصلح العباد

ويوصلهم إلىٰ هدفهم النهائي الأسمىٰ، كان أساس التشريع عنده تعالىٰ هو أنَّه تعالىٰ يأمر بما فيه مصلحة للعباد، وينهىٰ عما فيه مفسدة لهم، بغضّ النظر عن أنَّ هذه المصلحة وتلك المفسدة بُيِّنت للعباد أو لا. المهمُّ أنَّنا نعرف أنَّه تعالىٰ حكيم وعادل، ولذا فمن الأكيد والمتيقَّن أنَّه تعالىٰ لا يأمر إلَّا بما فيه مصلحة، ولا ينهىٰ إلَّا عمَّا فيه مفسدة.

ومعه، فلو أمكن لأحد أن يطَّلع علىٰ المصالح والمفاسد الواقعية للأحكام، ولو كان ذلك لفرط علمه، ولو كان ذلك بسبب أنَّ الله تعالىٰ أطلعه علىٰ عالم الواقع، حينئذٍ أمكن لذلك الشخص أن يأتي بتشريع ويأمر به، أو ينهىٰ عن آخر، تماماً كما لو اطَّلع شخص علىٰ قانون سنَّه البرلمان مثلاً، ولكن البرلمان لم يُعلِنه علىٰ العامَّة بعد، فيمكن لذلك الشخص أن يأتي بذلك التشريع ويأمر به الناس، ولا ضير في ذلك، نعم، للناس أن لا يطيعوه، إلَّا إذا كان ممَّن تجب طاعته، كما هو الحال في النبيِّ الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ولا يعني هذا أنَّ اكتشاف ملاكات الأحكام مسألة متاحة للجميع، كلَّا، بل في الحقيقة إنَّ هذا الأمر اختصَّ به الله تعالىٰ أنبياءه وأولياءه فقط، فلا يطمع أحدنا بما ليس في متناول يده، بل وفكره.

وعليه، فيمكن للنبيِّ الأكرم ﷺ أن يُشرِّع أحكاماً، إذا ما علم المصالح الواقعية للأحكام، ونفس الكلام يجري في المعصوم عليه السلام، ولذا وردت العديد من التشريعات عن النبيِّ الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وتلك التشريعات وإن كانت جزئية لا كلّية، وإن كانت في مقام بيان الأحكام التنفيذية، ولكنَّها علىٰ كلِّ حالٍ، تكشف عن علم النبيِّ الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام الذي يسمح لهم

باكتشاف الملاكات الواقعية للأحكام[١]، وبالتالي يمكنهم إصدار الأوامر والنواهي الشرعية. وسنذكر قائمة بتلك التشريعات بعد قليل.

وهناك العديد من النصوص التي تدلُّ بوضوح علىٰ أنَّ حقَّ التشريع قد ثبت للنبيِّ الأكرم ﷺ، فعن الباقرين عليهما السلام، قالا: «إنَّ الله فوَّض إلىٰ نبيِّه أمر خلقه، لينظر كيف طاعتهم، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]»[٢].

وعن أبي إسحاق النحوي، قال: دخلت علىٰ أبي عبد الله عليه السلام فسمعته يقول: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أدَّب نبيَّه علىٰ محبَّته، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، ثمّ فوَّض إليه[٣] فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]».

---

(١) عن حمران بن أعين، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنَّ جبرئيل عليه السلام أتىٰ رسول الله ﷺ برمّانتين، فأكل رسول الله ﷺ إحداهما وكسر الأُخرىٰ بنصفين فأكل نصفاً وأطعم عليّاً نصفاً، ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا أخي، هل تدري ما هاتان الرمّانتان؟ قال: لا، قال: أمّا الأُولىٰ فالنبوَّة ليس لك فيها نصيب، وأمّا الأُخرىٰ فالعلم أنت شريكي فيه»، فقلت: أصلحك الله، كيف يكون شريكه فيه؟ قال عليه السلام: «لم يُعلِّم الله محمّداً ﷺ علماً إلَّا وأمره أن يُعلِّمه عليّاً عليه السلام». (الكافي للكليني ١: ٢٦٣/ باب أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُعلِّم نبيَّه علماً إلَّا أمره أن يُعلِّمه أمير المؤمنين.../ ح ١).

(٢) بصائر الدرجات للصفّار: ٣٩٩ و٤٠٠/ الجزء ٨/ باب ٤/ ح ٧.

(٣) مسألة التفويض الإلهي، بمعنىٰ إيكال بعض الأُمور إلىٰ بعض الخلق، ليست خاصَّة بالتشريع، بل هناك الكثير من الأُمور التي فوَّض الله تعالىٰ فيها أمر التنفيذ إلىٰ العباد، كمسألة التوفّي وتدبير بعض أُمور الخلق، قال تعالىٰ: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ (الزمر: ٤٢)، ثمّ قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ (السجدة: ١١)، ثمّ قال: ﴿حَتَّىٰ إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٣٧)، وقال تعالىٰ: ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً ۝٥﴾ (النازعات: ٥).

قال: ثمّ قال: «وإنَّ نبيَّ الله فوَّض إلىٰ عليٍّ وائتمنه، فسلَّمتم وجحد الناس، فوَالله لنُحِبَّكم أن تقولوا إذا قلنا، وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله ﷻ، ما جعل الله لأحد خيراً في خلاف أمرنا»[1].

ومن هنا فلو شرَّع أحدهم تشريعاً وصادف أنَّه وافق المصلحة، لأمكن أن يأتي التشريع الإلهي ويُمضي ذلك التشريع ولا يلغيه، أو يُعدِّل بعض فقراته، وهذا ما يروىٰ عن عبد المطَّلب جدِّ النبيِّ الأكرم ﷺ، حيث نقل التاريخ عنه عدَّة تشريعات شرَّعها، وجاء الإسلام وأمضاها.

وخلاصة القول: إنَّه وإن اختصَّ حقُّ التشريع بالله تعالىٰ، ولكنَّه تعالىٰ أوكل مهمَّة التشريع في بعض الأحيان إلىٰ بعض عباده العارفين بملاكات الأحكام، فيكون تشريعهم للأحكام بالوكالة، ولا مانع من هذا.

تشريعات النبيِّ الأكرم ﷺ:

أمَّا ما يُنقَل من تشريعات النبيِّ الأكرم ﷺ، فهذه بعضها:

١ - إنَّ الله تعالىٰ فرض الصلاة ركعتين ركعتين، فأضاف النبيُّ ﷺ للظهرين والعشاء ركعتين ركعتين.

ومن هنا نجد أنَّ الشكَّ في أوَّل ركعتين من كلِّ صلاة وفي صلاة المغرب مبطل لها، وأمَّا في الثالثة والرابعة من الرباعية فيمكن علاجه، وقد وضَّح هذه المسألة الإمام الباقر عليه السلام حين بيَّن أنَّ أوَّل ركعتين فرض من الله تعالىٰ، وهو لا يصحُّ الشكُّ فيه، وأمَّا الثالثة والرابعة فهما سُنَّة من رسول الله ﷺ فيمكن علاجه.

---

(١) الكافي للكليني ١: ٢٦٥/ باب التفويض إلىٰ رسول الله ﷺ وإلىٰ الأئمَّة عليهم السلام في أمر الدين/ ح ١.

وهكـذا في السـفر، تسـقط الركعتـان اللتـان سـنَّهما رسـول الله ﷺ ولا يسقط الفرض الإلهي.

عن علـيِّ بـن مهزيـار، قـال: قـال بعـض أصـحابنا لأبي عبـد الله عليه السلام: مـا بـال صـلاة المغـرب لم يُقصِّـر فيهـا رسـول الله ﷺ في السـفر والحضـر مـع نافلتهـا؟ قـال: «لأنَّ الصـلاة كانـت ركعتـين ركعتـين، فأضـاف رسـول الله ﷺ إلىٰ كلِّ ركعتين ركعتـين، ووضـعها عـن المسـافر، وأقـرَّ المغـرب علىٰ وجههـا في السـفر والحضـر، ولم يُقصِّـر في ركعتـي الفجـر أن يكـون تمـام الصلاة سبع عشرة ركعة في السفر والحضر»[1].

وعـن أبي جعفـر عليه السلام، قـال: «لـمَّا عُـرِجَ برسـول الله ﷺ نـزل بالصـلاة عشـر ركعـات، ركعتـين ركعتـين، فلـمَّا وُلِـدَ الحسـن والحسـين زاد رسول الله ﷺ سـبع ركعـات شـكراً لله، فأجـاز الله لـه ذلـك، وتـرك الفجـر لم يزد فيها لضيق وقتها، لأنَّـه تحضـرها ملائكـة الليـل وملائكـة النهـار، فلـمَّا أمره الله بالتقصير في السفر وضـع عـن أُمَّتـه سـتَّ ركعـات، وتـرك المغـرب لم يُنقِص منهـا شـيئاً، وإنَّـما يجب السـهو فـيما زاد رسـول الله ﷺ، فمـن شـكَّ في أصل الفرض في الركعتين الأُوَّلتين استقبل صلاته»[2].

٢ - إنَّ الله تعـالىٰ فـرض في السـنة صـوم شـهر رمضـان، وسـنَّ النبـيُّ الأكـرم ﷺ صـوم شـهر شـعبان، وثلاثـة أيّـام مـن كـلِّ شـهر، (والأفضـل صيام أوَّل خمـيس منـه وآخـر خمـيس منـه، وأوَّل أربعـاء مـن العشـرة الثانيـة منه)[3].

---

(١) المحاسن للبرقي ٢: ٣٢٧/ ح ٧٨.

(٢) الكافي للكليني ٣: ٤٨٧/ باب النوادر/ ح ٢.

(٣) الفتاوىٰ الميسَّرة للسيِّد السيستاني: ١٧٣.

٣ - إنَّ الله تعالىٰ حرَّم الخمر، وحرَّم رسول الله ﷺ المسكر من كلِّ شراب.

٤ - إنَّ رسول الله ﷺ سنَّ النوافل اليومية، فأمضاها الله تعالىٰ له.

وقد وردت رواية جامعة لهذه التشريعات النبوية، عن فضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لبعض أصحاب قيس الماصر: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أدَّب نبيَّه فأحسن أدبه، فلمَّا أكمل له الأدب قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، ثمّ فوَّض إليه أمر الدين والأُمَّة ليسوس عباده، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وإنَّ رسول الله ﷺ **كان مسدَّداً موفَّقاً مؤيَّداً بروح القدس**، لا يزل ولا يخطئ في شيء ممَّا يسوس به الخلق، فتأدَّب بآداب الله.

ثمّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ فرض الصلاة ركعتين ركعتين، عشر ركعات، فأضاف رسول الله ﷺ إلىٰ الركعتين ركعتين، وإلىٰ المغرب ركعة، فصارت عديل الفريضة لا يجوز تركهنَّ إلَّا في سفر، وأفرد الركعة في المغرب فتركها قائمة في السفر والحضر، فأجاز الله عزَّ وجلَّ له ذلك، فصارت الفريضة سبع عشرة ركعة.

ثمّ سنَّ رسول الله ﷺ النوافل أربعاً وثلاثين ركعة مثلَي الفريضة، فأجاز الله عزَّ وجلَّ له ذلك، والفريضة والنافلة إحدىٰ وخمسون ركعة، منها ركعتان بعد العتمة جالساً تُعَدُّ بركعة مكان الوتر.

وفرض الله في السنة صوم شهر رمضان، وسنَّ رسول الله ﷺ صوم شعبان وثلاثة أيّام في كلِّ شهر مثلَي الفريضة، فأجاز الله عزَّ وجلَّ له ذلك.

وحرَّم الله عَجَلَّ الخمر بعينها، وحرَّم رسول الله ﷺ المسكر من كلِّ شراب، فأجاز الله له ذلك كلَّه.

وعاف رسول الله ﷺ أشياءً وكرهها ولم ينَه عنها نهي حرام، إنَّما نهىٰ عنها نهي إعافة وكراهة، ثمّ رخَّص فيها، فصار الأخذ برُخَصه واجباً علىٰ العباد كوجوب ما يأخذون بنهيه وعزائمه، ولم يُرخِّص لهم رسول الله ﷺ فيما نهاهم عنه نهي حرام، ولا فيما أمر به أمر فرض لازم.

فكثير المسكر من الأشربة نهاهم عنه نهي حرام لم يُرخِّص فيه لأحد.

ولم يُرخِّص رسول الله ﷺ لأحد تقصير الركعتين اللتين ضمَّهما إلىٰ ما فرض الله عَجَلَّ، بل ألزمهم ذلك إلزاماً واجباً، لم يُرخِّص لأحد في شيء من ذلك إلَّا للمسافر.

وليس لأحد أن يُرخِّص [شيئاً] ما لم يُرخِّصه رسول الله ﷺ، فوافق أمرُ رسول الله ﷺ أمرَ الله عَجَلَّ، ونهيُه ﷺ نهيَ الله عَجَلَّ[1]، ووجب علىٰ العباد التسليم له كالتسليم لله تبارك وتعالىٰ»[2].

٥ - إنَّ الله تعالىٰ فرض الفرائض في الإرث، ولم يَقسِم للجدِّ شيئاً، ولكن رسول الله ﷺ أطعمه السُّدُس.

فعن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «... وإنَّ الله

---

(١) وفي هذا إشارة إلىٰ ما تقدَّم منّا من أنَّ الأمر التشريعي إذا كان موافقاً لما يريده الله تعالىٰ فيمكن أن يمضيه. وهنا تُبيِّن الرواية أنَّ أمر ونهي الرسول الأعظم ﷺ كان موافقاً لأمر ونهي الله تبارك وتعالىٰ، لذلك وجب التسليم له فيهما.

(٢) الكافي للكليني ١: ٢٦٦ و٢٦٧/ باب التفويض إلىٰ رسول الله ﷺ وإلىٰ الأئمَّة عليهم السلام في أمر الدين/ ح ٤.

عَجَّلَ فرض الفرائض ولم يَقسِم للجدِّ شيئاً، وإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أطعمه السُّدُس فأجاز الله جلَّ ذكره له ذلك، وذلك قول الله عَجَّلَ: ﴿هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩]»[١].

تشريعات الأئمَّة عليهم السلام:

وأمَّا عن تشريعات الأئمَّة عليهم السلام، فلا بدَّ أن نعلم أوَّلاً أنَّه وردت روايات عديدة عنهم عليهم السلام ظاهرها أنَّهم لا يُشرِّعون أبداً، وأنَّه لا حقَّ لهم في ذلك.

فعن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «يا جابر، إنّا لو كنّا نُحدِّثكم برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين، ولكنّا نُحدِّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضَّتهم»[٢].

وفي رواية ثانية: «لو أنّا حدَّثنا برأينا ضللنا كما ضلَّ من كان قبلنا، ولكنّا حدَّثنا ببيِّنة من ربِّنا، بيَّنها لنبيِّه فبيَّنها لنا»[٣].

وفي رواية ثالثة: «مهما أجبتك فيه من بشيء فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله، لسنا نقول برأينا من شيء»[٤].

ولكن في نفس الوقت وردت روايات أُخرىٰ تدلُّ علىٰ أنَّهم قاموا بعملية التشريع، **فكيف الجمع بينهما؟**

ويمكن الجمع بأنَّهم عليهم السلام لا يُشرِّعون تشريعاً من عند أنفسهم، وهو ما

---

(١) الكافي للكليني ١: ٢٦٧/ باب التفويض إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وإلىٰ الأئمَّة عليهم السلام في أمر الدين/ ح ٦. وراجع للتفاصيل أكثر: مفاهيم القرآن للشيخ جعفر السبحاني ٢: ٦٢٦.

(٢) بصائر الدرجات للصفّار: ٣١٩/ الجزء ٦/ باب ١٤/ ح ١.

(٣) بصائر الدرجات للصفّار: ٣١٩/ الجزء ٦/ باب ١٤/ ح ٢.

(٤) بصائر الدرجات للصفّار: ٣٢٠ و٣٢١/ الجزء ٦/ باب ١٤/ ح ٨.

عبَّر عنه الإمام الباقر عليه السلام بأنَّهم لو كانوا يفتون وفق أهوائهم لهلكوا، وإنَّما هم يُشرِّعون لمكان عصمتهم التي تعني فيما تعنيه علماً لدنّياً موافقاً للواقع، بمعنىٰ أنَّهم لعلمهم وعصمتهم يمكنهم أن يُحدِّدوا ويُشخِّصوا المصالح من المفاسد، ويعطوا أحكاماً موافقة للواقع، وهو ما عبَّر عنه الإمام الصادق عليه السلام: «فوَالله ما نقول بأهوائنا، ولا نقول برأينا، ولا نقول إلَّا ما قال ربُّنا»[1].

هذا بالإضافة إلىٰ أنَّه يمكن القول بأنَّ تلك الأحاديث وردت في مقام الردِّ علىٰ مدرسة الرأي[2]، تلك المدرسة التي كانت تفتي وفق الأهواء والاستحسانات الشخصية غير القائمة علىٰ أساس علمي متين، لا في مقام نفي إمكانية التشريع عنهم عليهم السلام.

وعلىٰ كلِّ حالٍ، فيمكن استفادة أنَّهم عليهم السلام كانوا يُشرِّعون وفق المصالح والمفاسد من الروايات التي يُعبِّرون عليهم السلام فيها بأنَّهم يكرهون كذا وأنَّهم يرون كذا.

والروايات الدالّة علىٰ ذلك كثيرة، منها:

١ - ورد أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام فرض زكاة علىٰ الخيل، فعن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنَّهما قالا: «وضع أمير المؤمنين صلوات الله عليه علىٰ الخيل العتاق الراعية في كلِّ فرس في كلِّ عام دينارين، وعلىٰ البراذين ديناراً»[3].

---

(١) بصائر الدرجات للصفّار: ٣٢٠/ الجزء ٦/ باب ١٤/ ح ٧.

(٢) سيأتي بعض الكلام عنها إن شاء الله تعالىٰ.

(٣) الكافي للكليني ٣: ٥٣٠/ باب ما يجب عليه الصدقة من الحيوان وما لا يجب/ ح ١؛ وفي هامش المصدر: (... والعتيق: العربية الكريمة الأصل. والبرذون: العجمية الأصل، أو ما سوىٰ العتيق. وهذه الزكاة حملها في الاستبصار علىٰ الاستحباب لما ثبت من انتفاء الوجوب عمَّا سوىٰ الأصناف التسعة. قيل: ويحتمل أن يكون في أموال المجوس ونحوهم جزية أو عوضاً عن انتفاعهم بمرعىٰ المسلمين).

٢ - وعن عليٍّ بن مهزيار أنَّ الإمام الجواد عليه السلام عندما جاء إلىٰ بغداد في عام (٢٢٠هـ) فرض خمساً آخر غير الخمس الواجب المتعارف عليه في قسم عظيم من الأموال، ولمرَّة واحدة فقط[1]، ولعلَّ ذلك (أنَّه لـمَّا جاء الإمام الجواد عليه السلام إلىٰ بغداد، كان الشيعة يعانون الفاقة والضنك، ولذا فرض الإمام عليه السلام الخمس تلك السنة لحلِّ هذه المشكلة الخاصَّة)[2].

وهذا وإن أمكن حمله علىٰ عنوان الحكم الثانوي، ولكنَّه علىٰ أيِّ حالٍ تشريع واضح.

٣ - عن عليٍّ بن يقطين، قال: سألت أبا الحسن عليه السلام... عن تبعيض السورة، فقال: «أكره، ولا بأس به في النافلة»[3].

٤ - عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لا بأس بأن يحتجم الصائم إلَّا في رمضان، فإنّي أكره أن يُغرِّر بنفسه إلَّا أن لا يخاف علىٰ نفسه، وإنّا إذا أردنا الحجامة في رمضان احتجمنا ليلاً»[4].

٥ - عن عبد الله بن هلال، قال: سُئِلَ أبو عبد الله عليه السلام عن الثوب يكون مصبوغاً بالعصفر[5] ثمّ يُغسَل، ألبسه وأنا محرم؟ قال: «نعم، ليس العصفر من الطيب، ولكن أكره أن تلبس ما يشهرك بين الناس»[6].

---

(١) تهذيب الأحكام للطوسي ٤: ١٤١/ ح (٣٩٨/ ٢٠).

(٢) انظر: نفحات القرآن للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ١٠: ٨٣.

(٣) تهذيب الأحكام للطوسي ٢: ٢٩٦/ ح (١١٩٢/ ٤٨).

(٤) تهذيب الأحكام للطوسي ٤: ٢٦٠/ ح (٧٧٦/ ١٤).

(٥) هو صبغ أصفر اللون. (من المصدر).

(٦) الكافي للكليني ٤: ٣٤٢/ باب ما يلبس المحرم من الثياب وما يُكرَه له لباسه/ ح ١٧.

٦ - عن سماعة بن مهران، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال في الرجل يجرُّ ثوبه، قال: «إنّي لأكره أن يتشبَّه بالنساء»[١].

٧ - عن الإمام عليٍّ عليه السلام، قال: «نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يُسلَّم علىٰ أربعة: علىٰ السكران في سكره، وعلىٰ من يعمل التماثيل، وعلىٰ من يلعب بالنرد، وعلىٰ من يلعب بالأربعة عشر، وأنا أزيدكم الخامسة: أنهاكم أن تُسلِّموا علىٰ أصحاب الشطرنج»[٢].

سنن عبد المطَّلب عليه السلام:

وأمَّا ما يُنقَل من سنن عبد المطَّلب جدِّ النبيِّ صلى الله عليه وآله ممَّا أقرَّه القرآن، فبيانه بالتالي:

كان عبد المطَّلب يأمر بصلة الأرحام وإطعام الطعام، وترك الظلم والبغي، ويقول: إنَّه لن يخرج من هذه الدنيا ظلوم حتَّىٰ يُنتَقم منه، ويقول: والله إنَّ وراء هذه الدار دار جزاء الأعمال.

وسنَّ عبد المطَّلب الوفاء بالنذر، وقطع يد السارق، ومنع من نكاح المحارم، ونهىٰ عن قتل الموءودة، وحرَّم الخمر والزنىٰ وألَّا يطوف بالبيت عريان. وجاء كلُّ ذلك في شريعة خاتم الأنبياء، واستجاب الله دعاءه في طلب المطر لأهل مكَّة، وكان يتعبَّد بغار حراء في شهر رمضان، وأوصىٰ قريشاً عامَّة برسول الله، وأوصىٰ به (أبا طالب) خاصَّة[٣].

وروي عن النبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله أنَّ عبد المطَّلب سنَّ في الجاهلية خمس سنن أجراها الله تعالىٰ له في الإسلام:

---

(١) الكافي للكليني ٦: ٤٥٨/ باب تشمير الثياب/ ح ١٢.

(٢) الخصال للصدوق: ٢٣٧/ ح ٨٠.

(٣) راجع: عقائد الإسلام للسيِّد مرتضىٰ العسكري ٢: ٢٤٦/ في ترجمة عبد المطَّلب عليه السلام.

١ - حرَّم زوجات الآباء علىٰ الأبناء، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ﴾ (النساء: ٢٢).

٢ - وجد كنزاً فأخرج منه الخمس وتصدَّق به، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ ...﴾ (الأنفال: ٤١).

٣ - لـمَّا حفر بئر زمزم جعلها لسقاية الحاجِّ، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ (التوبة: ١٩).

٤ - سنَّ في القتل مائة من الإبل، فأجرىٰ الله تعالىٰ ذلك في الإسلام.

٥ - إنَّه لم يكن للطواف عدد عند قريش، فسنَّ فيهم عبد المطَّلب سبعة أشواط، فأجرىٰ الله تعالىٰ ذلك في الإسلام.

وكان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذُبِحَ علىٰ النصب، ويقول: أنا علىٰ دين أبي إبراهيم[1].

الأمر الثاني: مصادر التشريع الإسلامي[2]:

كلُّ تشريع يحتاج إلىٰ مصادر يستقي منها موادَّه وفقراته، والتشريع الإسلامي له مصادره الخاصَّة التي لا يمكن تجاوزها إلىٰ غيرها، وتلك المصادر مترابطة فيما بينها ترابطاً وثيقاً جدّاً، لتكوِّن مجموعاً واحداً تمخض عن التشريع الإسلامي الأكمل، والذي سنعرف بعض سماته فيما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) راجع: الخصال للصدوق: ٣١٢ و٣١٣/ ح ٩٠.

(٢) الكلام هنا حول مصادر التشريع لدىٰ أتباع أهل البيت عليهم السلام.

ومصادر التشريع هي:

١ - القرآن الكريم:

ففيه كلُّ ما يحتاجه الناس إلىٰ يوم القيامة، وهذا هو مقتضىٰ كونه الكتاب السماوي لآخر الأديان وخاتمها.

وللقرآن الكريم سمات متعلِّقة بالتشريع، أهمُّها شموليته ومرونته، أي قابليته للاستمرار والانطباق علىٰ الموارد المختلفة، فعن الشمولية يقول تعالىٰ: ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ **ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ** ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الأنعام: ٣٨).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلَّا وله أصل في كتاب الله عزَّ وجلَّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»[١].

ولذا يمكن أن تستخرج من القرآن الكريم كلَّ ما تحتاجه من قوانين تخصُّ الفرد والمجتمع والأُمَّة والبشرية جمعاء، لكن هذا يحتاج إلىٰ متخصِّص في القرآن، ولذا ورد المنع من تفسير القرآن بالرأي، بمعنىٰ التفسير من دون الاعتماد علىٰ الأُصول الصحيحة للتفسير المتمثِّلة بالرجوع إلىٰ المتخصِّص به، وليِّ عنق الآيات حسب المشتهيات والاستحسانات، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله جلَّ جلاله: ما آمن بي من فسَّر برأيه كلامي، وما عرفني من شبَّهني بخلقي، وما علىٰ ديني من استعمل القياس في ديني»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله: «أكثر ما أتخوَّف علىٰ أُمَّتي من بعدي رجل يتأوَّل

---

(١) الكافي للكليني ١: ٦٠/ باب الردِّ إلىٰ الكتاب والسُّنَّة.../ ح ٦.

(٢) أمالي الصدوق: ٥٥ و٥٦/ ح (١٠/ ٣).

القرآن يضعه علىٰ غير مواضعه، ورجل يرىٰ أنَّه أحقّ بهذا الأمر من غيره»[١].

وعن مرونته يقول الصادق عليه السلام لـمَّا سُئِلَ: ما بال القرآن لا يزداد علىٰ النشر والدراسة[٢] إلَّا غضاضةً؟ فقال عليه السلام: «لأنَّ الله لم يُنزله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كلِّ زمان جديد، وعند كلِّ قوم غضٌّ إلىٰ يوم القيامة»[٣].

وستتَّضح هاتان السمتان أكثر في الأمر الثالث إن شاء الله تعالىٰ.

٢ - سُنَّة النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله:

المتمثِّلة بأقواله وأفعاله وتقريراته صلى الله عليه وآله، فإذا قال النبيُّ صلى الله عليه وآله قولاً فيه تشريع، فيجب علىٰ جميع المسلمين امتثال أمره، لأنَّه صلى الله عليه وآله ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ ۝﴾ (النجم: ٣ و٤).

وإذا فعل النبيُّ الأكرم صلى الله عليه وآله فعلاً، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذا الفعل جائز وليس بمحرَّم، لأنَّ النبيَّ الأكرم صلى الله عليه وآله معصوم في جميع أحواله، فلا يُعقَل أنَّه يفعل فعلاً مخالفاً للقانون الإلهي.

وهكذا تقرير النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فإذا فعل أحدهم فعلاً أمام النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله أو أجاب عن مسألة شرعية، ولم يعترض عليه النبيُّ صلى الله عليه وآله، فهذا يدلُّ علىٰ قبول النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله بفعل ذلك الشخص وقوله، وبالتالي يدلُّ علىٰ شرعية الفعل والقول المذكورين بحضرته صلى الله عليه وآله، وإلَّا لبيَّن النبيُّ صلى الله عليه وآله موضع الخطأ في الفعل أو القول، لأنَّه صلى الله عليه وآله

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٢: ٢٤٢ و٢٤٣.

(٢) أي بالرغم من أنَّه يُنشَر ويُدرَس كثيراً.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ٢: ٩٣/ ح ٣٢.

مكلَّف بالبيان المطابق للواقع، ولو ترك الخطأ من دون بيان لأوقع الناس في مخالفة الشارع.

والدليل علىٰ لزوم المتابعة التامَّة المطلقة للنبيِّ الأكرم ﷺ كثير من الآيات والروايات، يقول تعالىٰ: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ ۝٧﴾ (الحشر: ٧).

ويقول تعالىٰ: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣ و٤).

ومن السُّنَّة النبويَّة أحاديثُ أهل البيت عليهم السلام، لما سنعرف بعد قليل من رجوعها إلىٰ سُنَّة النبيِّ الأكرم ﷺ.

٣ - الإجماع:

بمعنىٰ أنَّنا قد لا نجد دليلاً ما علىٰ حكم شرعي، ولكنَّنا عندما نبحث في أقوال علمائنا نجدهم أطبقوا علىٰ فتوىٰ معيَّنة، وإطباقهم وإجماعهم عليها يكشف لنا عن أنَّهم ربَّما استندوا إلىٰ دليل شرعي تامٍّ، ولكن ذلك الدليل لم يصل إلينا لسبب وآخر، فيمكن حينذاك الاعتماد علىٰ الإجماع في إصدار حكم شرعي، لكن مع الالتفات إلىٰ ما سنذكره بعد قليل عن علاقة الإجماع بالسُّنَّة النبويَّة.

٤ - العقل:

فللعقل قدرة علىٰ اكتشاف بعض الأحكام التي تكون موضوعاً لحكم شرعي، فمثلاً إذا كان واجبٌ ما لا يتحقَّق إلَّا إذا تحقَّقت مقدّمته، فحتَّىٰ لو لم يحكم الشرع بوجوب مقدّماته، فيمكن للعقل أن يحكم بوجوبها، لتوقُّف الواجب المأمور به عليها.

العلاقة بين هذه المصادر:

في الحقيقة إنَّ الأصل في كلِّ تلك المصادر هو القرآن الكريم، ولكن المعتمد الأكثر في أخذ الأحكام هو السُّنَّة النبويَّة.

أمَّا الإجماع، فيُشتَرط فيه أن يكون كاشفاً عن قول المعصوم، فيرجع بالتالي إلىٰ السُّنَّة، وليس **للعقل** أحكام إلَّا في موارد قليلة نسبياً.

أمَّا أنَّ الأصل في أخذ الأحكام هو القرآن الكريم، فهو من الوضوح بمكان، إذ إنَّ المشرِّع هو الله تعالىٰ، وقد نقل إلينا تشريعاته أوَّلاً وبالذات بواسطة القرآن الكريم.

ولكن - وكما قلنا قبل قليل - علينا أن نلتفت إلىٰ أنَّ القرآن الكريم لا يمكن لأيِّ أحد أن يستخرج منه الأحكام وبقيَّة ما يحتاجه، وهو ما عبَّر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله المتقدِّم قبل قليل: «ولكن لا تبلغه عقول الرجال».

وإنَّما ذلك موكول إلىٰ المتخصِّصين بالقرآن الكريم، والمتخصِّصون هم النبيُّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرون عليهم السلام، يقول تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ **وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ ۝٧﴾ (آل عمران: ٧).

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله»[١].

وعن بريد بن معاوية، عن أحد الباقرين عليهما السلام في قوله الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾: «فرسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في

---

(١) الكافي للكليني ١: ٢١٣/ باب أنَّ الراسخين في العلم هم الأئمَّة عليهم السلام/ ح ١.

العلم، قد علَّمه الله ﷻ جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله ليُنزل عليه شيئاً لم يُعلِّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلَّه، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلم، فأجابهم الله بقوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾، والقرآن خاصٌّ وعامٌّ، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه»[١].

ومن هنا كانت أحاديث النبيِّ الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام هي الأساس في التشريع، بمعنىٰ أنَّها الأساس في تفصيل مجملات القرآن الكريم وتوضيح التشريعات التي لم تُذكر بالصراحة فيه.

والذي يدلُّك علىٰ أنَّ القرآن الكريم هو الأساس في تلك الأحاديث هو ما ورد من أنَّه إذا أردت أن تعرف الحديث الصادق من الكاذب فما عليك إلَّا أن تعرضه علىٰ القرآن الكريم، فما وافقه فهو صحيح، وإلَّا فاضرب به عرض الحائط.

فقد قال النبيُّ الأكرم ﷺ في حجَّة الوداع: «قد كثرت عليَّ الكذّابة وستكثر بعدي، فمن كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث عنّي فاعرضوه علىٰ كتاب الله وسُنَّتي، فما وافق كتاب الله وسُنَّتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسُنَّتي فلا تأخذوا به»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «خطب النبيُّ ﷺ بمنىٰ فقال: أيُّها الناس، ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»[٣].

---

(١) الكافي للكليني ١: ٢١٣/ باب أنَّ الراسخين في العلم هم الأئمَّة عليهم السلام/ ح ٢.

(٢) الاحتجاج للطبرسي ٢: ٢٤٦.

(٣) الكافي للكليني ١: ٦٩/ باب الأخذ بالسُّنَّة وشواهد الكتاب/ ح ٥.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كلُّ شيء مردود إلىٰ الكتاب والسُّنَّة، وكلُّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»[١].

ولذا نجد أنَّ الإمام الجواد عليه السلام قد أبطل الكثير من الأحاديث التي عرضها عليه يحيىٰ بن أكثم، وذلك بإرجاعها إلىٰ كتاب الله تعالىٰ والكشف عن مخالفتها له[٢].

---

(١) الكافي للكليني ١: ٦٩/ باب الأخذ بالسُّنَّة وشواهد الكتاب/ ح ٣.

(٢) روىٰ الطبرسي رحمه الله في الاحتجاج (ج ٢/ ص ٢٤٥ - ٢٤٩)، قال: روي أنَّ المأمون بعدما زوَّج ابنته أُمَّ الفضل أبا جعفر، كان في مجلس وعنده أبو جعفر عليه السلام ويحيىٰ بن أكثم وجماعة كثيرة. فقال له يحيىٰ بن أكثم: ما تقول يا بن رسول الله في الخبر الذي روي أنَّه نزل جبرئيل عليه السلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا محمّد، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرؤك السلام ويقول لك: سَلْ أبا بكر هل هو عنّي راضٍ فإنّي عنه راضٍ؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «لست بمنكر فضل أبي بكر، ولكن يجب علىٰ صاحب هذا الخبر أن يأخذ مثال الخبر الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجَّة الوداع: قد كثرت عليَّ الكذابة وستكثر بعدي، فمن كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث عنّي فاعرضوه علىٰ كتاب الله وسُنَّتي، فما وافق كتاب الله وسُنَّتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسُنَّتي فلا تأخذوا به. وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، فالله عزَّ وجلَّ خفي عليه رضاء أبي بكر من سخطه حتَّىٰ سأل عن مكنون سرِّه؟ هذا مستحيل في العقول.

ثمّ قال يحيىٰ بن أكثم: وقد روي أنَّ مثل أبي بكر وعمر في الأرض كمثل جبرئيل وميكائيل في السماء. فقال [عليه السلام]: «وهذا أيضاً يجب أن يُنظَر فيه، لأنَّ جبرئيل وميكائيل ملكان لله مقرَّبان لم يعصيا الله قطُّ، ولم يفارقا طاعته لحظة واحدة، وهما قد أشركا بالله عزَّ وجلَّ وإن أسلما بعد الشرك. فكان أكثر أيّامهما الشرك بالله، فمحال أن يُشبِّههما بهما».

قال يحيىٰ: وقد روي أيضاً أنَّهما سيِّدا كهول أهل الجنَّة، فما تقول فيه؟ فقال عليه السلام: «وهذا الخبر محال أيضاً، لأنَّ أهل الجنَّة كلّهم يكونون شباباً ولا يكون فيهم كهل، وهذا الخبر وضعه بنو أُميَّة لمضادَّة الخبر الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحسن والحسين عليهما السلام بأنَّهما سيِّدا شباب أهل الجنَّة».

⇦

وقد تسأل عن موقع أحاديث أهل البيت عليهم السلام من مصادر التشريع الإسلامي؟

والجواب: أنَّ أحاديثهم عليهم السلام هي بمستوىٰ أحاديث النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله، لأنَّهم إنَّما يستقون أحاديثهم منه صلى الله عليه وآله، وهذا ما أكَّدته الروايات الشريفة، فقد روىٰ جابر، قال: قلت لأبي جعفر محمّد بن عليٍّ

⇦ فقال يحيىٰ بن أكثم: وروي أنَّ عمر بن الخطّاب سراج أهل الجنَّة. فقال عليه السلام: «وهذا أيضاً محال، لأنَّ في الجنَّة ملائكة الله المقرَّبين، وآدم ومحمّد، وجميع الأنبياء والمرسلين، لا تضيء الجنَّة بأنوارهم حتَّىٰ تضيء بنور عمر؟».

فقال يحيىٰ: وقد روي أنَّ السكينة تنطق علىٰ لسان عمر. فقال عليه السلام: «لست بمنكر فضل عمر، ولكن أبا بكر أفضل من عمر فقال - علىٰ رأس المنبر -: إنَّ لي شيطاناً يعتريني، فإذا ملت فسدِّدوني».

فقال يحيىٰ: قد روي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال: لو لم أُبعث لبُعِثَ عمر. فقال عليه السلام: «كتاب الله أصدق من هذا الحديث، يقول الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧]، فقد أخذ الله ميثاق النبيِّين، فكيف يمكن أن يُبدِّل ميثاقه؟ وكلُّ الأنبياء عليهم السلام لم يُشركوا بالله طرفة عين، فكيف يُبعَث بالنبوَّة من أشرك وكان أكثر أيّامه مع الشرك بالله؟ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نُبئت وآدم بين الروح والجسد».

فقال يحيىٰ بن أكثم: وقد روي أيضاً أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال: ما احتبس عنّي الوحي قطُّ إلَّا ظننته قد نزل علىٰ آل الخطّاب. فقال عليه السلام: «وهذا محال أيضاً، لأنَّه لا يجوز أن يشكَّ النبيُّ صلى الله عليه وآله في نبوَّته، قال الله تعالىٰ: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحجّ: ٧٥]، فكيف يمكن أن ينتقل النبوَّة ممَّن اصطفاه الله تعالىٰ إلىٰ من أشرك به؟».

قال يحيىٰ: روي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال: لو نزل العذاب لما نجىٰ منه إلَّا عمر. فقال عليه السلام: «وهذا محال أيضاً، لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]، فأخبر سبحانه أنَّه لا يُعذِّب أحداً ما دام فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وما داموا يستغفرون».

الباقر عليه السلام: إذا حدَّثتني بحديث فأسنده لي، فقال: «حدَّثني أبي، عن جدّي، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، عن جبرئيل عليه السلام، عن الله عزّ وجلّ، وكلُّ ما أُحدِّثك بهذا الإسناد»، وقال: «يا جابر، لحديث واحد تأخذه عن صادق خير لك من الدنيا وما فيها»[١].

ورویٰ حفص بن البختري، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: نسمع الحديث منك، فلا أدري منك سماعه أم من أبيك؟ فقال: «ما سمعته منّي فاروه عن أبي، وما سمعته منّي فاروه عن رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

ومن هنا كانت واحدة من طرق معرفة صحَّة أحاديث أهل البيت عليهم السلام هي نفس الطريقة التي نكشف بها صحَّة أحاديث النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وهي طريقة العرض علىٰ القرآن الكريم.

عن عبد الله بن يعفور...، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومن لا نثق به، قال: «إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلَّا فالذي جاءكم به أولىٰ به»[٣].

الاجتهاد وموقعه من مصادر التشريع:

قد يسأل البعض عن الاجتهاد عند الشيعة وعن موقعه من مصادر التشريع الإسلامي، وما إذا كان يُمثِّل أحد مصادر التشريع عند الشيعة، وإذا كان كذلك فلماذا نجدهم يحملون علىٰ أهل السُّنَّة لأنَّهم (يجتهدون) في مقام التشريع!

---

(١) أمالي المفيد: ٤٢/ ح ١٠.

(٢) وسائل الشيعة للحرِّ العاملي ٢٧: ١٠٤/ ح (٣٣٣٣١/ ٨٦).

(٣) الكافي للكليني ١: ٦٩/ باب الأخذ بالسُّنَّة وشواهد الكتاب/ ح ٢.

وهو سؤال مهمٌّ، ولا بدَّ من بيانه بكلِّ صراحة ووضوح، فنقول:

إنَّ اصطلاح الاجتهاد يُطلَق علىٰ معنيين:

المعنىٰ الأوَّل: الاجتهاد مقابل النصِّ، أو الاجتهاد بالرأي، وهذا هو الذي يرفضه الشيعة، إذ معناه أنَّ الفقيه إذا لم يجد نصّاً علىٰ الحكم الشرعي، فإنَّه يُعمِل فكرَه ورأيَه، فيحكم حسب ما يراه هو ويستحسنه، بل قد يحكم علىٰ خلاف ما ثبت شرعاً، لأنَّ رأيه يرىٰ ذلك! ممَّا يعني سلب الحجّية عن أحاديث النبيِّ ﷺ ولو بطريق غير مباشر.

وقد أُطلق علىٰ أتباع هذا الاجتهاد بأتباع مدرسة الرأي في قبال أتباع أهل البيت عليهم السلام الذين يرون وجوب اتِّباع النصِّ والتعبُّد المطلق به وعدم جواز مخالفته، كالنصِّ علىٰ خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وجواز الزواج المنقطع، وعمرة التمتُّع، وعدم تحريف القرآن، وغيرها من المسائل.

والحقيقة أنَّنا نجد النزعة لسلب الحجّية من أحاديث النبيِّ الأكرم ﷺ، وبالتالي عدم لزوم اتِّباعها قد ظهرت بوادرها في حياته ﷺ، فقد روي عن عبد الله بن عمرو، قال: كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أُريد حفظه، **فنهتني قريش عن ذلك**، وقالوا: تكتب ورسول الله ﷺ يقول في الغضب والرضا! فأمسكتُّ، حتَّىٰ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب فوَالذي نفسي بيده ما خرج منه إلَّا حقٌّ»[1].

وفي صلح الحديبية، اعترض عمر علىٰ تخطيط النبيِّ الأكرم ﷺ

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٩٢.

للصلح مع قريش، وظهر منه التشكيك في ما فعله النبيُّ ﷺ من الصلح مع قريش[١].

وفي حجَّة الوداع يعترض رجل علىٰ تشريع النبيِّ ﷺ حجَّ التمتُّع، الذي يعني تقديم عمرته والإحلال بعدها حتَّىٰ من النساء[٢]!

وصدقت نبوءة النبيِّ ﷺ، حيث إنَّ عمر لـمَّا تولّىٰ السلطة حرَّم متعة الحجِّ ومتعة النساء، رغم تصريحه هو بأنَّ رسول الله ﷺ جوَّزهما، وكان المسلمون يفعلونهما في زمنه ﷺ[٣].

وهكذا الكلمة التي قيلت في حضرة النبيِّ الأكرم ﷺ في مرضه الذي توفّي فيه، عندما طلب من المسلمين أن يأتوه بدواة وكتف ليكتب

---

(١) عن عمر بن الخطّاب أنَّه قال: أتيت نبيَّ الله ﷺ فقلت: ألست نبيَّ الله حقّاً!؟ قال: «بلىٰ»، قلت: ألسنا علىٰ الحقِّ، وعدوّنا علىٰ الباطل؟ قال: «بلىٰ»، قلت: فلِمَ نُعطي الدنيَّة في ديننا!؟ إذ قال: «إنّي رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أوَليس كنت تُحدِّثنا إنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلىٰ، فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟»، قال: قلت: لا، قال: «فإنَّك آتيه ومطوف به»، قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيَّ الله حقّاً؟ قال: بلىٰ، قلت: ألسنا علىٰ الحقِّ، وعدوّنا علىٰ الباطل؟ قال: بلىٰ، قلت: فلِمَ نُعطي الدنيَّة في ديننا؟... (راجع: صحيح البخاري ٣: ١٨٢).

(٢) قال له رجل من القوم: لنخرجنَّ حجّاجاً ورؤوسنا وشعورنا تقطر؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أمَا إنَّك لن تؤمن بهذا أبداً...». (الكافي للكليني ٤: ٢٤٦/ باب حجِّ النبيِّ ﷺ/ ح ٤). قال في هامش المصدر: (القائل في بعض الروايات عمر، وأراد بقوله: رؤوسنا تقطر، أي من ماء غسل الجنابة).

(٣) قال حمّاد: عن أيّوب السختياني، ثمّ اتَّفق أيّوب وخالد كلاهما عن أبي قلابة، قال: قال عمر بن الخطّاب: (متعتان كانتا علىٰ عهد رسول الله ﷺ، وأنا أنهىٰ عنهما، وأضرب عليهما)، هذا لفظ أيّوب. وفي رواية خالد: (أنا أنهىٰ عنهما وأُعاقب عليهما، متعة النساء، ومتعة الحجِّ). (المحلّىٰ لابن حزم ٧: ١٠٧).

لهم كتاباً لن يضلّوا بعده أبداً، فقال قائلهم: (إنَّ الرجل ليهجر)[١]، أو (حسبنا كتاب الله)[٢]، قاصدين بذلك عدم الحاجة لأحاديث النبيِّ الأكرم ﷺ.

والحقيقة أنَّ استقصاء الاجتهادات المخالفة للنصوص أمر يطول، وفي ما ذكرنا كفاية.

ويكفي في الردِّ عليه ما روي عن يونس، عن حمّاد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ما خلق الله حلالاً ولا حراماً إلَّا وله حدٌّ كحدِّ الدور، وإنَّ حلال محمّد حلال إلىٰ يوم القيامة، وحرامه حرام إلىٰ يوم القيامة...»[٣].

---

(١) عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: اشتكىٰ النبيُّ ﷺ يوم الخميس، فجعل - يعني ابن عبّاس - يبكي ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتدَّ بالنبيِّ ﷺ وجعه، فقال: «ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً»، قال: فقال بعض من كان عنده: إنَّ نبيَّ الله ليهجر! قال: فقيل له: ألَا نأتيك بما طلبت؟ قال: «أوَبعد ما قال!؟ - أو بعد ماذا؟ - فلم يدع به... (الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٢: ٢٤٢).

أقول: لاحظ كيف أنَّهم لا يُصرِّحون بالقائل لتلك الكلمة رغم وضوح أنَّه عمر، وما ذاك إلَّا لأنَّهم يريدون الحفاظ علىٰ قداسته عندهم وإن كانت من نوع المكابرة، ولو علىٰ حساب إخفاء الحقيقة.

(٢) عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: لـمَّا حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطّاب، قال النبيُّ ﷺ: «هلمَّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده»، فقال عمر: إنَّ النبيَّ ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم النبيُّ ﷺ كتاباً لن تضلّوا بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر. فلـمَّا أكثروا اللغو والاختلاف عند النبيِّ ﷺ قال رسول الله ﷺ: «قوموا». قال عبيد الله: وكان ابن عبّاس يقول: إنَّ الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم. (صحيح البخاري ٧: ٩).

(٣) بصائر الدرجات للصفّار: ١٦٨/ الجزء ٣/ باب ١٣/ ح ٧.

فـما بيَّنـه الرسـول ﷺ حجَّـة مطلقـاً وإلىٰ يـوم القيامـة، ولا يُسـمَع كلام بعض الهمج ممَّن يحاول سلب الحجّية عن أقواله ﷺ.

المعنىٰ الثاني: الاجتهاد وبذل الجهد في استخراج الحكم الشرعي من مصادره الشرعية الأصيلة - القرآن والسُّنَّة -، وهذا المعنىٰ هو الذي يقصده الشيعة، ويجعلونه واجباً كفائياً، وليس هو مصدراً للتشريع في عرض المصادر الأُخرىٰ، وإنَّما هو عملية استخراج للحكم من نفس النصِّ، فهو ابن للنصِّ ولا يعارضه أبداً.

والشيعة في ذلك يستندون إلىٰ أدلَّة خاصَّة، مثل ما روي عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنَّما علينا أن نُلقي إليكم الأُصول، وعليكم أن تُفرِّعوا»[1].

وللمجتهد شروط لا يمكن حصولها إلَّا بعد بذل جهد مضني ووقت طويل، والتزام بالورع والتقوىٰ، ومعايشة القرآن الكريم وأحاديث السُّنَّة الشريفة لسنوات طوال، وفوقه التوفيق الإلهي.

الأمر الثالث: سمات التشريع الإسلامي:

السمة الأُولىٰ: الشمولية:

هناك قاعدة تُذكر في علم الأُصول، وهي أنَّه ما من واقعة إلَّا ولها حكم، فليس هناك من فعل أو قول أو عمل إلَّا وللإسلام فيه حكم، لأنَّ الله تعالىٰ العالم الحكيم، شاء أن لا يترك عباده في حيرة من واقعة ما، فشرَّع لهم تشريعاً كاملاً من جميع الجوانب، وعلىٰ جميع المستويات التي تحتاجها البشرية وتمارسها في حياتها اليومية.

ولذلك يمكن للباحث اقتناص كلِّ أنواع العلوم بأُصولها العامَّة

---

(١) مستطرفات السرائر لابن إدريس: ٥٧٥.

من أُصول التشريعات الإسلاميَّة - من القرآن والسُّنَّة -، فالعقائد والسياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم والاجتماع والعلوم العسكرية وأساليب الحروب والأخلاق وغيرها كثير، كلُّها يمكنك أن تجدها في تشريعات الإسلام.

واليوم هناك توجُّه من قِبَل المسلمين علىٰ إيجاد إشارات علمية في القرآن الكريم لم تُكتَشف إلَّا في القرون المتأخِّرة، وقد كُتِبَت في ذلك الكثير من المقالات والأبحاث التي نُشِرَت في الكتب وشبكة الإنترنت وغيرها[1].

ثمّ سمح الإسلام لمن لا يستطيع الوصول إلىٰ الحكم الواقعي - طبعاً هذا في زمن غياب الشارع المقدَّس بغياب خليفته الشرعي وعدم ظهوره -، سمح له بالاكتفاء بالحكم الظاهري، بشرط الاعتماد علىٰ أُصولٍ أسَّسها الشارع نفسه، كالاستصحاب والبراءة والاحتياط وقواعد (كلُّ شيء لك حلال حتَّىٰ تعلم أنَّه حرام بعينه)[2]، و(كلُّ شيء لك طاهر حتَّىٰ تعلم أنَّه نجس بعينه)[3]، وغيرها من القواعد المفصَّلة في محلِّها من كتب القواعد الأُصولية والفقهية.

---

(١) جمع كثيراً منها الدكتور لبيب بيضون في كتابه (الموسوعة العلمية القرآنية)، ويقع في خمسة أجزاء.

(٢) عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: «كلُّ شيء هو لك حلال حتَّىٰ تعلم أنَّه حرام بعينه فتدعه من قِبَل نفسك، وذلك مثل الثوب يكون قد اشتريته وهو سرقة أو المملوك عندك ولعلَّه حرٌّ قد باع نفسه أو خُدِعَ فبيع أو قُهِرَ أو امرأة تحتك وهي أُختك أو رضيعتك، والأشياء كلُّها علىٰ هذا حتَّىٰ يستبين لك غير ذلك أو تقوم به البيِّنة». (الكافي للكليني ٥: ٣١٣ و٣١٤/ باب النوادر/ ح ٤٠).

(٣) عن عمَّار الساباطي، عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال له: «... كلُّ شيء نظيف حتَّىٰ تعلم أنَّه قذر، فإذا علمت فقد قَذُرَ، وما لم تعلم فليس عليك». (تهذيب الأحكام للطوسي ١: ٢٨٥/ ح (٨٣٢/ ١١٩).

وبـذلك مـلأ التشـريع الإسـلامي الفـراغ في كثـير مـن الحـالات الجزئية التي لا يمكن أن نجد لها نصّاً أو رواية خاصَّة بها.

السمة الثانية: المرونة وقابلية الانطباق المتعدِّد:

إنَّ التشـريع الإسـلامي في أغلـب مفرداتـه عبـارة عـن قواعـد عامَّـة، وتلـك القواعـد لهـا قابليـة الانطبـاق عـلىٰ الكثـير مـن المـوارد، وهـذا يُغطّـي أوسع مساحة ممكنـة مـن الوقـائع التـي تواجـه الإنسـان، ولـذا تجـد الفقهـاء يعطونـك القواعـد العامَّـة التـي اسـتنبطوها مـن كلـمات أهـل البيـت عليهم السلام لتطبقها أنت علىٰ الجزئيات بسـهولة، فمـثلاً الفقـه الشـيعي يقـول لـك: (كـلُّ شيء لك طاهر حتَّىٰ تعلـم أنَّـه نجس بعينـه)، فهـذه قاعـدة فقهيـة تسـتطيع أن تُطبِّقهـا عـلىٰ كـلِّ شيء تشـكُّ في طهارتـه، ولم يكـن عنـدك علـم بنجاسـته يقينـاً، أن تحكـم عليـه بالطهـارة، وتسـتعمله بكـلِّ مـا يُشـتَرط فيـه الطهـارة. وعليـه فلـو رأيـت كلبـاً قريبـاً مـن المـاء وشـككت في أنَّـه هـل شرب منـه فتنجَّس أو لم يشـرب فبقي طـاهراً، فحيـث إنَّـه لا يوجـد عنـدك علـم يقينـي بالنجاسـة، فإنَّـك تسـتطيع أن تحكـم عليـه بالطهـارة وتسـتعمله في الشـرب أو الوضوء.

ومـن هـذا البـاب النصـوص التـي جـاءت لتعـالج قضـيَّة شخصـية، ولكنَّها في نفس الوقت تُعطي قاعدة عامَّـة لهـا قابليـة الانطبـاق عـلىٰ كـلِّ مـن يتَّصف بالحالات التي صدر لأجلها النصُّ.

فمثلاً يقـول تعـالىٰ: ﴿يـا أَيـُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُـوا مَـنْ يَرْتَـدَّ مِـنْكُمْ عَـنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَـأْتِي اللهُ بِقَـوْمٍ يُحِـبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّـةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللهِ وَلا يَخـافُونَ لَوْمَـةَ لائِـمٍ ذلِـكَ فَضْـلُ اللهِ يُؤْتِيـهِ مَـنْ يَشـاءُ وَاللهُ واسِـعٌ عَلِـيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (المائـدة: ٥٤)، قـد نزلـت هـذه

الآية في إحدىٰ معارك النبيِّ الأكرم ﷺ، وكان المقصود فيها هو أمير المؤمنين عليه السلام، ولكن الروايات تُعطيها معنىٰ انطباق أوسع، لتشمل كلَّ من تنطبق عليهم تلك الصفات المذكورة فيها، ولذا فسَّرها الإمام الصادق عليه السلام بالمهدي وأصحابه[1].

إنَّ مرونة التشريع الإسلامي وقابليته للانطباق الواسع هو ما عبَّر عنه الإمام الصادق عليه السلام في حديث يُروىٰ عنه، حيث سُئِلَ: ما بال القرآن لا يزداد علىٰ النشر والدراسة[2] إلَّا غضاضةً؟ فقال عليه السلام: «لأنَّ الله لم يُنزله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كلِّ زمان جديد، وعند كلِّ قوم غضٌّ إلىٰ يوم القيامة»[3].

السمة الثالثة: الثابت والمتغيّر في التشريع الإسلامي:

هناك من التشريعات ما لا يمكن التنازل عنه ولا التضحية به ولا المساومة عليه، إنَّها تُمثِّل عنصراً ثابتاً في التشريع، كوجوب الواجبات وحرمة المحرَّمات، فالصلاة واجبة علىٰ كلِّ حالٍ، والقتل حرام علىٰ كلِّ حالٍ...، هكذا بقيَّة الواجبات والمحرَّمات.

---

(١) عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قال: «عليٌّ وشيعته». (تفسير فرات الكوفي: ١٢٣/ ح ١٣٣/ ٢٢).

وعن سليمان بن هارون البجلي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ صاحب هذا الأمر محفوظة له أصحابه لو ذهب الناس جميعاً أتىٰ الله له بأصحابه، وهم الذين قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾». (الغيبة للنعماني: ٣٣٠/ باب ٢٠/ ح ١٢).

(٢) أي بالرغم من أنَّه يُنشَر ويُدرَس كثيراً.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ٢: ٩٣/ ح ٣٢.

ولكـن هنـاك مسـاحات تركهـا الشـارع ليملأهـا العـارف بالـدين حسـب مقتضـيات الحيـاة ومتطلِّبـات المرحلـة، فقـد يوجـب أو يحـرم بعـض المباحات لعارض خاصٍّ.

وترك له مساحة أيضاً ليُحدِّد هو المصلحة من المفسدة، ومنـه مـا يُسـمّىٰ بالرجوع إلىٰ العرف، والمقصود منه الرجوع إلىٰ أصحاب الاختصاص في تحديد مواضيع الأحكـام الشـرعية، وهـذا يعنـي أنَّ الرجـوع إلىٰ العـرف لـيس فيـه تشـريع، وإنَّما العرف يُحدِّد لك موضوع الحكم الشرعي الثابت، فمثلاً المـريض يراجع الطبيب - وهو يُمثِّل عرفاً خاصّاً -، فإذا قـال لـه الطبيـب بـأنَّ الصـوم يضـرُّه، واطمأنَّ المريض بقوله، جاز له أن يفطر، لأنَّ الحكم الشـرعي يقول بأنَّ المريض يجوز له، بل قد يجب عليه الإفطار إذا كان الصوم يضـرُّه. فالثابـت هنـا هو وجوب الصوم، ولكن المتغيّر هو أنَّ هذا الوجـوب يمكـن للشـخص أن لا يمتثله لعارض المرض.

وطبعاً مـا ذكرنـاه هـو أوضـح مصـاديق الثابـت والمتغيّر في التشـريع الإسلامي، وإلَّا فله موارد أُخرىٰ نعرض عنها اختصاراً.

السمة الرابعة: الرحمة في التشريع:

ربَّما يتصوَّر البعض أنَّ التشـريع الإسـلامي صـعب وفيـه حـرج، لأنَّـه يفرض علىٰ الإنسان أن يلتزم بواجبات صعبة ويبتعد عن أُمور يصعب اجتنابها، ونرىٰ الكثير من المستشـرقين والعلمانيين وأتباعهم يُطبِّلون لهذا المعنـىٰ، ولكـن الحقيقة تأبىٰ هذا، وتُصـرِّح بأنَّ التشـريع الإسـلامي جـاء وفيـه مـن الليونـة والسهولة الشـيء الكثير، ويكفي لإثبات ذلك قوله تعـالىٰ: ﴿يُرِيـدُ اللهُ بِكُـمُ الْيُسْـرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْـرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وحتَّىٰ تتَّضح الصورة، نذكر التالي:

صور من سهولة التشريع:

١ - التدرُّج في إعطاء الأحكام، فتسهيلاً ورحمةً بالعباد نجد أنَّ الله تعالىٰ ربَّما تدرَّج في إعطاء حكم شرعي ما، كما في مسألة تحريم الخمر في صدر الإسلام، فأوَّلاً قال عنه عزَّ من قال: ﴿وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (النحل: ٦٧).

ثمّ قال تعالىٰ: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما ...﴾ (البقرة: ٢١٩).

ثمّ قال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ ...﴾ (النساء: ٤٣).

ثمّ قال عزَّ من قائل جاهراً بالمنع المطلق: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (المائدة: ٩٠).

وقد وصل أخيراً تشريع حرمة الخمر إلىٰ ما روي عن زيد بن عليٍّ، عن آبائه عليهم السلام، قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وآله الخمر وعاصرها ومعتصرها وبايعها ومشتريها وساقيها وآكل ثمنها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه»[1].

ثمّ خُتِمَ تشريع ذلك بتحريم كلِّ ما يؤدّي إلىٰ عاقبة الخمر - أي حرمة كلِّ مسكر وإن لم يكن خمراً -، يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُحرِّم الخمر لاسمها، ولكنَّه حرَّمها لعاقبتها، فما كان عاقبته عاقبة الخمر فهو خمر»[2].

---

(١) الكافي للكليني ٦: ٣٩٨/ باب شارب الخمر/ ح ١٠.

(٢) الكافي للكليني ٦: ٤١٢/ باب أنَّ الخمر إنَّما حُرِّمت لفعلها.../ ح ٢.

إنَّ مسألة التدرُّج مفيدة في كثير من الموارد، ومنها ما يذكره علماء الأخلاق في مسألة الإقلاع عن الذنوب، حيث يُنصَح بأن يعمل الإنسان علىٰ اقتلاعها من أعماق نفسه بالتدريج، حتَّىٰ يسهل عليه مواجهتها واحداً تلو الآخر حتَّىٰ يقضي عليها جميعاً...، ونفس الكلام في مسألة التحلّي بالصفات الحسنة، حيث يُنصَح بأن يعمل المرء كلَّ يوم علىٰ التزام صفة محدَّدة، ثمّ ينتقل منها إلىٰ الأُخرىٰ، وهكذا.

٢ - ومن ليونة التشريع أنَّ الله تعالىٰ فرض تشريعاً وتكويناً علىٰ الذنب العقوبة، فكلُّ ذنب تتبعه عقوبة، وكان المفروض أن تكون العقوبة عاجلة، ولكن الرحمة الإلهيَّة هنا تمثَّلت ليس فقط في تأخير العقوبة، بل في عدَّة أُمور، نذكر منها التالي:

أ - جعل عالم الدنيا عالم عمل، وأمَّا الحساب فمؤجَّل إلىٰ يوم القيامة. نعم، في بعض الأحيان تستدعي الحكمة الإلهيَّة تعجيل بعض عقوبة بعض الذنوب، كما تقدَّم، كعقوق الوالدين والظلم ونكران الإحسان.

ب - إمهال المذنب بضع ساعات ليُعلِن توبته، وبذلك يُمحىٰ عنه ذنبه، روي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «يهمُّ العبد بالحسنة فيعملها، فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيَّته، وإن هو عملها كتب الله له عشراً. ويهمُّ بالسيِّئة أن يعملها، فإن لم يعملها لم يُكتَب عليه شيء، وإن عملها أُجِّل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيِّئات وهو صاحب الشمال: لا تعجل عسىٰ أن يتبعها بحسنة تمحوها، فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ [هود: ١١٤]، أو الاستغفار، فإن هو قال: أستغفر الله الذي لا إله إلَّا هو، عالم

الغيب والشهادة، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، ذو الجلال والإكرام وأتوب إليه، لم يُكتَب عليه شيء، وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة واستغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيِّئات: اكتب علىٰ الشقي المحروم»[١].

وعن رسول الله ﷺ: «صاحب اليمين أمير علىٰ صاحب الشمال، فإذا عمل العبد السيِّئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: لا تعجل وأنظره سبع ساعات، فإن مضىٰ سبع ساعات ولم يستغفر قال: اكتب، فما أقلّ حياء هذا العبد»[٢].

ولكن ينبغي الالتفات إلىٰ أنَّ خاصّية التأجيل خاصَّة بالعبد المؤمن لا كلّ عبد، فعن عبد الصمد بن بشير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجَّله الله سبع ساعات، فان استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كُتِبَت عليه سيِّئة. وإنَّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتَّىٰ يستغفر ربَّه فيغفر له، وإنَّ الكافر لينساه من ساعته»[٣].

وعن عبد الله بن سنان، عن حفص، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ما من مؤمن يذنب ذنباً إلَّا أجَّله الله عزَّ وجلَّ سبع ساعات من النهار، فإن هو تاب لم يكتب عليه شيء، وإن هو لم يفعل كتب [الله] عليه سيِّئة».

فأتاه عبّاد البصري، فقال له: بلغنا أنَّك قلت: ما من عبد يذنب

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٤٢٩ و٤٣٠/ باب من يهمُّ بالحسنة أو السيِّئة/ ح ٤.

(٢) أمالي الطوسي: ٢٠٧/ ح (٣٥٥/ ٥).

(٣) الكافي للكليني ٢: ٤٣٧/ باب الاستغفار من الذنب/ ح ٣.

ذنباً إلَّا أجَّله الله ﷻ سبع ساعات من النهار؟ فقال: «ليس هكذا قلت، ولكنّي قلت: ما من مؤمن، وكذلك كان قولي»[١].

وقد تبيَّن هنا أيضاً أنَّ من التسهيل هو أنَّ الله تعالىٰ لا يحاسب العبد علىٰ النيَّة السيِّئة، ولكن تذكَّر أنَّ التفكير والإيحاء الذاتي السلبي يؤثِّر علىٰ صفاء النفس، وقد روي عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «اجتمع الحواريون إلىٰ عيسىٰ عليه السلام، فقالوا له: يا معلِّم الخير أرشدنا، فقال لهم: ... إنَّ موسىٰ نبيَّ الله عليه السلام أمركم أن لا تزنوا وأنا آمركم أن لا تُحدِّثوا أنفسكم بالزنا فضلاً عن أن تزنوا، فإنَّ من حدَّث نفسه بالزنا كان كمن أوقد في بيت مزوق فأفسد التزاويق الدخان وإن لم يحترق البيت»[٢].

٣ - ومن التعامل السمح من الله تعالىٰ لعبده، هو أنَّنا نجد الباري تعالىٰ لا يحاسب العبد علىٰ عدَّة أُمور:

أ - أنَّه تعالىٰ لا يحاسبنا علىٰ ما أعطانا من آلات وقوَّة نحمده بها ونستغفره بواسطتها، وأمَّا لو حاسبنا عليها - وهو العدل والحقُّ - لكان مصيرنا يُرثىٰ له!

يقول مولانا الإمام السجّاد عليه السلام: «... ثُمَّ لَمْ تَسُمْه الْقِصَاصَ فِيمَا أَكَلَ مِنْ رِزْقِكَ الَّذِي يَقْوَىٰ به عَلَىٰ طَاعَتِكَ، وَلَمْ تَحْمِلْه عَلَىٰ الْمُنَاقَشَاتِ فِي الآلَاتِ الَّتِي تَسَبَّبَ بِاسْتِعْمَالِهَا إِلَىٰ مَغْفِرَتِكَ، وَلَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِه لَذَهَبَ بِجَمِيعِ مَا كَدَحَ لَه وَجُمْلَةِ مَا سَعَىٰ فِيه جَزَاءً لِلصُّغْرَىٰ مِنْ أَيَادِيكَ وَمِنَنِكَ، وَلَبَقِيَ رَهِيناً بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَائِرِ نِعَمِكَ، فَمَتَىٰ كَانَ يَسْتَحِقُّ شَيْئاً مِنْ ثَوَابِكَ؟...»[٣].

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٤٣٩/ باب الاستغفار من الذنب/ ح ٩.

(٢) الكافي للكليني ٥: ٥٤٢/ باب الزاني/ ح ٧.

(٣) الصحيفة السجّادية: ١٦٤/ الدعاء رقم ٣٧.

ب - أنَّـه تعـالىٰ لا يحاسـب العبـد عـلىٰ مـا اضـطرَّه إليـه، بـل وفـوق ذلك يُثيبـه عليـه، كالطعـام والملـبس والمسـكن والزوجـة، عـن الإمـام البـاقر عليه السلام: «ثـلاث لا يُسئل عنهـا العبـد: خرقـة يـواري بهـا عورتـه، وكسـرة يسدُّ بها جوعته، أو بيت يكنُّه من الحرِّ والبرد»[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ثلاثة أشياء لا يُحاسَب عليهنَّ المؤمن: طعام يأكله، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه، ويحصن بها فرجه»[2].

٤ - أنَّه تعالىٰ جعل ثواب العبد لـيس فقـط عـلىٰ عملـه، بـل حتَّـىٰ عـلىٰ نيَّتـه الصـالحة وإن لم يُوفَّـق للعمـل، فقـد روي عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مـن أتىٰ فراشه وهو ينـوي أن يقـوم يُصلّي مـن الليـل فغلبتـه عينـاه حتَّـىٰ أصـبح كُتِبَ له ما نوىٰ، وكان نومه صدقة عليه من ربِّه عزَّ وجلَّ»[3].

ومـن هنـا، ورد التأكيـد عـلىٰ ضرورة دوام نيَّـة الخـير في كـلِّ فعـل وحركـة وسـكون، يقـول رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذرٍّ: «يـا أبـا ذرٍّ، لـيكن لـك في كلِّ شيء نيَّة صالحة، حتَّىٰ في النوم والأكل»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «... فلا بدَّ للعبد مـن خـالص النيَّـة في كـلِّ حركة وسكون، لأنَّه إذا لم يكن بهذا المعنىٰ يكون غافلاً، والغافلون قد وصـفهم الله تعالىٰ، فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]»[5].

بـل اعتُـبِرَت النيَّـة في الأحاديـث أفضـل مـن العمـل وخـير منـه، لأنَّ

---

(١) تفسير مجمع البيان للطبرسي ١٠: ٤٣٣.

(٢) الكافي للكليني ٦: ٢٨٠/ باب آخر في التقدير وأنَّ الطعام لا حساب له/ ح ٢.

(٣) سنن النسائي ٣: ٢٥٨.

(٤) مكارم الأخلاق للطبرسي: ٤٦٤.

(٥) مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام: ١٨.

النيَّة لا رياء فيها والعمل قد يخالطه الرياء، فقد روي عن زيد الشحّام، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي سمعتك تقول: «نيَّة المؤمن خير من عمله»، فكيف تكون النيَّة خيراً من العمل؟ قال: «لأنَّ العمل ربَّما كان رياء للمخلوقين، والنيَّة خالصة لربِّ العالمين، فيُعطي تعالىٰ علىٰ النيَّة ما لا يُعطي علىٰ العمل»[١].

٥ - ومن رحمته تعالىٰ أيضاً أنَّه جعل لبعض الأعمال إمكانية سيّالة لرصد الحسنات لعاملها، قال تعالىٰ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر: ٣).

وقد روي أنَّه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلَّا من ثلاث: علم يُنتَفع به، أو صدقة تُجرىٰ له، أو ولد صالح يدعو له»[٢].

وعن ميمون القدّاح، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «أيُّما عبد من عباد الله سنَّ سُنَّة هدىٰ كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وأيُّما عبد من عباد الله سنَّ سُنَّة ضلال كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٣].

وورد: «من تعلَّم حديثين اثنين ينفع بهما نفسه أو يُعلِّمهما غيره وينتفع به كان خيراً له من عبادة ستّين سنة»[٤].

وعن أبي عبد الرحمن، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: «من اشتكىٰ ليلة فقبلها بقبولها وأدّىٰ إلىٰ الله شكرها كانت له كفّارة

---

(١) علل الشرائع للصدوق ٢: ٥٢٤/ باب ٣٠١/ ح ١.

(٢) روضة الواعظين للفتّال النيسابوري: ١١.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ١٣٢.

(٤) كنز العمّال للمتّقي الهندي ١٠: ١٦٣ و١٦٤/ ح ٢٨٨٤٩.

ستّين سنة»، قال: قلت: وما معنىٰ قبلها بقبولها؟ قال: «صبر علىٰ ما كان فيها»[١].

وروي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «من سعىٰ في حاجة أخيه المسلم فكأنَّما عبد الله ﷻ تسعة آلاف سنة، صائماً نهاره قائماً ليله»[٢].

وعن داود الرقّي، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذا استسقىٰ الماء، فلمَّا شربه رأيته قد استعبر واغرورقت عيناه بدموعه، ثمّ قال لي: «يا داود، لعن الله قاتل الحسين عليه السلام، وما من عبد شرب الماء فذكر الحسين عليه السلام و أهل بيته ولعن قاتله، إلَّا كتب الله ﷻ له مائة ألف حسنة، وحطَّ عنه مائة ألف سيِّئة، ورفع له مائة ألف درجة، وكأنَّما أعتق مائة ألف نسمة، وحشره الله تعالىٰ يوم القيامة ثلج الفؤاد»[٣].

* * *

(١) ثواب الأعمال للصدوق: ١٩٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه للصدوق ٢: ١٨٩ و١٩٠/ ح ٢١٠٨.

(٣) كامل الزيارات لابن قولويه: ٢١٢/ ح (٣٠٤/ ١).

الفصل الخامس:

هداية اللطف

المقصود من اللطف هنا هو ما يُسمّىٰ في علم الكلام باللطف المقرِّب، وأمَّا المعاني المتقدِّمة فهي من اللطف المحصِّل[1]، فهي هنا من نوع تقديم التسهيلات الإضافية التي تساعد الإنسان أكثر علىٰ الوصول إلىٰ الهدف، وهي عطايا مجّانية من الله تعالىٰ من فضل جوده وكرمه ورحمته.

وهذه الهداية خاصَّة بمن اعتنىٰ والتزم بأحكام الدين وتشريعاته وسُننه، وراعىٰ طريقة التقوىٰ حقَّ رعايتها، وجزاءً لذلك يحمي الله تعالىٰ عبده الصالح من مكاره الدنيا وعن مضلّات الفتن، ويلطف به ألطافاً معنوية خفيَّة وظاهرة، وهي ما يُسمّىٰ بالتوفيق والعناية، كلُّ ذلك إذا أصبح العبد مُمهَّداً لتلقّي الفيوضات والهبات الربّانية.

وبعبارة أُخرىٰ أوضح:

بعد أن يقطع المؤمن أشواطاً في طريق تطهير الروح وتحصيل الكمال، يأتي اللطف الإلهي الخاصّ أو المقرِّب، ليُعطيَه نوعاً من التسهيلات، ليقطع طُرُقاً أصعب للصعود في مراتب الكمال، تماماً كما إذا لاحظ مدير شركة معيَّنة أنَّ أحد موظَّفيه تفانىٰ في عمله ولسنوات عديدة، فإنَّه قد يُعطيه (سرَّ المهنة)، ليتحصَّل بجهده علىٰ أرباح أكثر، أو كما إذا ارتأت مديرية التربية أن تُعطي فرصة للطلّاب الموهوبين، بعد أن أثبتوا جدارتهم، تُعطيهم فرصة لطيِّ مرحلة دراسية بوقت أسرع، حسب نظام تسريع المراحل أو ما يُسمّىٰ بنظام (العبور).

---

(١) وقد تقدَّم في المقدّمة الرابعة شرح هذين المصطلحين، فراجع.

إنَّ هذه التسهيلات لم تأتِ من فراغ، وإنَّما جاءت بعد مراحل من العمل والإخلاص والتفاني، بحيث أثبت الفرد جدارته ليحصل علىٰ تسهيلات ليصل إلىٰ مبتغاه وهدفه بوقت أسرع، ولا يعني هذا إلَّا زيادة في تفعيل الإرادة وتوجيه الاختيار نحو الهدف بكلِّ جهد وإخلاص.

وعند مراجعة النصوص الدينية نجد أنَّنا لا نُعدَم الإشارات الواضحة لهذا المعنىٰ من الهداية، نذكر منها النصوص التالية:

النصُّ الأوَّل: قوله تعالىٰ في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ (الفاتحة: ٦).

فهذه الآية من سورة الفاتحة جاءت بصيغة طلب الهداية، ولكن الهداية التي تقع بعد العبادة لله تعالىٰ والاستعانة به، ممَّا يعني أنَّها هداية ما بعد طيِّ مراحل العبودية والتوكُّل علىٰ الله تعالىٰ، وهو معنىٰ هداية اللطف.

وفي إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ أنَّه قال عليه السلام: «أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيّامنا حتَّىٰ نُطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا. والصراط المستقيم هو صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة. وأمَّا الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلوِّ، وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلىٰ شيء من الباطل. وأمَّا الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلىٰ الجنَّة الذي هو مستقيم لا يعدلون عن الجنَّة إلىٰ النار ولا إلىٰ غير النار سوىٰ الجنَّة»[1].

النصُّ الثاني: قوله تعالىٰ من بداية سورة البقرة: ﴿الم ۝١ ذَلِكَ

---

(١) معاني الأخبار للصدوق: ٣٣/ باب معنىٰ الصراط/ ح ٤.

الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولئِكَ عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ (البقرة: ١ - ٥).

فنلاحظ أنَّ الهدىٰ هنا جاء مرَّتين، فمرَّة كان للمتَّقين، وهو هدىٰ التشريع. وأُخرىٰ جاء بعد الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق والإيمان بما أنزل الله تعالىٰ، فوصفتهم الآية بأنَّهم علىٰ هدىٰ من ربِّهم، فهذا الهدىٰ غير الهدىٰ المتقدِّم، فهو هدىٰ اللطف الإلهي والتقريب والتسهيل الإلهي الذي يكون كهدية ومكافأة علىٰ ما قدَّمه الإنسان بإرادته من التزام بالتشريع.

فهذه الآية في الحقيقة (تشير إلىٰ النتيجة التي يتلقَّاها المؤمنون المتَّصفون بالصفات الخمس المذكورة، تقول: ﴿أُولئِكَ عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾، وقد ضمن ربُّ العالمين لهؤلاء هدايتهم وفلاحهم، وعبارة من ربِّهم إشارة إلىٰ هذه الحقيقة. واستعمال حرف (علىٰ) في عبارة ﴿عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يوحي بأنَّ الهداية الإلهيَّة مثل سفينة يركبها هؤلاء المتَّقون لتوصلهم إلىٰ السعادة والفلاح، لأنَّ حرف (علىٰ) يوحي غالباً معنىٰ الاستعلاء. واستعمال كلمة (هدىٰ) في حالة نكرة يشير إلىٰ عظمة الهداية التي شملهم الله بها. وتعبير ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ يفيد الانحصار كما يذكر علماء البلاغة، أي إنَّ الطريق الوحيد للفلاح هو طريق هؤلاء المفلحين)[1].

النصُّ الثالث: قوله تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ (العنكبوت: ٦٩).

---

(١) تفسير الأمثل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ١: ٨٢.

فالهداية هنا ترتَّبت علىٰ الجهاد في الله تعالىٰ، فهي فرع الجهاد، أي إنَّها تأتي بعد بذل الجهد الجهيد من المؤمن، فالخطوة الأُولىٰ من المؤمن، وتكملتها وتسهيل بلوغ الهدف بها من الله تعالىٰ.

وعلىٰ هذا السياق قال الإمام السجّاد عليه السلام لإبراهيم بن أدهم لـمَّا قال له وقد كان متأخِّراً عن القافلة: ارفع رجلك حتَّىٰ تُدرك، فقال الإمام عليه السلام: «عليَّ الجهاد، وعليه الإبلاغ، أمَا سمعت قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾؟»[١].

وقال القمّي في ما يُنسَب له من التفسير: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا﴾ أي صبروا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ أي لنُثبتنَّهم، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾. وفي رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «هذه الآية لآل محمّد صلى الله عليه وآله ولأشياعهم»[٢].

النصُّ الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾ (هود: ٨٨).

روي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ (آل عمران: ١٦٠)، أنَّه قال عليه السلام: «إذا فعل العبد ما أمره الله عزَّ وجلَّ به من الطاعة، كان فعله وفقاً لأمر الله عزَّ وجلَّ، وسُمّي العبد به موفَّقاً. وإذا أراد العبد[٣] أن يدخل في شيء من معاصي الله، فحال الله تبارك وتعالىٰ بينه وبين تلك المعصية فتركها، كان تركه لها بتوفيق من الله

---

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ٢٨٠.

(٢) تفسير القمّي ٢: ١٥١.

(٣) لاحظ هنا أنَّ إرادة المعصية هي من العبد لا من الله تعالىٰ.

تعالىٰ ذكره، ومتىٰ خلّىٰ بينه وبين تلك المعصية فلم يحل بينه وبينها حتَّىٰ يرتكبها، فقد خذله ولم ينصره ولم يُوفِّقه»[١].

وعلَّق الشيخ الصدوق رحمه الله علىٰ هذه الرواية بقوله: (التوفيق هو تهيئة الأسباب نحو الفعل، والأسباب بعضها بيد العبد وبعضها ليس كذلك. وما بيد العبد ينتهي أيضاً إليه تعالىٰ منعاً وإعطاءً، فلذلك: ﴿ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾، والتوفيق للطاعة هو اجتماع أسباب الفعل كلّها، والتوفيق لترك المعصية هو فقدان بعض الأسباب، فإن كان بيد العبد فهو الانقياد فيها، وإلَّا فهو اللطف من الله تعالىٰ، وعدم التوفيق والخذلان في الطاعة وترك المعصية علىٰ عكس ذلك)[٢].

النصُّ الخامس: من دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة: «إِلهِي اطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذُبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّىٰ أُقْبِلَ عَلَيْكَ»[٣].

فالإمام الحسين عليه السلام وهو في الحجِّ وفي عرفات يرفع يديه بالدعاء، ليطلب تسهيلاً إلهيّاً من باب رحمته ومنِّه جلَّ وعلا، ليصل إلىٰ هدفه الأسمىٰ، فهو طلب للُّطف الخاصِّ.

النصُّ السادس: في مناجاة الزاهدين للإمام زين العابدين عليه السلام: «إِلهِي فَزَهِّدْنا فِيها، وَسَلِّمْنا مِنْها بِتَوْفِيقِكَ وَعِصْمَتِكَ، وَانْزَعْ عَنَّا جَلابِيبَ مُخالَفَتِكَ، وَتَوَلَّ أُمُورَنا بِحُسْنِ كِفايَتِكَ، وَأَوْفِرْ مَزِيدَنا مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِكَ، وَأَجْمِلْ صِلاتِنا مِنْ فَيْضِ مَواهِبِكَ»[٤].

---

(١) التوحيد للصدوق: ٢٤١ و٢٤٢/ باب ٣٥/ ح ١.

(٢) التوحيد للصدوق: هامش ص ٢٤٢.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي ٩٥: ٢٢٧.

(٤) الصحيفة السجّادية/ أبطحي: ٤٢١.

فطلب الإمام عليه السلام واضح في أنَّه من باب التوفيق، وكفاية الله تعالىٰ، وسعة رحمته، وفيض مواهبه وعطاياه.

النصُّ السابع: من دعاء للإمام الصادق عليه السلام: «وأعنّي علىٰ نفسي بما أعنت به الصالحين علىٰ أنفسهم»[1].

فهذه الفقرة من الدعاء تشير إلىٰ وجود إعانة خاصَّة للصالحين من العباد، غير الإعانة العامَّة من الله تعالىٰ للجميع، تلك الإعانة العامَّة التي يقول جلَّ وعلا عنها: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً ۝١٨ وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعىٰ لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ۝١٩ كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ۝٢٠﴾ (الإسراء: ١٨ - ٢٠).

وغيرها من النصوص التي يمكن أن نجدها بالمتابعة ممَّا يشير إلىٰ الهداية الخاصَّة من هذا النوع.

وباختصار: إنَّ هذا المعنىٰ من الهداية هو من العبد باعتبار، ومن الله تعالىٰ باعتبار، فالتزام العبد بما يريده منه الله تعالىٰ وعلىٰ أتمّ وجه، يستتبع هذا المعنىٰ من الهداية.

والإضلال في هذه المرحلة وإن كان من الله تعالىٰ، لكنَّه ليس بقبيح، فإنَّه لا يجب أن يلطف الله تعالىٰ هذا اللطف بمن خالفه وعانده باختياره، إذ المخالف ليس أهلاً لذلك اللطف.

وبعبارة أوضح: إنَّ أساس منع هذا اللطف هو من العبد باختياره، فالله تعالىٰ جعل هذه التسهيلات وفق شروط خاصَّة، فمن لا

---

(١) الأُصول الستَّة عشر لعدَّة محدِّثين: ٢٧٣/ ح (٣٨٨/ ١).

يُتعِب نفسه في تحصيلها فإنَّه لا يستحقُّ تلك التسهيلات، أي إنَّ السبب في الحرمان هو العبد نفسه لا الله جلَّ وعلا.

فقد يكون الفرد مؤمناً ولكنَّه لا يسعىٰ أكثر لتحصيل تلك التسهيلات، أي إنَّ عدم هذه التسهيلات لا يعني الكفر أو الفسق أو ما شابه، بل يعني أنَّ الفرد يعيش الكسل والتعاجز عن تحصيل حوافز إضافية، كالموظَّف الذي يحضر إلىٰ دائرته من باب إسقاط الفرض من دون أن يُقدِّم أي أعمال إضافية، ومن دون أن يُظهِر أيَّ رغبة في التطوير، فإنَّه بلا شكٍّ وبحكم العقل لا يستحقُّ أيَّ حوافز وأيَّ مشجِّعات إلَّا بالمستوىٰ العامّ الذي يشمل جميع الموظَّفين.

سلالم تحصيل اللطف:

هل نظرت يوماً إلىٰ رياضي يحاول تسلُّق قمَّة جبل شاهق؟

هل رأيت كم يعاني ويعاني من أجل أن يصعد خطوة واحدة إلىٰ الأعلىٰ؟

وهل رأيت أنَّ صعوده صعب جدّاً؟ ولكن من السهل جدّاً أن يقع أو أن يتلكَّأ في صعوده أو أن يهبط عشر خطوات دفعةً واحدةً!

لا شكَّ أنَّ كلَّ من يحاول تسلُّق الجبل فعليه أن يستعدَّ للصعاب المتوقَّعة، ولكن فرحته ستكون عظيمة جدّاً حينما يصل إلىٰ قمَّة الجبل، ليُسجِّل اسمه في موسوعة غينيس للأرقام القياسية!

كذلك من يريد أن يحصل علىٰ لطف الله تعالىٰ وتوفيقه، فإنَّ عليه أن يستعدَّ لصعود الجبل: جبل النفس، عليه أن يلتزم القانون الخاصّ بتحصيل اللطف، حتَّىٰ يتمكَّن من الصعود بسلام وبلا تعثُّر.

هذا، ويمكن أن نجد من خلال تربويات الدين عدَّة أُمور تُمثِّل السلالم المثلىٰ للوصول إلىٰ مرتبة تحصيل اللطف الإلهي، نذكر منها:

أوَّلاً: تنمية الوازع الديني:

ما هو الشيء الذي يدفع الإنسان إلىٰ التزام مبدئه والسلوك المستقيم؟

ربَّما يقال: هو القانون.

ولكن هذا غير صحيح في كلِّ الحالات، لأنَّ القانون يتعامل مع الظاهر لا مع الباطن، ولأنَّ القانون يعاقب المسيء ولكنَّه لا يكافئ المحسن، ولأنَّ القانون يمكن التحايل عليه، بل والتمرُّد عليه حتَّىٰ ولو كان قد سُنَّ لفائدة المجتمع.

وربَّما يقال: هو العلم، فكلَّما كان الإنسان متعلِّماً أكثر كلَّما التزم أكثر.

ولكن الواقع خلاف هذا، فهل هناك أعلم من إبليس!؟ ومع ذلك أبلس من رحمة الله تعالىٰ.

وكم هم الذين يعلمون ضرر معاقرة الخمور والمخدَّرات والفواحش، ولكن علمهم لم يمنعهم من ارتكابها.

وكم هم الذين يعلمون حرمة الغيبة والنميمة والظلم والتعدّي علىٰ حقوق الآخرين، ومع ذلك لم يمنعهم علمهم من مواقعة الحرام!

هذا فضلاً عن الكوارث التي أودت بحياة الملايين من البشر بسبب العلم، والقنبلة النووية شاهدة علىٰ هذا القول.

وربَّما يقال: هو العبادات، فكلَّما التزم الإنسان بالعبادات أكثر، كلَّما التزم مبدأه.

ولكن العبادات لوحدها لا تكفي، فكم من عابد ضلَّ، وكم من زاهد زلَّ، والروايات كثيرة في هذا الجانب، كما في قصَّة العابد برصيصا، التي رواها الباري تعالىٰ بقوله عزَّ من قائل: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ

لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الحشر: ١٦)[١].

فلا القانون وحده، ولا العلم وحده، ولا العبادات وحدها، هو الدافع نحو السلوك المستقيم.

والحقيقة أنَّ هناك شيئاً آخر فوق هذه الأُمور الثلاثة، هو الذي يجعل الإنسان مستقيماً في سلوكه، ذاك الأمر هو ما ذكره هابيل لأخيه قابيل فيما ينقله القرآن الكريم عنهما، فإنَّه لـمَّا هدَّد قابيل بقتل هابيل قال له هابيل: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (المائدة: ٢٨).

وهو ما عبَّر القرآن الكريم في موضع آخر بالنظر إلىٰ غد، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الحشر: ١٨).

---

(١) عن ابن عبّاس، قال: إنَّه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصا، عَبَدَ الله زماناً من الدهر، حتَّىٰ كان يؤتىٰ بالمجانين يداويهم، ويُعوِّذهم فيبرأون علىٰ يده، وإنَّه أُتي بامرأة في شرف قد جُنَّت، وكان لها إخوة فأتوه بها، فكانت عنده. فلم يزل به الشيطان يُزيِّن له، حتَّىٰ وقع عليها، فحملت. فلـمَّا استبان حملها قتلها ودفنها . فلـمَّا فعل ذلك، ذهب الشيطان حتَّىٰ لقي أحد إخوتها، فأخبره بالذي فعل الراهب، وأنَّه دفنها في مكان كذا. ثمّ أتىٰ بقيَّة إخوتها رجلاً رجلاً، فذكر ذلك له، فجعل الرجل يلقىٰ أخاه فيقول: والله لقد أتاني آتٍ فذكر لي شيئا يكبر عليَّ ذكره! فذكر بعضهم لبعض حتَّىٰ بلغ ذلك ملكهم، فسار الملك والناس، فاستنزلوه، فأقرَّ لهم بالذي فعل، فأُمِرَ به فصُلِبَ. فلـمَّا رُفِعَ علىٰ خشبته، تمثَّل له الشيطان فقال: أنا الذي ألقيتك في هذا، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك، أُخلِّصك ممَّا أنت فيه؟ قال: نعم. قال: اسجد لي سجدة واحدة. فقال: كيف أسجد لك، وأنا علىٰ هذه الحالة؟ فقال: أكتفي منك بالإيماء. فأومىٰ له بالسجود، فكفر بالله، وقُتِلَ الرجل. فهو قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦]). (تفسير مجمع البيان للطبرسي ٩: ٤٣٨).

فالخوف من ربِّ العالمين أو قل: **الوازع الديني**، هو الذي منع هابيل من القتل. وأرضية هذا الوازع وأساسه هي التقوىٰ. **فالأساس** هي التقوىٰ، وأمَّا القانون، فهو يُمثِّل الحماية الخارجية للتقوىٰ. وأمَّا العلم، فهو دافع نحو التقوىٰ ومحفِّز لها. وأمَّا العبادات، **فهي** عمليات تدريبية من شأنها أن تقود إلىٰ التقوىٰ. والأساس في كلِّ ذلك هي التقوىٰ.

والتقوىٰ تعني باختصار: الاجتهاد في التزام الواجبات والورع عن المحرَّمات، لتتمخَّض عن تمثُّل وتعايش مع مبدأ معيَّة الله تعالىٰ الدائمة، يقول تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (الحديد: ٤).

وليست التقوىٰ رداءً يُلبَس ويُخلَع، وليست هي سلعة تُشترىٰ وتُباع، وليست هي حالة متزلزلة لتروح وتجيء، إنَّما هي مبدأ نفسي مستقرٌّ، دائم المصاحبة للنفس، يقودها نحو السلوك المستقيم باستمرار.

ولكن أكثر ما يظهر أثر التقوىٰ في السلوك في حالات:

١ - **الغيب**، أو الخفاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ (الملك: ١٢).

إنَّ الإنسان عادةً لا يجاهر بالمعصية، لأنَّه يخاف لوم الناس، واحتقارهم له، وحكمهم عليه بالانحراف، وبالتالي الابتعاد عن معاشرته. وهو بالتالي يريد أن يحافظ علىٰ سمعة جيِّدة بين الناس، حتَّىٰ يحصل علىٰ التقدير منهم، إذ لولا التقدير لما بقي الإنسان في محلٍّ معيَّن. فلا يكشف عدم المعصية بحضور الناس عن أكثر من التزام اللباقة العامَّة.

وإلىٰ هذا المعنىٰ يشير الإمام السجّاد عليه السلام في دعائه: «فَلَوِ اطَّلَعَ اليَوْمَ عَلىٰ ذَنْبِي غَيْرُكَ مَا فَعَلْتُهُ، وَلَوْ خِفْتُ تَعْجِيلَ العُقُوبَةِ لاجْتَنَبْتُهُ»[1].

إنَّما تظهر التقوىٰ الحقيقية إذا غاب الفرد عن أعين الناس، كما إذا سافر إلىٰ بلاد لا يعرفه فيها أحد، أو تستَّر عن الناس في بيته، فإنَّه آنذاك تظهر التقوىٰ الحقيقية.

٢ - **عند الشهوة**، قال تعالىٰ: ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف: ٢٣).

قيل: إنَّ ابنة ملك خرجت للتنزُّه، فثارت عاصفة جعلتها تبتعد عن حمايتها وقصرها، فدخلت غابة، وهناك رأت كوخاً، فاضطرَّت لدخوله خوفاً من وحوش الغابة، وما إن دخلت، حتَّىٰ رأت شابّاً منكبّاً علىٰ قراءة كتبه، فخافت منه أكثر من وحوش الغابة، فنظر إليها ولم يُكلِّمها ورجع إلىٰ كتبه، فجلست في زاوية الكوخ، ولم تنم خوفاً، وكان ذلك الشابُّ بين الحين والآخر ينظر إليها ثمّ يُحرق واحداً من أصابعه، حتَّىٰ أحرق أصابعه العشرة! فكان ذلك المنظر يُرعِبها، وهكذا إلىٰ الصباح، وآنذاك هربت ورجعت إلىٰ قصرها.

واشتكت أمر ذلك المرعب إلىٰ أبيها، فحكم عليه بالإعدام، ولم يعلم الشاب المسكين لِمَ حُكِمَ عليه بالإعدام إلَّا من الجلّاد، فطلب منه أن يشرح سبب ما فعله للملك، ولـمَّا أبان الحقيقة للملك زوَّجه الملك من تلك الفتاة! إذ إنَّ الحقيقة كانت: أنَّ نفسه كانت تُحدِّثه بالفاحشة مع تلك الفتاة، فينظر إليها، ولكنَّه يتذكَّر نار الآخرة، فيختبر نفسه بنار

---

(١) الصحيفة السجّادية/ أبطحي: ٢١٧.

الدنيا، فإنَّه إن تحمَّلها لأمكن أن يخدع نفسه بأنَّه يتحمَّل نار الآخرة، وإن كان الفارق بين النارين شاسعاً، وآنذاك، عرف من نفسه عدم تحمُّل نار الدنيا، فتركها، ولكنَّ نفسه كانت تعاوده، فيعاود الكرَّة عليها بحرق إصبع آخر، وهكذا إلىٰ أن لَطَف الله تعالىٰ به وأبعده عن تلك الفاحشة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاعْلَمُوا أَنَّه لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَىٰ النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُه، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيه، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُه؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينَ شَيْطَانٍ؟ أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَىٰ النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِه، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِه؟...»[1].

٣ - **عند القوَّة والتسلُّط**، فإنَّ القوَّة تخلق عند الإنسان الغرور، خصوصاً إذا رأىٰ غيره محتاجاً إليه، والشيطان هنا يعمل، وهنا يبين الوازع الديني، فمثلاً الأب في موقع قوَّة بالنسبة إلىٰ الأبناء والزوجة، فلا بدَّ أن يتصرَّف بحكمة وتديُّن، فالرسول صلى الله عليه وآله عندما دفن معاذاً وقالت أُمُّه: هنيئاً لك الجنَّة يا معاذ! قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: لا تحكمي علىٰ الله، فإنَّه ستصيبه ضغطة في قبره، لأنَّه كان سيِّئ الخُلُق مع أهله[2].

---

(١) نهج البلاغة: ٢٦٧/ الخطبة ١٨٣.

(٢) عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام، قال: «أُتي رسول الله صلى الله عليه وآله فقيل: إنَّ سعد بن معاذ قد مات، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله، وقام أصحابه، فحمل فأمر فغُسِّل علىٰ عضادة الباب، فلمَّا أن حُنِّط وكُفِّن وحُمِلَ علىٰ سريره تبعه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ كان يأخذ يمنة السرير مرَّة ويسرة السرير مرَّة حتَّىٰ انتهىٰ به إلىٰ القبر، فنزل به رسول الله صلى الله عليه وآله حتَّىٰ لحَده وسوّىٰ عليه اللبن وجعل يقول: ناولني حجراً، ناولني تراباً رطباً، يسدُّ به ما بين اللبن، فلمَّا أن فرغ وحثا التراب عليه وسوّىٰ قبره.

⇦

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَىٰ الْخَلْقِ بِكَ»[١].

وكذا مثلاً الموظَّف لا بدَّ أن يتعامل مع المراجعين بما يظهر معه أثر الدين، فإنَّ الدين المعاملة كما يقال، وخير وثيقةٍ للموظَّف هي وثيقة الإمام أمير المؤمنين إلىٰ صاحبه مالك الأشتر عندما أرسله والياً علىٰ مصر، حيث يقول فيما يقول له: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ»[٢].

وليُتذكَّر أنَّ القوَّة لله جميعاً، وهو وحده تعالىٰ القويُّ المطلق والقادر المطلق، ففي حِكَم لقمان الحكيم: (وإذا دعتك القدرة إلىٰ ظلم من هو دونك، فاذكر قدرة الله عليك)[٣].

وقد روي عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لـمَّا حضر عليَّ بن الحسين عليهما السلام الوفاة ضمَّني إلىٰ صدره، ثمّ قال: يا بنيَّ،

⇦ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي لأعلم أنَّه سيُبلىٰ ويصل إليه البلىٰ، ولكن الله تعالىٰ يُحِبُّ عبداً إذا عمل عملاً فأحكمه، فلـمَّا أن سوّىٰ التربة عليه، قالت أُمُّ سعد من جانب: هنيئاً لك الجنَّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أُمَّ سعد، مَهْ لا تجزمي علىٰ ربِّكِ، فإنَّ سعداً قد أصابته ضمَّة». قال: «ورجع رسول الله صلى الله عليه وآله، ورجع الناس، فقالوا: يا رسول الله، لقد رأيناك صنعت علىٰ سعد ما لم تصنعه علىٰ أحد، إنَّك تبعت جنازته بلا رداء ولا حذاء؟ فقال صلى الله عليه وآله: إنَّ الملائكة كانت بلا حذاء ولا رداء فتأسَّيت بها، قالوا: وكنت تأخذ يمنة السرير مرَّة ويسرة السرير مرَّة، قال: كانت يدي في يد جبرئيل آخذ حيث ما أخذ، فقالوا: أمرت بغسله وصلَّيت علىٰ جنازته ولحَّدته ثمّ قلت: إنَّ سعداً قد أصابته ضمَّة»، قال: «فقال صلى الله عليه وآله: نعم، إنَّه كان في خُلُقه مع أهله سوءٌ». (علل الشرائع للصدوق ١: ٣٠٩ و٣١٠/ باب ٢٦٢/ ح ٤).

(١) نهج البلاغة: ٤٠٣/ وصايا شتّىٰ.

(٢) نهج البلاغة: ٤٢٧/ ح ٥٣.

(٣) إرشاد القلوب للديلمي ١: ٧٣.

أُوصيك بـما أوصاني بـه أبي عليه السلام حـين حضـرته الوفـاة، وبـما ذكـر أنَّ أبـاه أوصاه به، قال: يا بنيَّ، إيّاك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلَّا الله»[١].

ونجـد الإمـام عليّـاً عليه السلام يقـول لأهـل الكوفـة: «أتريـدون أن أضربكـم بسـيفي!؟ أمَـا إنّي أعلـم الـذي تريـدون ويقـيم أودكـم، ولكـن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي»[٢].

وهذا مثال الحاكم المتَّقـي، فـلا بـدَّ أن يحسـب القـويُّ حسـاب الخـوف من الله تعالىٰ.

مـرَّةً كـان الإمـام علـيٌّ عليه السلام جالسـاً مـع أصـحابه ومعهـم أحـد الخـوارج، فمـرَّت بهـم امـرأة، فرمقهـا بعضـهم بطرفـه، فقـالِ الإمـام: «إِنَّ أَبْصَارَ هَذِه الْفُحُولِ طَـوَامِحُ، وَإِنَّ ذَلِـكَ سَـبَبُ هِبَابِهَـا، فَـإِذَا نَظَـرَ أَحَـدُكُمْ إِلَىٰ امْـرَأَةٍ تُعْجِبُـه فَلْـيُلَامِسْ أَهْلَـه، فَـإِنَّمَا هِـيَ امْـرَأَةٌ كَامْرَأَتِـه»، فقـال الخـارجي: قاتلـه الله كـافراً مـا أفقهـه! فـانظر إلىٰ الحـاكم العـادل، عنـدما قـام أصـحابه ليقتلوا ذلـك الخـارجي، فقـال الإمـام عليه السلام: «رُوَيْـداً، إِنَّـمَا هُـوَ سَـبٌّ بِسَـبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ»[٣]، ولم ينقل التـاريخ أنَّـه عليه السلام سبَّه، فهـذا يعنـي أنَّـه عفـىٰ عنه.

فـلا بـدَّ أن يكـون الـوازع الـديني هـو الـذي يقـود المجتمـع، فالإمـام عليٌّ عليه السلام لم يكـن ليقـول ذلـك فقـط، بـل إنَّ سـيرته كانـت مطابقـة لأفعالـه، وهكـذا كـان الإمـام الحسـين عليه السلام حيـث يقـول: «إنّي لم أخـرج أشراً ولا بطـراً ولا مفسـداً ولا ظالمـاً، وإنَّـما خرجـت لطلـب الإصلاح في أُمَّـة جـدّي

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٣٣١/ باب الظلم/ ح ٥.

(٢) الكافي للكليني ٨: ٣٦١/ ح ٥٥١.

(٣) نهج البلاغة: ٥٥٠/ ح ٤٢٠.

ﷺ، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي عليِّ بن أبي طالب عليه السلام»[١].

كان الناس ينظرون إلىٰ ظلم آل أُميَّة - معاوية ويزيد (لعنهما الله) -، ولكن أبا عبد الله الذي أبىٰ الضيم كان يقول: «ألَا ترون أنَّ الحقِّ لا يُعمَل به، وأنَّ الباطل لا يُتناهىٰ عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرىٰ الموت إلَّا سعادةً، والحياة مع الظالمين إلَّا بَرَماً...»[٢].

ثانياً: حسن الخُلُق:

يوماً ما سألت أُمُّ المؤمنين أُمُّ سَلَمة رسولَ الله ﷺ، فقالت: بأبي أنت وأُمّي، المرأة يكون لها زوجان فيموتان فيدخلان الجنَّة لأيِّهما تكون؟ فقال: «يا أُمَّ سَلَمة، تَخيَّر أحسنهما خُلُقاً وخيرهما لأهله. يا أُمَّ سَلَمة، **إنَّ حَسَنَ الخُلُق ذهب بخير الدنيا والآخرة**»[٣].

لا نجد أمراً أمر به الإسلام وحثَّ عليه أكثر من حسن الخُلُق، فاعتبر أنَّ الخُلُق وعاء الدين[٤]، وأنَّ الإسلام ليس هو إلَّا حسن الخُلُق[٥]، وجُعِلَ هو مدار القرب من رسول الله ﷺ في الجنَّة[٦]، وهو أكثر ما تلج به الأُمَّة الجنَّة[٧]، وغيرها من الأحاديث الكثيرة. ولذا كثرت كثرت دعوة أهل البيت عليهم السلام لاكتساب مكارم الأخلاق، يقول أمير

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٤٤: ٣٢٩ و٣٣٠.

(٢) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني: ٢٤٥.

(٣) الخصال للصدوق: ٤٢/ ح ٣٤.

(٤) راجع: الجامع الصغير للسيوطي ١: ٦٣٧/ ح ٤١٤٠.

(٥) راجع: كنز العمّال للمتّقي الهندي ٣: ١٧/ ح ٥٢٢٥.

(٦) راجع: قرب الإسناد للحميري: ٤٥ و٤٦/ ح ١٤٨.

(٧) راجع: الكافي للكليني ٢: ١٠٠/ باب حسن الخُلُق/ ح ٦.

المؤمنين عليه السلام: «ثابروا علىٰ اقتناء المكارم، وتحمّلوا أعباء المغارم، تحرزوا قصبات المغانم»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «المكارم عشر، فإن استطعت أن تكون فيك فلتكن، فإنّها تكون في الرجل ولا تكون في ولده، وتكون في ولده ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في الحرّ»، قيل: وما هنَّ؟ قال: «صدق البأس، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، وإطعام السائل، والمكافأة علىٰ الصنائع، والتذمُّم للجار، والتذمُّم للصاحب، ورأسهنَّ الحياء»[٢].

وعلىٰ كلِّ حالٍ، فالأحاديث في حسن الخُلُق أكثر من أن تُحصىٰ، ولكن الملاحَظ أنَّه ترتَّبت علىٰ حسن الخُلُق آثار دنيوية وأُخروية، وهذا ما يدعو إلىٰ التأمُّل قليلاً في تأكيد الروايات الكثيرة علىٰ هذا المعنىٰ، فلماذا كان لحسن الخُلُق تلك الآثار الإيجابية، ولسوئه تلك الآثار السلبية!؟ هذا ما أجابت عنه الروايات الشريفة. والتفصيل هو التالي:

التأثير الدنيوي للخُلُق:

يمكن أن نلاحظ في هذا المجال أربعة أحاديث مرويَّة عن أمير المؤمنين عليه السلام، ثلاثة منها تُمثِّل مقدّمات لحصول الرابع، وهي:

الحديث الأوَّل: «من ضاق خُلُقه ملَّه أهله»[٣].

وذلك لأنَّ الأهل ينتظرون من أبيهم مثلاً الذي يقضي معظم وقته خارج البيت، أن يكون لهم أباً رؤوفاً، وبهم رحيماً، يُدفِئهم بحنانه،

---

(١) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٢١٨.

(٢) الكافي للكليني ٢: ٥٥ و٥٦/ باب المكارم/ ح ١.

(٣) الكافي للكليني ٢: ٢٣/ ح ٤، خطبة الوسيلة.

ويُدخِل السرور علىٰ الحزين منهم، فإذا كان دخوله علىٰ عكس ذلك، وكان عليهم نقمة، ومن يُحِبُّ النقمة!؟ وإذا كان عليهم جبّاراً، فإنَّ سجناءه سيفرون منه، وإن لم يستطيعوا فسيُملّون وجوده الثقيل!

يقول رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجل ليُدرك بالحلم درجة الصائم القائم، وإنَّه ليُكتَب جبّاراً وما يملك إلَّا أهل بيته»[1].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «قال لقمان لابنه: ... وحسِّنْ مع جميع الناس خُلُقك. يا بنيَّ، إن عدمك ما تصل به قرابتك وتتفضَّل به علىٰ إخوانك، فلا يعدمنَّك حسن الخُلُق، وبسط البشر، فإنَّه مَنْ أحسن خُلُقه أحبَّه الأخيار وجانبه الفجّار»[2].

الحديث الثاني: «من ساء خُلُقه ضاق رزقه»[3].

ولا شكَّ في ذلك، فلو كان صاحب الدكّان لطيفاً مع زبائنه، متسامحاً معهم، فإنَّ الناس ستتكالب علىٰ بابه، تجذبهم قوَّةُ أخلاقه، علىٰ العكس تماماً من البائع سيِّئ الخُلُق.

سُئِلَ أحد الناجحين في بيع الحاجات عن سرِّ نجاحه، فقال: كنت أستقبل من يأتيني بابتسامة عريضة، وأعرض له ما يريد من بضائع، وحتَّىٰ إذا لم يشترِ أشكره جدّاً علىٰ زيارته، وأطلب منه أن يتفضَّل بنقل ما رآه من بضائع وأُسلوب من صاحب المحلِّ إلىٰ ثلاثة من أصحابه، وهكذا يدفعهم الفضول لزيارة دكّاني.

ومن هنا ورد في الشريعة السمحاء استحباب إقالة النادم،

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٦: ٢٣٢ و٢٣٣.

(٢) قصص الأنبياء للراوندي: ١٩٨/ ح ٢٤٥.

(٣) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٤٣١.

والتساهل والتسامح في البيع والشراء، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أيُّما مسلم أقال مسلماً ندامة في البيع، أقاله الله عثرته يوم القيامة»[١].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترىٰ، سمحاً إذا اقتضىٰ، سمحاً إذا قضىٰ»[٢].

ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «حسن الأخلاق يدرُّ الأرزاق، ويؤنس الرفاق»[٣].

الحديث الثالث: «من ساء خُلُقه قلاه مصاحبه ورفيقه»[٤].

إنَّ الواقع والوجدان شاهدان علىٰ أنَّ صاحب اللسان البذيء أو الجلوس الثقيل أو الحاجة الملحَّة المحرجة وما شابه، فإنَّ الناس تهرب منه، وإذا وقع في مشكلة تمنَّوا أن لا يخرج منها حتَّىٰ يدوم أو علىٰ الأقلّ يطول وقت راحتهم منه، علىٰ عكس صاحب الأخلاق الحسنة الذي لا يملُّ الناس مجالسته، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ لَانَ عُودُه كَثُفَتْ أَغْصَانُه»[٥].

عن ضرار بن ضمرة، قال: أوصىٰ أمير المؤمنين عليه السلام بنيه، فقال: «يا بَنِيَّ، عاشروا الناس بالمعروف، معاشرة إن عشتم حنّوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم»، ثمّ قال:

---

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق ٣: ١٩٦/ ح ٣٧٣٨.

(٢) صحيح ابن حبّان ١١: ٢٦٧/ ح ٤٩٠١.

(٣) ميزان الحكمة للريشهري ١: ٨٠٥، عن غرر الحكم: ٤٨٥٦.

(٤) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٤٣٧.

(٥) نهج البلاغة: ٥٠٧/ ح ٢١٤؛ وقال ابن أبي الحديد في شرحه (ج ١٩/ ص ٣٥): (تكاد هذه الكلمة أن تكون إيماءً إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]، ومعنىٰ هذه الكلمة أنَّ من حسن خُلُقه، ولانت كلمته، كثر محبّوه وأعوانه وأتباعه. ونحوه قوله: «من لانت كلمته وجبت محبَّته»، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]...).

أُريـــد بـــذاكم أن تهشـــوا لطلقتـــي وأن تكثروا بعدي الـدعاء علىٰ قـبري
وأن يمنحــوني في المجــالس ودَّهــم وإن كنت عنهم غائباً أحسنوا ذكري[1]

الحديث الرابع: سُئِلَ أمير المـؤمنين عليه السلام عـن أدوم النـاس غـمّاً، فقـال: «**أسوأهم خلقاً**»[2].

وهذا واضح جدّاً بعد أن كان سيِّئ الخُلُق مملولاً من قِبَل أهلـه، وضـائقاً عليه رزقه، ومتروكاً من أصحابه وأترابه، فأيُّ سعادة تبقىٰ بعد هذا!؟ وأيُّ غمٍّ أشدّ من هذا!؟

إنَّه العذاب الذي سيجنيه صاحب الخُلُق السيِّئ، وفعلاً، وكما قال الإمـام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من ساء خُلُقه عذَّب نفسه»[3].

ملاحظة:

هـذه الأحاديـث إنَّـما تصـدق ويتحقَّـق مضـمونها في مجتمـع تـتحكَّم فيـه القـيم والمبـادئ، أمَّـا إذا تُركـت القـيم وراء السـتار، وتحكَّمـت المصـالح والأهواء، فلربَّما تجد مـن يصـاحب صـاحب الأخـلاق السـيِّئة ويجلـس معـه ويسـامره. ولكـن لـيكن معلومـاً أنَّ هـذه المصـاحبة هـي مـن نـوع مصـاحبة المصـالح، التـي تنتهـي بانتهـاء المصـلحة، وبعـدها تـتجهَّم الوجـوه، وتظهـر الحقائق وتبين.

التأثير الأخروي للخُلُق:

وللخُلُق تـأثير مهـمٌّ وخطـر جـدّاً في الآخـرة، وذلـك مـا كشـفت عنـه

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٧٥: ٧٦ و٧٧/ ح ٤٧.
(٢) جامع أحاديث الشيعة للبروجردي ١٣: ٥١٢/ ح (١٤٣٨/ ٩)، عن جامع الأخبار.
(٣) الكافي للكليني ٢: ٣٢١/ باب سوء الخُلُق/ ح ٤.

الروايات الشريفة، فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: أبىٰ الله عزّ وجلّ لصاحب الخُلُق السيِّئ بالتوبة، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: لأنَّه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه»(١).

وعن أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام، قال: «أُتي رسول الله صلى الله عليه وآله فقيل: إنَّ سعد بن معاذ قد مات، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله، وقام أصحابه، فحمل فأمر فغُسِّل...» إلىٰ أن دفنه، وقال صلى الله عليه وآله: «إنَّ سعداً قد أصابته ضمَّة...، **إنَّه كان في خُلُقِه مع أهله سوءٌ**»(٢).

ومن هنا ورد عنه صلى الله عليه وآله: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «حسِّن خُلُقك يُخفِّف الله حسابك»(٤).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ العبد ليبلغ بحسن خُلُقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنَّه لضعيف العبادة، وإنَّه ليبلغ بسوء خُلُقه أسفل درك من جهنَّم وهو عابد»(٥).

ولذا كانت سيرة الصالحين عموماً هي حسن الخُلُق، ونذكر هنا بعضاً من الروايات لتزيين هذه السطور:

عن أبان الأحمر، عن الصادق أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام، قال: «جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله - وقد بُلي ثوبه -، فحمل إليه اثني عشر درهماً، فقال عليه السلام: يا عليُّ، خذ هذه الدراهم فاشتر لي بها ثوباً ألبسه، قال عليٌّ عليه السلام: فجئت إلىٰ السوق فاشتريت له قميصاً باثني عشر

---

(١) الكافي ٢: ٣٢١/ باب سوء الخُلُق/ ح ٢.

(٢) علل الشرائع للصدوق ١: ٣٠٩ و٣١٠/ باب ٢٦٢/ ح ٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه للصدوق ٣: ٥٥٥/ ح ٤٩٠٨.

(٤) أمالي الصدوق: ٢٧٨/ ح (٣٠٨/ ٩).

(٥) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا: ٢١٣ و٢١٤/ ح ١٦٨.

درهماً، وجئت به إلىٰ رسول الله ﷺ، فنظر إليه فقال: يا عليُّ، غير هذا أحبُّ إليَّ، أترىٰ صاحبه يقيلنا؟ فقلت: لا أدري، فقال: انظر، فجئت إلىٰ صاحبه فقلت: إنَّ رسول الله ﷺ قد كره هذا يريد غيره فأقلنا فيه، فردَّ عليَّ الدراهم، وجئت بها إلىٰ رسول الله ﷺ، فمشىٰ معه إلىٰ السوق ليبتاع قميصاً، فنظر إلىٰ جارية قاعدة علىٰ الطريق تبكي، فقال لها رسول الله ﷺ: وما شأنكِ؟ قالت: يا رسول الله، إنَّ أهلي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم حاجة فضاعت، فلا أجسر أن أرجع إليهم، فأعطاها رسول الله ﷺ أربعة دراهم، وقال: ارجعي إلىٰ أهلكِ، ومضىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ السوق فاشترىٰ قميصاً بأربعة دراهم، ولبسه وحمد الله ﷻ، فرأىٰ رجلاً عرياناً يقول: من كساني كساه الله من ثياب الجنَّة، فخلع رسول الله ﷺ قميصه الذي اشتراه وكساه السائل، ثمّ رجع عليه السلام إلىٰ السوق فاشترىٰ بالأربعة التي بقيت قميصاً آخر، فلبسه وحمد الله ﷻ، ورجع إلىٰ منزله فإذا الجارية قاعدة علىٰ الطريق تبكي، فقال لها رسول الله ﷺ: ما لكِ لا تأتين أهلكِ؟ قالت: يا رسول الله، إنّي قد أبطأت عليهم أخاف أن يضربوني، فقال رسول الله ﷺ: مرّي بين يدي ودلّيني علىٰ أهلكِ، وجاء رسول الله ﷺ حتّىٰ وقف علىٰ باب دارهم، ثمّ قال: السلام عليكم يا أهل الدار، فلم يجيبوه، فأعاد السلام فلم يُجيبوه، فأعاد السلام فقالوا: وعليكم السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال عليه الصلاة والسلام: ما لكم تركتم إجابتي في أوّل السلام والثاني؟ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا كلامك فأحببنا أن نستكثر منه، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤذوها، فقالوا: يا رسول الله، هي حرَّة لممشاك، فقال رسول الله ﷺ:

الحمد لله، ما رأيت اثني عشر درهماً أعظم بركةً من هذه، كسا الله بها عاريين، وأعتق نسمة»[١].

وقال نصراني للإمام الباقر عليه السلام: أنت بقر؟ قال: «أنا باقر»، قال: أنت ابن الطبّاخة؟ قال: «ذاك حرفتها»، قال: أنت ابن السوداء الزنجية البذيَّة؟ قال: «إن كنت صدقت غفر الله لها، وإن كنت كذبت غفر الله لك»، قال: فأسلم النصراني[٢].

ومن الشواهد علىٰ ذلك أيضاً هو شعر حيص بيص، في قصَّة ذكرها ابن خلِّكان بترجمته، وهذا نصُّ ما حكاه:

قال الشيخ نصر الله بن مجلي مشارف الصناعة بالمخزن - وكان من ثقات أهل السُّنَّة -: رأيت في المنام عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، تفتحون مكّة فتقولون: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثمّ يتمُّ علىٰ ولدك الحسين يوم الطفِّ ما تمَّ؟

فقال: أمَا سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ فقلت: لا، فقال: اسمعها منه.

ثمّ استيقظت فبادرت إلىٰ دار حيص بيص، فخرج إليَّ، فذكرت له الرؤيا، فشهق وأجهش بالبكاء، وحلف بالله إن كانت خرجت من فمي أو خطّي إلىٰ أحد، وإن كنت نظمتها إلَّا في ليلتي هذه، ثمّ أنشدني:

ملكنا فكان العفو منّا سجيَّة ... فلمَّا ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحللتم قتل الأُسارىٰ وطالما ... غدونا علىٰ الأسرىٰ نعفو ونصفحُ

---

(١) الخصال للصدوق: ٤٩٠ و٤٩١/ ح ٦٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ٣٣٧.

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكلُّ إناء بالذي فيه ينضحُ[١]

ثالثاً: الصبر:

لا يشكُّ أحد في أهمّية الصبر في الحياة، هذه الحياة التي بُنيت علىٰ الصعاب والمتاعب، وهل من مرتاح في الدنيا!؟ وهل هناك من ادَّعىٰ ذلك!؟

اجتماعياً حيث يعيش المرء بين أفراد تتفاوت درجات إدراكهم وبالتالي تصرُّفاتهم، الأمر الذي يعني حدوث أُمور علىٰ غير ما تشتهيه النفس - وربَّما العقل -، وهذا ما يحتاج إلىٰ حسن تصرُّف في موقف حرج، وهنا احتاج الإنسان إلىٰ الصبر، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الصبر في الأُمور بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأُمور فسدت الأُمور»[٢].

إنَّ الصبر هو الملاك في السيطرة علىٰ مقتضيات الحياة، ومن يصبر عليها ينل منها ما أحبَّ، وعلىٰ الأقلّ يتخلَّص ممَّا لا يُحِبُّ منها، هذا فضلاً عن الثواب العظيم الذي أثبتته الروايات الشريفة لمن اتَّصف عملياً بالصبر.

عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنَّة فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: علىٰ ما صبرتم؟ فيقولون: كنّا نصبر علىٰ طاعة الله ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله عزَّ وجلَّ: صدقوا، أدخلوهم الجنَّة، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]»[٣].

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلِّكان ٢: ٣٦٤ و٣٦٥/ الرقم ٢٥٨.

(٢) الكافي للكليني ٢: ٩٠/ باب الصبر/ ح ٩.

(٣) الكافي للكليني ٢: ٧٥/ باب الطاعة والتقوىٰ/ ح ٤.

و(بغير حساب) يُحتَمل فيه أن يكون بمعنىٰ عدم المحاسبة أصلاً، ويُحتَمل أن يكون بمعنىٰ كثرة الجزاء بحيث لا يستطيع أحد حسابه[١].

وعن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه السلام أنَّ خلادة بنت أوس بشِّرها بالجنَّة، وأعلمها أنَّها قرينتك في الجنَّة، فانطلق إليها، فقرع الباب عليها، فخرجت وقالت: هل نزل فيَّ شيء؟ قال: نعم، قالت: وما هو؟ قال: إنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إليَّ وأخبرني أنَّكِ قرينتي في الجنَّة، وأن أُبشِّركِ بالجنَّة، قالت: أوَيكون اسم وافق اسمي؟ قال: إنَّكِ لأنتِ هي، قالت: يا نبيَّ الله ما أكذبك، ولا والله ما أعرف من نفسي ما وصفتني به، قال داود: أخبريني عن ضِميركِ وسريرتكِ ما هو؟ قالت: أمَّا هذا فسأُخبرك به، أُخبرك أنَّه لم يصبني وجع قطُّ نزل بي كائناً ما كان، ولا نزل بي ضرٌّ وحاجة وجوع كائناً ما كان إلَّا صبرت عليه، ولم أسأل الله كشفه عنّي حتَّىٰ يُحوِّله الله عنّي إلىٰ العافية والسعة، ولم أطلب بدلاً، وشكرت الله عليها وحمدته، فقال داود عليه السلام: فبهذا بلغتِ ما بلغتِ»، ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «وهذا دين الله الذي ارتضاه للصالحين»[٢].

وعلىٰ كل حال، ينبغي أن نتعرف علىٰ الصبر من وجهة عملية لا نظرية، حتىٰ نعمل علىٰ الاتصاف به، حتىٰ ننال هداية اللطف الإلهية.

أقسام الصبر:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر علىٰ الطاعة، وصبر عن المعصية»[٣].

---

(١) قال السيِّد عبد الله شبَّر في تفسيره (شرح ص ٤٣٣) في تفسير الآية المذكورة: (أي لا يُحصَر لكثرته، أو لا يُحاسَبون).

(٢) قصص الأنبياء للراوندي: ٢٠٩/ ح ٢٦٩.

(٣) الكافي للكليني ٢: ٩١/ باب الصبر/ ح ١٥.

١ - الصبر علىٰ الطاعة:

من الواضح أنَّ كثيراً من الطاعات تتعارض مع مشتهيات النفس، فالنفس تميل إلىٰ الراحة والدعة، وتكره التزام نظام خاصٍّ يُملي عليها تصرُّفاتها، ولذا احتاج الإنسان إلىٰ الصبر حتَّىٰ يحبس نفسه علىٰ الطاعة، يقول تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ ﴿٥﴾﴾ (القيامة: ٥).

فالنفس تهوىٰ الأكل والنوم عندما تهبُّ ريح الصبا وقت الفجر، والطاعة تقتضي ترك الأكل في شهر رمضان، وقلع النوم من العين ليقوم العبد يُصلّي فجراً، ولا معين علىٰ ذلك إلَّا الصبر. وهكذا في كثير من التصرُّفات الفردية والاجتماعية، الطاعة تقتضي شيئاً، والشهوات وربَّما الأعراف والتقاليد تقتضي أمراً آخر.

عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنَّ رجلاً من الأنصار علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في بعض حوائجه، فعهد إلىٰ امرأته عهداً ألَّا تخرج من بيتها حتَّىٰ يقدم»، قال: «وإنَّ أباها مرض، فبعثت المرأة إلىٰ النبيِّ صلى الله عليه وآله، فقالت: إنَّ زوجي خرج وعهد إليَّ أن لا أخرج من بيتي حتَّىٰ يقدم، وإنَّ أبي قد مرض، فتأمرني أن أعوده؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا، اجلسي في بيتكِ وأطيعي زو-تكِ»، قال: «فثقل فأرسلت إليه ثانياً بذلك، فقالت: فتأمرني أن أعوده؟ فقال: اجلسي في بيتكِ وأطيعي زوجكِ»، قال: «فمات أبوها، فبعثت إليه أنَّ أبي قد مات، فتأمرني أن أُصلّي عليه؟ فقال: لا، اجلسي في بيتكِ وأطيعي زوجكِ، قال: فدُفِنَ الرجل، فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الله قد غفر لكِ ولأبيكِ بطاعتكِ لزوجكِ»[1].

وحتَّىٰ يكون عند المؤمن دافع مهمٌّ وحافز قويٌّ لالتزام الصبر علىٰ

---

(١) الكافي للكليني ٥: ٥١٣/ باب ما يجب عن طاعة الزوج علىٰ المرأة/ ح ١.

الطاعة، عليه أن يعلم أنَّه ما من شيء فرضه الله تعالىٰ إلَّا وهو راجع إلىٰ مصلحته، فإنَّ الله تعالىٰ لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرُّه معصية من عصاه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عزَّ وجلَّ له قضاءً إلَّا كان خيراً له، وإن قُرِّض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له»(١).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن عليِّ بن الحسين عليه السلام، قال: «الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضىٰ عليه فيما أحبَّ أو كره، لم يقض الله عزَّ وجلَّ له فيما أحبَّ أو كره إلَّا ما هو خير له»(٢).

وعن الأصبغ بن نباته، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أوحىٰ الله عزَّ وجلَّ إلىٰ داود عليه السلام: يا داود، تريد وأُريد ولا يكون إلَّا ما أُريد، فإن أسلمت لما أُريد أعطيتك ما تريد، وإن لم تُسلِّم لما أُريد أتعبتك فيما تريد، ثمّ لا يكون إلَّا ما أُريد»(٣).

٢ - الصبر عن المعصية:

كما أنَّ التزام الطاعات مخالف لهوىٰ النفس، فإنَّ ارتكاب كثير من المعاصي موافق لهواها، ومخالفة الموافق أصعب من موافقة المخالف، وترك المعاصي أصعب من فعل الطاعات، خصوصاً مع زيادة عرض المعاصي وتنويع أساليب الإغراء، الأمر الذي يحتاج إلىٰ تمسُّك شديد بالصبر، وتوسُّل دائم بالله تعالىٰ، حتَّىٰ يتمكَّن العبد من مخالفة الأهواء.

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٦٢/ باب الرضا بالقضاء/ ح ٨.

(٢) الكافي للكليني ٢: ٦٠/ باب الرضا بالقضاء/ ح ٣.

(٣) التوحيد للصدوق: ٣٣٧/ باب ٥٥/ ح ٤.

إنَّ النفس - وحتّىٰ تصل إلىٰ مشتهاها - مستعدَّة لعمل أيِّ شيء، فشعار النفس في الحقيقة هو أنَّ الغاية تُبرِّر الوسيلة، فلكي تكون غنيّاً استعمل أيَّ وسيلة، قتلٍ أو سلبٍ أو ربا أو بخسٍ في الميزان أو سرقة أو تحايلٍ.

وبين نزوات النفس، وتسويلات إبليس، وتعدُّد وسائل الحرام، احتاج المرء إلىٰ الصبر ملجأً منها.

عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ الحُرَّ حُرٌّ علىٰ جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها وإن تداكَّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أُسِرَ وقُهِرَ واستُبدِلَ باليسر عسراً، كما كان يوسف الصدّيق الأمين صلوات الله عليه لم يضرر حرّيته أن استُعبِدَ وقُهِرَ وأُسِرَ، ولم تضرره ظلمة الجُبِّ ووحشته، وما ناله أن منَّ الله عليه فجعل الجبّار العاتي له عبداً بعد إذ كان [له] مالكاً، فأرسله ورحم به أُمَّة، وكذلك الصبر يُعقِّب خيراً، فاصبروا ووطِّنوا أنفسكم علىٰ الصبر توجروا»[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سيأتي علىٰ الناس زمان لا يُنال المُلك فيه إلَّا بالقتل والتجبُّر، ولا الغنىٰ إلَّا بالغصب والبخل، ولا المحبَّة إلَّا باستخراج الدِّين واتِّباع الهوىٰ، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر علىٰ الفقر وهو يقدر علىٰ الغنىٰ، وصبر علىٰ البغضة وهو يقدر علىٰ المحبَّة، وصبر علىٰ الذلِّ وهو يقدر علىٰ العزِّ، آتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممَّن صدَّق بي»[2].

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٨٩/ باب الصبر/ ح ٦.

(٢) الكافي للكليني ٢: ٩١/ باب الصبر/ ح ١٢.

ويقول رسول الله ﷺ: «... ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلىٰ الدرجة كما بين تخوم الأرض إلىٰ منتهىٰ العرش»[1].

٣ - الصبر عند المصيبة:

لم يكن للإنسان بُدٌّ من مواجهة ما يمرُّ عليه في الدنيا، وليس كلُّ ما يمرُّ عليه يسرُّه، ولم يكن له علمُ الغيب حتَّىٰ يعلم مصلحته من مفسدته، فتراه يعتبر كثيراً من الأُمور التي تمرُّ عليه مصائب، وقد تكون في حقيقتها نِعَماً. وعلىٰ كلِّ حالٍ، عَلِمَ الإنسان أو لم يعلم، فإنَّه لا بدَّ له من المواجهة.

ولكن كيف يواجه؟ لا بدَّ له من وسيلة يحفظ بها نفسه وأجره ودينه، وما ذاك إلَّا الصبر.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «الصبر يُظهِر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يُظهِر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة، والصبر يدَّعيه كلُّ أحد، ولا يبين عنده إلَّا المخبتون، والجزع ينكره كلُّ أحد، وهو أبين علىٰ المنافقين، لأنَّ نزول المحنة والمصيبة، يُخبِر عن الصادق والكاذب»[2].

والحقيقة أنَّ تلمُّسَ حقيقة الصبر عند المصيبة صعب المنال، ولكن أقرب ما يُقرِّبه هو أن نطالع حياة الصابرين عند المصائب، لنتعلَّم منهم ذلك.

عن عبد الرحمن بن عثمان، قال: دخلنا علىٰ معاذ وهو قاعد عند

---

(١) الكافي للكليني ٢: ٩١/ باب الصبر/ ح ١٥.

(٢) مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام: ٤١٤.

رأس ابن له، وهو يجود بنفسه، فما ملكنا أنفسنا أن ذرفت أعيننا، وانتحب بعضنا، فزجره معاذ، وقال: مَهْ، فوَالله ليعلم الله برضاي، لهذا أحبّ إليَّ من كلِّ غزوة غزوتها مع رسول الله ﷺ، فإنّي سمعته يقول: «من كان له ابن وكان عليه عزيزاً، وبه ضنيناً، ومات فصبر علىٰ مصيبته واحتسبه، أبدل الله الميِّت داراً خيراً من داره، وقراراً خيراً من قراره، وأبدل المصاب الصلاة والرحمة والمغفرة والرضوان»، فما برحنا حتَّىٰ قضىٰ - والله - الغلام حين أخذ المنادي لصلاة الظهر، فرحنا نريد الصلاة، فما جئنا إلَّا وقد غسَّله وحنَّطه وكفَّنه. وجاء رجل بسريره غير منتظر لشهود الإخوان، ولا لجمع الجيران، فلمَّا بلغنا ذلك تلاحقنا، وقلنا: يغفر الله لك يا أبا عبد الرحمن، هلَّا انتظرتنا حتَّىٰ نفرغ من صلاتنا، ونشهد ابن أخينا؟ فقال: أُمرنا أن لا ننتظر موتانا ساعة ماتوا بليل أو نهار، قال: فنزل في القبر، ونزل معه آخر، فلمَّا أراد الخروج ناولته يدي لأنتهضه من القبر، فأبىٰ وقال: ما أدع ذلك لفضل قوَّتي، ولكن أكره أن يرىٰ الجاهل أنَّ ذلك منّي جزع، أو استرخاء عند المصيبة. ثمّ أتىٰ مجلسه، ودعا بدهن فأدهن، وبكحل فاكتحل، وببردة فلبسها، وأكثر في يومه ذلك من التبسُّم، ينوي به ما ينوي، ثمّ قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، في الله خلف عن كلِّ هالك، وعزاء من كلِّ مصيبة، ودرك لكلِّ ما فات[1].

وقال أبان بن تغلب: دخلت علىٰ امرأة وقد نزل بابنها الموت، فقامت إليه، فغمَّضته وسجَّته، ثمّ قالت: يا بنيَّ، ما الجزع فيما لا يزول، وما البكاء فيما ينزل بك غداً. يا بنيَّ، تذوق ما ذاق أبوك، وستذوقه من

---

(١) مسكن الفؤاد للشهيد الثاني: ٦١.

بعدك أُمُّك، وإنَّ أعظم الراحة لهذا الجسد النوم والنوم أخو الموت، فما عليك إن كنت نائماً علىٰ فراشك أو علىٰ غيره، وإنَّ غداً السؤال والجنَّة أو النار، فإن كنت من أهل الجنَّة فما ضرَّك الموت، وإن كنت من أهل النار فما ينفعك الحياة ولو كنت أطول الناس عمراً. يا بنيَّ، لولا أنَّ الموت أشرف الأشياء لابن آدم لما أمات الله نبيَّه ﷺ وأبقىٰ عدوَّه إبليس[١].

وعن بعضهم، قال: خرجت أنا وصديق لي إلىٰ البادية، فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق، فقصدنا نحوها، فسلَّمنا، فإذا بامرأة تردُّ علينا السلام، وقالت: من أنتم؟

قلنا: ضالّون، فأتيناكم، فاستأنسنا بكم.

فقالت: يا هؤلاء، ولّوا وجوهكم عنّي، حتَّىٰ أقضي من حقِّكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فألقت لنا مسحاً، وقالت: اجلسوا عليه إلىٰ أن يأتي ابني.

ثمّ جعلت ترفع طرف الخيمة وتردُّها إلىٰ أن رفعته مرَّة، فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أمَّا البعير فبعير ابني، وأمَّا الراكب فليس هو به.

قال: فوقف الراكب عليها، وقال: يا أُمَّ عقيل عظَّم الله أجركِ في عقيل ولدكِ، فقالت له: ويحك مات!؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر، فقالت: انزل واقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً، فذبحه وأصلحه وقرَّب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل ونتعجَّب من صبرها، فلمَّا فرغنا خرجت إلينا وقالت: يا قوم، هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئاً؟ فقلت: نعم، قالت: فاقرأ عليَّ آيات أتعزّىٰ بها عن ولدي.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٧٩: ١٥٢.

فقلت: يقول الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

قالت: بالله إنّها في كتاب الله هكذا؟ قلت: والله إنّها لفي كتاب الله هكذا، فقالت: السلام عليكم، ثمّ صفَّت قدميها وصلَّت ركعات، ثمّ قالت: اللّهمّ إنّي قد فعلت ما أمرتني به، فأنجز لي ما وعدتني به، ولو بقي أحد لأحد - قال: فقلت في نفسي تقول: لبقي ابني لحاجتي إليه، فقالت: - لبقي محمّد ﷺ لأُمَّته. فخرجت وأنا أقول: ما رأيت أكمل منها ولا أجزل[1].

ولا تنسَ أنَّك توالي من صبروا علىٰ البلاء فوفّاهم الله أُجور الصابرين، وبصبرهم حصلوا علىٰ مقام الرضا الإلهي، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر علىٰ بلائه، ويوفّينا أُجور الصابرين»[2].

رابعاً: برُّ الوالدين:

يُولَد الإنسان فيجد نفسه محاطاً بعائلة، قد فُرِضَت عليه، لمصلحة رآها الله تعالىٰ، فليس لك الخيار في اختيار أب معيَّن أو أُمٍّ محدَّدة، ولا أن تستبدل أباً بآخر.

والآباء عموماً يُحِبُّون الخير لأولادهم، فحتَّىٰ لو كان الأب حمّالاً - مع احترامنا للحمّال في جهاده من أجل لقمة عيشه - لتمنّىٰ أن يكون أبناؤه أطبّاء ومهندسين. وحتَّىٰ لو كان منحرفاً، لرجا أن يكون أبناؤه صالحين. ولذا تجده يحرص علىٰ توفير أفضل حياة يمكنه توفيرها لهم.

---

(١) مسكن الفؤاد للشهيد الثاني: ٧٦ و٧٧.

(٢) مثير الأحزان لابن نما: ٢٩.

وفـوق هـذا قـد أودع الله تعـالىٰ غريـزة في نفـوس النـاس تقضـي باسـتعدادهم للتضـحية مـن أجـل الأولاد، لـيس فقـط بالمـال، بـل بالراحـة والعلاقـات، وحتّـىٰ بـالنفس لـو استلزم الأمـر، ولـيس هنـاك مـن عاطفـة أقوىٰ من عاطفة الآباء والأُمَّهات علىٰ الأبناء.

وقد اطَّلع الله تعالىٰ علىٰ ذلك، وكان قد أجرىٰ قانوناً تشـريعياً يستلزمه قانون تكويني يقول: ﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ ۝﴾ (الرحمن: ٦٠)، فهذا فرض تشـريعي من الله تعالىٰ، ومن التـزم بـه يتبعـه توفيـق مـن الله تعـالىٰ ولطف يتمنّاه الجميع، ففَرَضَ كتطبيق لهذا التشـريع برَّ الوالدين.

موقع البرِّ بالوالدين في الإسلام:

يمكننا استكشاف موقع البرِّ من خلال بعض الآيات والروايات.

يقـول تعـالىٰ: ﴿وَقَضـىٰ رَبُّـكَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيّـاهُ وَبِـالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَـبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِـبَرَ أَحَـدُهُما أَوْ كِلاهُمـا فَـلا تَقُـلْ لَهُمـا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً ۝﴾ (الإسراء: ٢٣).

وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن حقِّ الوالدين، فقال: «هما جنَّتك ونارك»[١].

وقـال ﷺ: «رضـا الـربِّ في رضـا الوالـد، وسـخط الـربِّ في سـخط الوالد»[٢].

ويقـول الإمـام الرضـا عليه السلام: «بـرُّ الوالـدين واجـب، ولا طاعـة لهـما في معصية الله عزَّ وجلَّ»[٣].

وعـن أبي الحسـن موسـىٰ عليه السلام، قـال: «سـأل رجـل رسـول الله ﷺ:

(١) سنن ابن ماجة ٢: ١٢٠٨/ ح ٣٦٦٢.

(٢) سنن الترمذي ٣: ٢٠٧/ ح ١٩٦٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ٢: ١٣٢/ ح ١.

ما حقُّ الوالد علىٰ ولده؟ قال: لا يُسمّيه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسب[1] له»[2].

ولا يشكُّ أحد بعد هذا بأهمّية برِّ الوالدين إلَّا من سفه نفسه، فليس هناك من أحد يجب طاعته مثل الوالدين، ولكن هذا ليس علىٰ إطلاقه، بل هناك بعض الاستثناءات وبعض الأحكام التي يجب الالتفات إليها:

أوّلاً: إنَّما تجب طاعة الوالدين فيما إذا لم يتعارض أمرهما مع أمر الله تعالىٰ والرسول ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ففي خبر الأعمش، عن جعفر بن محمّد عليهما السلام، قال: «برُّ الوالدين واجب، فإن كانا مشركين فلا تطعهما ولا غيرهما في المعصية، فإنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[3].

فالولد البالغ يجب عليه الصوم وإن نهاه أبواه، ويجب عليه أن يُخمِّس أمواله الخاصَّة به وإن نهاه أبواه، وهكذا في جميع الواجبات.

نعم، إذا كان الواجب كفائياً ووجد من يقوم به غيره، فلعلَّ إطاعة الوالدين ستكون أهمّ، (وهذه المسألة يرجع فيها كلُّ فرد إلىٰ المرجع الذي يُقلِّده في الفقه).

ورد عن جابر، قال: أتىٰ رسول الله ﷺ رجل، فقال: إنّي رجل شاب نشيط وأُحِبُّ الجهاد، ولي والدة تكره ذلك، فقال له النبيُّ ﷺ:

---

(١) أي لا يفعل ما يصير سبباً لسبِّ الناس له، كأن يسبَّهم أو آباءهم وقد يسبُّ الناس والد من يفعل فعلاً شنيعاً قبيحاً. (من المصدر).

(٢) الكافي للكليني ٢: ١٥٨ و١٥٩/ باب البرِّ بالوالدين/ ح ٥.

(٣) الخصال للصدوق: ٦٠٨/ ح ٩.

«ارجع فكن مع والدتك، فوَالـذي بعثني بـالحقِّ نبيّـاً لأُنسـها بـك ليلـة خـير من جهادك في سبيل الله سنة»[١].

وفي رواية أُخرىٰ عن جابر، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «أتىٰ رجل رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله، إنّي راغب في الجهاد نشيط، قال: فقـال لـه النبـيُّ صلى الله عليه وآله: فجاهد في سبيل الله، فإنَّك إن تُقتَل تكن حيّاً عند الله تُرزَق، وإن تمُتْ فقد وقع أجرك علىٰ الله، وإن رجعت رجعت من الذنوب كما وُلِدْتَ، قال: يا رسول الله، إنَّ لي والدين كبيرين يزعمان أنَّهما يأنسان بي ويكرهان خروجي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فَقِرّ مع والديك، فوَالذي نفسي بيده لأُنسهما بك يوماً وليلةً خيرٌ من جهاد سنة»[٢].

أمَّـا إذا كـان الأمـر مستحبّاً، وكـان فعلـه يـؤذي الأبـوين مـن جهـة الشـفقة مـنهما عـلىٰ ولـدهما، فحينئـذٍ يجـب عـلىٰ الولـد أن يطـيعهما ويـترك المستحبَّ، ولـذا حكـم الفقهـاء بأنَّـه لـو أراد الولـد أن يسـافر، وكـان الوالـد يشفق علىٰ ولده من سفره، بأن كـان يتـأذّىٰ عليـه، وجـب عـلىٰ الولـد إطاعـة والده حتَّىٰ وإن حرم الولد من تحقيق رغبته إذا لم يتضرَّر بترك السفر[٣].

يقـول الإمـام السـجّاد عليه السلام في رسـالة الحقـوق: «وأمَّـا حـقُّ أبيـك، فـأن تعلـم أنَّـه أصـلك، وأنَّـه لـولاه لم تكـن، فمهـما رأيـت في نفسـك ممَّـا يُعجِبـك فـاعلم أنَّ أبـاك أصـل النعمـة عليـك فيـه، فاحمـد الله واشـكره عـلىٰ قدر ذلك، ولا قوَّة إلَّا بالله»[٤].

---

(١) الكافي للكليني ٢: ١٦٣/ باب البرِّ بالوالدين/ ح ٢٠.

(٢) الكافي للكليني ٢: ١٦٠/ باب البرِّ بالوالدين/ ح ١٠.

(٣) راجع: الفتاوىٰ الميسَّرة للسيِّد السيستاني: ٣٩٤ و٣٩٥.

(٤) أمالي الصدوق: ٤٥٣ و٤٥٤/ ح (٦١٠/ ١).

ثانياً: وبعد هذا يجب البرُّ بهما والإحسان إليهما وإن كانا ظالمين للولد، بل وإن كانا مشركين.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من نظر إلىٰ أبويه نظر ماقت، وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاة»(١).

وعن جابر، قال: سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ لي أبوين مخالفين، فقال: «برَّهما كما تبرُّ المسلمين ممَّن يتولّانا»(٢).

ولعلَّ برَّ الكافرين يتسبَّب بإيمانهما، كما حصل لزكريا بن إبراهيم، فقد روي عنه أنَّه قال: كنت نصرانياً، فأسلمت وحججت، فدخلت علىٰ أبي عبد الله عليه السلام، فقلت: إنّي كنت علىٰ النصرانية، وإنّي أسلمت فقال: «وأيَّ شيء رأيت في الإسلام؟»، قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلاَ الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

فقال: «لقد هداك الله»، ثمّ قال: «اللّهمّ اهده - ثلاثاً -، سَلْ عمَّا شئت يا بنيَّ»، فقلت: إنَّ أبي وأُمّي علىٰ النصرانية وأهل بيتي، وأُمّي مكفوفة البصر، فأكون معهم وآكل في آنيتهم؟ فقال: «يأكلون لحم الخنزير؟»، فقلت: لا، ولا يمسّونه.

فقال: «لا بأس، فانظر أُمَّك فبرّها، فإذا ماتت فلا تكلها إلىٰ غيرك، كن أنت الذي تقوم بشأنها، ولا تخبرنَّ أحداً أنَّك أتيتني حتَّىٰ تأتيني بمنىٰ إن شاء الله».

قال: فأتيته بمنىٰ والناس حوله كأنَّه معلِّم صبيان، هذا يسأله وهذا يسأله. فلمَّا قدمت الكوفة ألطفت لأُمّي وكنت أطعمها وأفلي ثوبها

(١) الكافي للكليني ٢: ٣٤٩/ باب العقوق/ ح ٥.
(٢) الكافي للكليني ٢: ١٦٢/ باب البرِّ بالوالدين/ ح ١٤.

ورأسها وأخدمها. فقالت لي: يا بنيَّ، ما كنت تصنع بي هذا وأنت علىٰ ديني، فما الذي أرىٰ منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية؟ فقلت: رجل من ولد نبيِّنا أمرني بهذا، فقالت: هذا الرجل هو نبيٌّ؟ فقلت: لا، ولكنَّه ابن نبيٍّ. فقالت: يا بنيَّ، إنَّ هذا نبيٌّ، إنَّ هذه وصايا الأنبياء، فقلت: يا أُمَّه، إنَّه ليس يكون بعد نبيِّنا نبيٌّ، ولكنَّه ابنه.

فقالت: يا بنيَّ، دينك خير دين، اعرضه عليَّ، فعرضته عليها، فدخلت في الإسلام، وعلَّمتها، فصلَّت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثمّ عرض لها عارض في الليل، فقالت: يا بنيَّ، أعد عليَّ ما علَّمتني! فأعدته عليها، فأقرَّت به وماتت.

فلمَّا أصبحت كان المسلمون الذين غسَّلوها، وكنت أنا الذي صلَّيت عليها ونزلت في قبرها[1].

ثالثاً: للولد استقلاله المالي، فيجوز له التصرُّف بأمواله كيفما يحلو له، ولكن ينبغي أن لا يتسبَّب في إيذاء والديه. نعم، يجب عليه أن يُنفِق علىٰ أبويه من أمواله إذا كانا فقيرين وهو غنيٌّ، وأمَّا إذا كان هو فقيراً أيضاً أو كانا غنيَّين، فلا تجب عليه نفقتهما[2].

---

(١) الكافي للكليني ٢: ١٦٠ و١٦١/ باب البرِّ بالوالدين/ ح ١١.

(٢) منهاج الصالحين للسيِّد السيستاني (ج ٣/ ص ١٣٢): (مسألة ٤٤٢: يُشترَط في وجوب الإنفاق علىٰ القريب فقره، بمعنىٰ عدم وجدانه لما يحتاج إليه في معيشته فعلاً من طعام وإدام وكسوة وفراش وغطاء ومسكن ونحو ذلك، فلا يجب الإنفاق علىٰ الواجد لنفقته فعلاً وإن كان فقيراً شرعاً أي لا يملك مؤنة سنته...).

وفيه (ج ٣/ ص ١٣٣): (مسألة ٤٤٦: يُشترَط في وجوب الإنفاق علىٰ القريب قدرة المنفق علىٰ نفقته بعد نفقة نفسه وزوجته الدائمة، فلو حصل له قدر كفاية نفسه وزوجته خاصَّة لم يجب عليه الإنفاق علىٰ أقربائه، ولو زاد من نفقة نفسه وزوجته شيء صرفه في الإنفاق عليهم...).

ولكن هذا لا يعني أن يقطع يده عنهما، فلا شكَّ أنَّ الإحسان إليهما هو من مقتضيات البرِّ كما اتَّضح.

رابعاً: الروايات تؤكِّد علىٰ أنَّ حقَّ الأُمِّ في البرِّ أقوىٰ وأشدّ من حقِّ الأب، ولعلَّ ذلك كان من أجل أنَّ الأُمَّ مظهر للرحمة الإلهيَّة، فالنبيُّ ﷺ رأىٰ يوماً أُمّاً قد فقدت ابنها، وهي تبحث عنه بلهفة وبكاء، وما أن وجدته حتَّىٰ ضمَّته إلىٰ صدرها باكية وانهالت عليه بالقُبَل، فسأل أصحابه عن عظم رحمة الأُمِّ بولدها، ثمّ أخبرهم بأنَّ الله تعالىٰ لأرحم بعباده من هذه الأُمِّ بولدها[1]، فرحمة الله تعالىٰ لا يمكن تصويرها إلَّا برحمة الأُمِّ بولدها.

ولا يعني هذا أنَّ مقدار الرحمة الإلهيَّة هو هذا، ولكنَّه أقرب ما يُوضِّح الصورة.

- وهي أحوج إلىٰ ولدها من أبيه، فالأب عنده من قوَّة القلب ما يمكنه أن يستغني عن ولده، ولكن الأُمّ إنَّما تُربّي ولدها، وكُلُّها أملٌ بأن تراه يبرّها في آخر حياتها.

- ولأنَّ حقَّها أعظم، لأنَّ مهمَّتها في حضانة وتربية الولد أصعب من الوالد، فالأب تنتهي مهمَّته بإلقاء نطفته في رحم الأُمِّ، ولكن الأُمّ تبقىٰ تعالج روحها تسعة أشهر ترىٰ فيها الموت بالأقساط! ثمّ تبدأ عندها مهمَّة جديدة في حضانة الولد التي لا يمكن للأب أن يتحمَّل بعض مفرداتها، وهل رأيت أباً يُنظِّف ولده ممَّا يخرج من بطنه!؟ وهل رأيت أباً يسهر حتَّىٰ الصباح من أجل إسكات ولده!؟

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في رسالة الحقوق: «وأمَّا حقُّ أُمِّك،

---

(١) راجع: صحيح البخاري ٧: ٧٥.

فأن تعلم أنَّها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يُعطي أحد أحداً، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتُطعِمك، وتعطش وتسقيك، وتعرىٰ وتكسوك، وتضحىٰ وتظلّك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحرَّ والبرد، لتكون لها، وإنَّك لا تطيق شكرها إلَّا بعون الله وتوفيقه»[1].

عن إبراهيم بن مهزم، قال: خرجت من عند أبي عبد الله عليه السلام ليلة ممسياً، فأتيت منزلي بالمدينة، وكانت أُمّي معي، فوقع بيني وبينها كلام، فأغلظت لها، فلمَّا أن كان من الغد صلَّيت الغداة، وأتيت أبا عبد الله عليه السلام، فلمَّا دخلت عليه فقال لي مبتدئاً: «يا أبا مهزم، ما لك وللوالدة أغلظت في كلامها البارحة؟ أمَا علمت أنَّ بطنها منزل قد سكنته، وأنَّ حجرها مهد قد غمزته، وثديها وعاء قد شربته؟»، قال: قلت: بلىٰ، قال: «فلا تغلظ لها»[2].

خامساً: في قضيَّة الزواج، البنت الباكر ليس لها أن تتزوَّج إلَّا بإذن أبيها أو جدِّها لأبيها، وإذا كان أبوها وجدُّها لأبيها ميِّتين فهي مالكة أمرها[3].

---

(١) أمالي الصدوق: ٤٥٣/ ح (٦١٠/ ١).

(٢) بصائر الدرجات للصفّار: ٢٦٣/ الجزء ٥/ باب ١١/ ح ٣.

(٣) منهاج الصالحين للسيد السيستاني (ج ٣/ ص ٢٨): (**مسألة ٦٧**: لا ولاية للأب ولا الجدِّ للأب علىٰ البالغ الرشيد، ولا علىٰ البالغة الرشيدة إذا كانت ثيِّباً. وأمَّا إذا كانت بكراً، فإن كانت مالكة لأمرها ومستقلَّة في شؤون حياتها لم يكن لأبيها ولا جدِّها لأبيها أن يُزوِّجها من دون رضاها علىٰ الأقوىٰ. وهل لها أن تتزوَّج من دون إذن أحدهما؟ فيه إشكال، فلا تُترَك مراعاة مقتضىٰ الاحتياط فيه. وأمَّا إذا كانت غير مستقلَّة في شؤون حياتها فليس لها أن تتزوَّج من دون إذن أبيها أو جدِّها لأبيها علىٰ الأظهر. وهل لأبيها أو جدِّها لأبيها أن يُزوِّجها من دون رضاها؟ فيه إشكال، فلا تُترَك مراعاة مقتضىٰ الاحتياط فيه. ⇦

نعم، ينبغي لها أن لا تترك الأعراف والتقاليد التي تحكم المجتمعات المسلمة، فتستأذن أخاها مثلاً[1].

وأمَّا الولد، فلا شكَّ أنَّ من أهمّ ما يضفي التوافق والتفاهم تربوياً بينه وبين أبيه وأُمِّه هو أن يستأذن أباه وأُمَّه في مسألة اختياره لزوجته، وعلىٰ الأبوين أن يتفهَّما اختيار ولده، وأن يُرشداه نحو الاختيار الصحيح.

سادساً: لا يتصوَّرَنَّ أحدٌ أنَّه يستطيع أن يؤدّي حقَّ أبويه مهما فعل، وقد روي أنَّه سأل رجل رسول الله ﷺ أن هل أعطىٰ أُمَّه حقَّها وبرَّها وقد حملها علىٰ ظهره من بيته وأكمل حجَّها علىٰ ظهره، فأخبره النبيُّ ﷺ بأنَّه لم يعادل حقَّ طلقة واحدة من أُمِّه[2]!

ومن هنا أمرتنا الروايات الشريفة بمزيد من التعظيم للوالدين، إلىٰ الحدِّ الذي يُروىٰ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنَّ أبي نظر إلىٰ رجل ومعه ابنه يمشي والابن متَّكئ علىٰ ذراع الأب»، قال: «فما كلَّمه أبي عليه السلام مقتاً له حتَّىٰ فارق الدنيا»[3].

⇦ **مسألة ٦٨**: لا فرق فيما تقدَّم من اشتراط إذن الوليِّ في زواج الباكرة الرشيدة بين الزواج الدائم والمنقطع ولو مع اشتراط عدم الدخول في ضمن العقد).

(١) منهاج الصالحين للسيِّد السيستاني (ج ٣/ ص ٢٩): (**مسألة ٧١**: ينبغي للمرأة المالكة أمرها أن تستأذن أباها أو جدَّها، وإن لم يكونا فأخاها، وإن تعدَّد الأخ قدَّمت الأكبر).

(٢) روي أنَّه شكىٰ رجل إلىٰ رسول الله ﷺ سوء خُلُق أُمِّه، فقال: «لم تكن سيِّئة الخُلُق حين حملتك تسعة أشهر»، قال: إنَّها سيِّئة الخُلُق، قال: «لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين»، قال: إنَّها سيِّئة الخُلُق، قال: «لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها»، قال: لقد جازيتها، قال: «ما فعلت»، قال: حججت بها علىٰ عاتقي، قال: «ما جزيتها ولو طلقة». (تفسير الكشّاف للزمخشري ٢: شرح ص ٤٤٥).

(٣) الكافي للكليني ٢: ٣٤٩/ باب العقوق/ ح ٨.

سابعاً: وعلىٰ ما لم يتمكَّن من برِّ والديه في حياتهما لصغر سنِّه أو لعقوقه، أن يعمل علىٰ تدارك هذا الأمر ويعمل علىٰ برِّهما بعد مماتهما.

فعن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنَّ العبد ليكون بارّاً بوالديه في حياتهما، ثمّ يموتان فلا يقضي عنهما ديونهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عزّ وجلّ عاقّاً. وإنَّه ليكون عاقّاً لهما في حياتهما غير بارٍّ بهما، فإذا ماتا قضىٰ دينهما واستغفر لهما، فيكتبه الله عزّ وجلّ بارّاً»[١].

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «مرَّ عيسىٰ بن مريم عليه السلام بقبر يُعذَّب صاحبه، ثمّ مرَّ به من قابل فإذا هو لا يُعذَّب، فقال: يا ربِّ، مررت بهذا القبر عام أوَّل فكان يُعذَّب، ومررت به العام فإذا هو ليس يُعذَّب؟ فأوحىٰ الله إليه أنَّه أُدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوىٰ يتيماً، فلهذا غفرت له بما فعل ابنه...»[٢].

الأثر التشريعي والتكويني لبرِّ الوالدين:

أمَّا الأثر التشريعي، فهو قبول الأعمال، فإنَّ من يبرُّ والديه يصبح عنده ضمانة مهمَّة من ضمانات قبول الأعمال، وهو ما عبَّرت عنه الروايات بأنَّ رضي الله في رضا الوالدين[٣]، وأنَّ الجنَّة تحت أقدام الأُمَّهات[٤].

عن سعيد بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام يقول: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله حضر شابّاً عند وفاته، فقال له: قل لا إله إلَّا الله، قال: فاعتقل لسانه مراراً، فقال لامرأة عند رأسه: هل لهذا أُمٌّ؟

---

(١) الكافي للكليني ٢: ١٦٣/ باب البرِّ بالوالدين/ ح ٢١.

(٢) الكافي للكليني ٦: ٣ و٤/ باب فضل الولد/ ح ١٢.

(٣) راجع: روضة الواعظين للفتّال النيسابوري: ٣٦٨.

(٤) تفسير الثعلبي ٧: ٢٧٢.

قالت: نعم، أنا أُمُّه، قال: أفساخطة أنتِ عليه؟ قالت: نعم، ما كلَّمته منذ ستّ حجج، قال لها: ارضي عنه، قالت: رضي الله عنه يا رسول الله برضاك عنه. فقال له رسول الله: قل لا إله إلَّا الله»، قال: «فقالها، فقال النبيُّ ﷺ: ما ترىٰ؟ قال: أرىٰ رجلاً أسود الوجه، قبيح المنظر، وسخ الثياب، نتن الريح، قد وليني الساعة وأخذ بكظمي، فقال له النبيُّ ﷺ: قل: يا من يقبل اليسير، ويعفو عن الكثير، اقبل منّي اليسير، واعف عنّي الكثير، إنَّك أنت الغفور الرحيم»، فقالها الشابُّ، فقال له النبيُّ ﷺ: انظر ما ترىٰ؟ قال: أرىٰ رجلاً أبيض اللون، حسن الوجه، طيِّب الريح، حسن الثياب، قد وليني، وأرىٰ الأسود قد تولّىٰ عنّي. فقال له: أعد، فأعاد، فقال له: ما ترىٰ؟ قال: لست أرىٰ الأسود، وأرىٰ الأبيض قد وليني، ثمّ طُفي علىٰ تلك الحال»[1].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كان في بني إسرائيل عابد يقال له: جريح، وكان يعبد الله في صومعة، فجاءته أُمُّه وهو يُصلّي، فدعته، فلم يجبها ولم يُكلِّمها، فانصرفت وهي تقول: أسأل إله بني إسرائيل أن يخذلك. فلمَّا كان من الغد جاءت فاجرة وقعدت عند صومعته، قد أخذها الطلق، فادَّعت أنَّ الولد من جريح، ففشا في بني إسرائيل أنَّ من كان يلوم الناس علىٰ الزنا زنىٰ، وأمر الملك بصلبه، فأقبلت أُمُّه إليه تلطم وجهها، فقال لها: اسكتي، إنَّما هذا لدعوتكِ، فقال الناس لـمَّا سمعوا ذلك منه: وكيف لنا بذلك؟ قال: هاتوا الصبي، فجاؤوا به، فأخذه، فقال: من أبوك؟ فقال: فلان الراعي لبني فلان، فأكذب الله الذين قالوا ما قالوا في جريح، فحلف جريح ألا يفارق أُمَّه يخدمها»[2].

---

(١) أمالي المفيد: ٢٨٧ و٢٨٨/ ح ٦.

(٢) قصص الأنبياء للراوندي: ١٨٠/ ح ٢٠٨.

وأمّا الأثر التكويني، فهو كثير، نذكر منه التالي:

١ - ضمان برِّ الأولاد:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «برّوا آباءكم يبرّكم أبناؤكم»[1].

ومن هنا ورد أنَّ عقوق الوالدين من الذنوب التي تُعجَّل عقوبتها، ومن عقوبته عقوق الأولاد.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاثة من الذنوب تُعجَّل عقوبتها ولا تُؤخَّر إلىٰ الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي علىٰ الناس، وكفر الإحسان»[2].

٢ - ضمان الغنىٰ المادّي:

عن البزنطي، قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «إنَّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له، ثمّ أخذه وطرحه علىٰ طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل، ثمّ جاء يطلب بدمه، فقالوا لموسىٰ عليه السلام: إنَّ سبط آل فلان قتلوا فلاناً، فأخبرنا من قتله؟ قال: ائتوني ببقرة، ﴿قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾، ولو أنَّهم عمدوا إلىٰ بقرة أجزأتهم، ولكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، ﴿قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ﴾ يعني لا صغيرة ولا كبيرة ﴿عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ﴾، ولو أنَّهم عمدوا إلىٰ أيِّ بقرة أجزأتهم، ولكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، ﴿قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾، ولو أنَّهم عمدوا إلىٰ أيِّ بقرة لأجزأتهم، ولكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، ﴿قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنَّا

---

(١) الكافي للكليني ٥: ٥٥٤/ باب إنَّ من عفَّ عن حرم الناس عُفَّ عن حرمه/ ح ٥.

(٢) أمالي المفيد: ٢٣٧/ ح ١.

إِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧١]، فطلبوها فوجدوها عند فتىٰ من بني إسرائيل، فقال: لا أبيعها إلَّا بملء مسكها ذهباً، فجاؤوا إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فقالوا له ذلك فقال: اشتروها، فاشتروها وجاؤوا بها، فأمر بذبحها، ثمّ أمر أن يضربوا الميِّت بذنبها، فلمَّا فعلوا ذلك حيي المقتول، وقال: يا رسول الله، إنَّ ابن عمّي قتلني دون من يدَّعي عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله. فقال رسول الله موسىٰ بن عمران عليه السلام لبعض أصحابه: إنَّ هذه البقرة لها نبأ، فقال: وما هو؟ قال: إنَّ فتىٰ من بني إسرائيل كان بارّاً بأبيه، وإنَّه اشترىٰ تبيعاً فجاء إلىٰ أبيه فرأىٰ أنَّ المقاليد تحت رأسه، فكره أن يوقظه فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه فأخبره، فقال له: أحسنت، خذ هذه البقرة فهي لك عوضاً لما فاتك»، قال: «فقال له رسول الله موسىٰ بن عمران عليه السلام: انظروا إلىٰ البرِّ ما بلغ بأهله»[1].

ملاحظة: في اللطف الابتدائي:

ظهر ممَّا تقدَّم كلُّه أنَّ هداية اللطف هداية استحقاقية، لا بمعنىٰ أنَّ أحداً يستحقُّ أمراً علىٰ الله تعالىٰ، إذ لا حقَّ لأحد علىٰ الله تعالىٰ بأيِّ صورة من صور الاستحقاق، ولكن من باب اللطف والرحمة، فإنَّ الله تعالىٰ يجازي بعض عباده بأن يهب لهم ألطافاً ظاهرة وخفيَّة عقيب التزامهم بأحد سلالم هداية اللطف.

ولكن في بعض الأحيان، ولأنَّ الله تعالىٰ يعلم بعلمه السابق أنَّ

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ٢: ١٦/ ح ٣١.

عبداً من عبيده سيلتزم بما يوجب اللطف، ويعلم ذلك من نيَّته الحقيقية وإرادته الواعية، فإنَّ الله تعالىٰ يُعجِّل له اللطف قبل العمل، ذلك أنَّ الله تعالىٰ يُعطي حسب كرمه لا علىٰ حسب الاستحقاق.

وأوضح مصاديق هذا المعنىٰ هي عصمة الأنبياء والأولياء، إذ إنَّ من عقيدة أتباع أهل البيت عليهم السلام أنَّ الأنبياء والأوصياء عموماً معصومون منذ الطفولة إلىٰ الممات، وليست العصمة أمراً خاصّاً بتبليغ الأحكام الشرعية للناس أو بزمن ما بعد البعثة كما ادَّعته بعض الفِرَق.

وإذا قيل بأنَّ العصمة إنَّما هي لطف مستحقٌّ، فكيف يكسبها المعصوم قبل أن يبدر منه أيُّ عمل صالح؟

فيُجاب بأنَّ الله تعالىٰ علم بأنَّ الإرادة الواقعية والجادَّة والمستمرَّة من المعصومين كانت علىٰ عمل الطاعات والابتعاد عن كلِّ ما لا يرضىٰ به الباري جلَّ وعلا، فلطف بهم ووهبهم العصمة حين أطلّوا علىٰ الدنيا.

ومن لطائف ما نقله القرآن الكريم عن اللطف الابتدائي هو قضيَّة النبيِّ موسىٰ عليه السلام.

قال تعالىٰ عن موسىٰ النبيِّ عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (طه: ٣٩).

يقال: إنَّ قابلة موسىٰ كانت من الفراعنة، وكانت مصمِّمة علىٰ رفع خبر ولادته إلىٰ فرعون، إلَّا أنَّه لـمَّا وقعت عينها علىٰ عين المولود الجديد، فكأنَّ ومضة برقت من عينه وأضاءت أعماق قلبها، وطوَّقت محبَّته رقبتها، وابتعدت عن رأسها كلُّ الأفكار السيِّئة[1].

ونقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في هذا الباب: «فلـمَّا

---

(١) راجع: تفسير الأمثل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ٩: ٥٥٧ و٥٥٨.

وضعت أُمُّ موسىٰ بموسىٰ عليه السلام نظرت إليه وحزنت عليه واغتمَّت وبكت، وقالت: يُذبَح الساعة، فعطف الله بقلب الموكَّلة بها عليه، فقالت لأُمِّ موسىٰ: ما لكِ قد أصفرَّ لونكِ؟ فقالت: أخاف أن يُذبَح ولدي، فقالت: لا تخافي، وكان موسىٰ لا يراه أحد إلَّا أحبَّه».

وكان درع المحبَّة هذا هو الذي حفظه تماماً في بلاط فرعون.

«... وكان لفرعون قصر علىٰ شطِّ النيل منتزهاً، فنظر من قصره ومعه آسية امرأته، فنظر إلىٰ سواد في النيل ترفعه الأمواج والرياح تضربه حتَّىٰ جاءت به إلىٰ باب قصر فرعون، فأمر فرعون بأخذه، فأُخِذَ التابوت ورُفِعَ إليه، فلمَّا فتحه وجد فيه صبياً، فقال: هذا إسرائيلي، وألقىٰ الله في قلب فرعون لموسىٰ محبَّة شديدة، وكذلك في قلب آسية، وأراد فرعون أن يقتله، فقالت آسية: لا تقتله ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: ٩]، إنَّه موسىٰ، ولم يكن لفرعون ولد»[1].

* * *

---

(١) تفسير القمّي ٢: ١٣٥.

الفصل السادس:

هداية الفلاح

هداية الفلاح:

شاء الباري جلَّ وعلا أن يجعل لهذه الحياة أمداً محدوداً لا يعلمه إلَّا هو تبارك وتعالىٰ، فعُمُرُ الحياة متناهٍ محدودٍ، مهما طالت، فليس في هذه الحياة خلود.

وقد شاء الله ﷻ أن يختبر عباده بتكاليف بيَّنها لهم من خلال رُسُله وأنبيائه، وبما شرَّعه في الكتب التي أنزلها إلىٰ الناس، وكَتَبَ علىٰ نفسه أن يجعل الدنيا وما فيها من تكاليف ملاكاً ومقياساً للحياة الأبدية في عالم الآخرة، وهناك، سيَجزي الباري جلَّ وعلا من التزموا بما افترضه عليهم جنّاتٍ لم ترَ عينٌ ولم تَسمعْ أُذُنٌ بمثلها، ولم يخطر علىٰ قلب بشر أو فِكْرِه بشبهها، وهناك، سيفلح المؤمنون، وسينجو المخلصون.

وهذا الجزاء بالإثابة، هو خلاصة معنىٰ (هداية الفلاح).

وفي نفس الوقت، سيكون عقاب الضالّين والمنحرفين، ممَّن اختاروا طريق الانحراف بإرادتهم، هو تعبيراً آخر عن الضلال المقابل لهداية الفلاح.

وباختصار: إنَّ هداية الفلاح هي بمعنىٰ الإثابة والجزاء في الآخرة، ويقابلها الإضلال بمعنىٰ الإهلاك والتعذيب.

وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ (يونس: ٩).

وقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ ۝٢ ... سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ ۝٦ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ۝٨﴾ (محمّد: ١ - ٨).

وهذا المعنىٰ من الهداية أيضاً من العبد باعتبار ومن الله تعالىٰ باعتبار، فمن العبد بمعنىٰ أنَّه إذا التزم بما يريده الباري تعالىٰ منه فإنَّه سيحصل علىٰ الثواب وإلَّا فعلىٰ العقاب، ومن الله تعالىٰ بمعنىٰ أنَّه يجازي كلَّ عامل بما عمل.

ففي الحقيقة هذا النوع من الهداية يُمثِّل نتيجة الأعمال التي يقوم بها الفرد في الدنيا، وليست شيئاً خارجاً عن أعماله وآثارها. والإضلال كذلك يكون نتيجة أعمال الفرد في الدنيا، وليس شيئاً خارجاً عنها.

وهذا المعنىٰ من الهداية يتَّضح من خلال بيان بعض الأُمور، منها:

الأمر الأوَّل:

إنَّ الأصل في هذا المعنىٰ من الهداية هو ما تقدَّم في الخطوط العامَّة لرسالات الأنبياء من أنَّ الله تعالىٰ عادل في مملكته غير محايد، وهذا يُمثِّل واحداً من الأدلَّة علىٰ ضرورة المعاد، فكثير من الناس في الدنيا يُظلَم، ويُسلَب حقُّه، وتُزهَق روحه، كلُّ هذا بلا حقٍّ. وفي المقابل هناك من الناس من يأخذ حقَّ غيره ومن دون مقابل، وربَّما يقتله. وربَّما تمرُّ هذه الأُمور في الدنيا من دون حساب، إذ بالإمكان إخفاء الجريمة، أو نسبتها إلىٰ غير الفاعل خطأً أو حتَّىٰ عمداً. وبالتالي، لا صاحب الحقِّ يرجع إليه حقُّه، ولا الظالم يُؤخَذ منه الحقَّ.

فلو كانت الدنيا هي نهاية العالم، فهذا يعني أنَّ خالق هذا العالم الذي فرضنا أنَّه عادل وغير محايد قد ترك الظلم بلا حساب، وهذا يعني أنَّه صار محايداً، بل وإلىٰ جانب الظالم! وحاشاه، ولكن حيث إنَّه تعالىٰ عادل، فهذا يكشف يقيناً عن أنَّه تعالىٰ لا بدَّ وأن يُرجِع الحقَّ إلىٰ أصحابه ويحاسب المقصِّرين، وحيث إنَّ هذا الأمر لا يحصل في الدنيا، فلا بدَّ من وجود موعد آخر للحساب، ذلك هو يوم القيامة[1].

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾ (التغابن: ٩ و١٠).

الأمر الثاني:

الآيات والروايات تُصرِّح بأنَّ كلَّ الناس سيُحاسَبون يوم القيامة، ولكن الحساب لا بدَّ أن يكون عادلاً. ومعه، فإنَّ هناك العديد من الأصناف يقبح حسابهم، كالمجانين والصبيان والمستضعَفين وغيرهم، فكيف سيُحاسَب هؤلاء؟

إنَّ الروايات الشريفة لم تغفل هذا الجانب، بل بيَّنته وكيَّفته مع العدل الإلهي، فوضَّحت أوَّلاً معنىٰ المستضعَفين.

---

(١) روىٰ المرتضىٰ في رسائله (ج ٣/ ص ٢٢٤)، قال: (وكان عبد المطَّلب... يقول في وصاياه: إنَّه لم يخرج من الدنيا ظلوم حتَّىٰ ينتقم الله منه ويصيبه عقوبة، إلىٰ أن هلك رجل ظلوم ومات حتف أنفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطَّلب ذلك، ففكَّر ثمّ قال: فوَالله إنَّ وراء هذه الدار داراً يُجزىٰ المحسن بإحسانه والمسيء يُعاقَب علىٰ إساءته).

والمعنىٰ الجامع للمستضعَف هو من لم تبلغه الحجَّة أو لم يمكنه معرفتها.

عن سليمان بن خالد، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن المستضعَفين؟ فقال: «البَلْهاء في خدرها، والخادم تقول لها: صلّي فتُصلّي لا تدري إلَّا ما قلت لها، والجليب[1] الذي لا يدري إلَّا ما قلت له، والكبير الفاني، والصبي الصغير. هؤلاء المستضعَفون. وأمَّا رجل شديد العنق، جدل خصم، يتولّىٰ الشرىٰ والبيع لا تستطيع أن تغبنه في شيء، تقول: هذا مستضعَف؟ لا ولا كرامة»[2].

وعن زرارة، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن المستضعَف، فقال: «هو الذي لا يستطيع حيلة يدفع بها عنه الكفر، ولا يهتدي بها إلىٰ سبيل الإيمان، لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر»، قال: «والصبيان، ومن كان من الرجال والنساء علىٰ مثل عقول الصبيان»[3].

ويمكن معرفة مصاديق المستضعَفين من خلال بعض الآيات والروايات، وهم[4]:

---

(١) الجليب: المجلوب، وهو الخادم يُساق من موضع إلىٰ آخر، ومن بلد إلىٰ بلد للتجارة. (كما في هامش البحار).

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ٢٠٣/ باب معنىٰ المستضعَف/ ح ١٠، عنه بحار الأنوار ٧٢: ١٦١ و١٦٢/ ح ١٥.

(٣) الكافي للكليني ٢: ٤٠٤/ باب المستضعَف/ ح ٣.

(٤) علماً أنَّ بعض الروايات أشارت إلىٰ أنَّ واحداً من أهمّ مصاديق المستضعَفين هم أهل بيت النبيِّ صلى الله عليه وآله، فعن المفضَّل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلىٰ عليٍّ والحسن والحسين عليهم السلام فبكىٰ، وقال: أنتم المستضعَفون بعدي»، قال المفضَّل: فقلت له: ما معنىٰ ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: «معناه أنَّكم الأئمَّة بعدي، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ ۝﴾ [القصص: ٥]. ⇦

أوَّلاً: النساء والأطفال، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾﴾ (النساء: ٩٨).

ثانياً: من لم تبلغه الحجَّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَا يَقَعُ اسْمُ الِاسْتِضْعَافِ عَلَىٰ مَنْ بَلَغَتْه الْحُجَّةُ، فَسَمِعَتْهَا أُذُنُه، وَوَعَاهَا قَلْبُه»[١].

ثالثاً: من اعتقد بعقيدة، وظنَّ أنَّها الحقُّ المطلق، ولم يسمع بخلاف ذلك ليبحث عنه ويعرف الحقَّ من الباطل، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من عرف الاختلاف فليس بمستضعَف»[٢].

رابعاً: من لم يكن مكلَّفاً لعدم عقله أو لعدم تمامه.

وأمَّا عن مصيرهم[٣]، ففيه تفصيل:

أمَّا **أولاد وأطفال المؤمنين** ممَّن لم يبلغوا مرحلة وسنَّ التكليف، أو كان مجنوناً، فيظهر من بعض الروايات أنَّهم سيُلحَقون بآبائهم المؤمنين في الجنَّة، لتتمَّ فرحة وسرور آبائهم، بل ورد أنَّ أسقاط المؤمنين يعملون علىٰ إدخال آبائهم معهم الجنَّة، وسيستجيب الله تعالىٰ لطلبهم.

عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، قال: «قصرت الأبناء عن عمل الآباء، فألحقوا الأبناء بالآباء لتقرَّ بذلك أعينهم»[٤].

⇦ فهذه الآية جارية فينا إلىٰ يوم القيامة». (معاني الأخبار للصدوق: ٧٩/ باب معنىٰ قول النبيِّ صلى الله عليه وآله لعليٍّ والحسن والحسين: أنتم المستضعَفون بعدي/ ح ١).

(١) نهج البلاغة: ٢٨٠/ ح ١٨٩.

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ٢٠٠ و٢٠١/ باب معنىٰ المستضعَف/ ح ٢.

(٣) راجع: أجوبة الشبهات للسيِّد عبد الحسين دستغيب/ السؤال الرابع والثلاثون.

(٤) الكافي للكليني ٣: ٢٤٩/ باب الأطفال/ ح ٥.

وعن عبد الأعلىٰ مولىٰ آل سام، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... أمَا علمتم أنّي أُباهي بكم الأُمم يوم القيامة حتَّىٰ بالسقط يظلُّ محبنطئاً علىٰ باب الجنَّة، فيقول الله عزَّ وجلَّ له: ادخل الجنَّة، فيقول: لا حتَّىٰ يدخل أبواي قبلي، فيقول الله عزَّ وجلَّ لملك من الملائكة: ايتني بأبويه، فيأمر بهما إلىٰ الجنَّة، فيقول: هذا بفضل رحمتي لك»[١].

هذا من جهة.

ولكن من جهة أُخرىٰ يمكن أن يقال التالي:

إنَّ مصيرهم ومصير غيرهم يتحدَّد وفق التالي:

- إمَّا أن يُكلَّفوا في الآخرة، ليترتَّب الثواب والعقاب علىٰ نوع عملهم واستجابتهم، كما يظهر هذا من بعض الروايات الشريفة، فعن زرارة بن أعين، قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام صلىٰ علىٰ ابن لجعفر عليه السلام صغير، فكبَّر عليه، ثمّ قال: «يا زرارة، إنَّ هذا وشبهه لا يُصلّىٰ عليه، ولولا أن يقول الناس: إنَّ بني هاشم لا يُصلّون علىٰ الصغار ما صلَّيت عليه»، قال زرارة: فقلت: فهل سُئِلَ عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: «نعم، قد سُئِلَ عنهم»، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، ثمّ قال: «يا زرارة، أتدري ما قوله: الله أعلم بما كانوا عاملين؟»، قال: فقلت: لا والله، فقال: «لله عزَّ وجلَّ فيهم المشيَّة، أنَّه إذا كان يوم القيامة احتجَّ الله تبارك وتعالىٰ علىٰ سبعة: علىٰ الطفل، وعلىٰ الذي مات بين النبيِّ والنبيِّ[٢]، وعلىٰ الشيخ الكبير الذي يُدرك النبيَّ وهو لا يعقل، والأبله، والمجنون الذي لا يعقل، والأصمّ، والأبكم، فكلُّ هؤلاء يحتجُّ الله عزَّ وجلَّ عليهم يوم

---

(١) التوحيد للصدوق: ٣٩٥/ ح ١٠.

(٢) أي في زمن الفترة.

القيامة، فيبعث الله إليهم رسولاً ويُخرج إليهم ناراً، فيقول لهم: إنَّ ربَّكم يأمركم أن تثبوا في هذه النار، فمن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن عصاه سيق إلىٰ النار»[1].

- أو أن يوضعوا في الأعراف، وهو محلٌّ بين الجنَّة والنار.

- أو أن يُذهَب بهم إلىٰ جنَّة، فيكونوا في منزلة أقلّ من منزلة الآخرين فيها.

- أو أن يكون بعضهم خدمة لأهل الجنَّة، بشكل لا يكون فيه مشقَّة عليهم، بل يتمُّ ذلك علىٰ نحو السرور والتلذُّذ بما يؤدّونه من خدمة لأهل الجنَّة، تماماً كما في حال الملائكة التي تقوم بخدمة المؤمنين، والتي تسرُّ وتتلذَّذ بما تقوم به.

- أو أن يكون بعضهم في الأعراف وبعضهم في الجنَّة.

وعلىٰ كلِّ حالٍ، نحن نجزم بأنَّه لن يلحقهم أيُّ حيف أو ظلم، فإنَّ الله تعالىٰ لا يظلم أحداً.

الأمر الثالث:

ماذا عن حساب الشخص كامل العقل، ولكنَّه لم يكن قد سمع بالدين، ككثير من الطوائف البشرية التي تعيش في المناطق النائية، إذ من الممكن أن يوجد أُناس في قارّات أفريقيا أو غابات الأمازون وغيرها لم يسمعوا بالإسلام أصلاً، أو سمعوا به ولكن لم تتوفَّر لهم الوسائل لمعرفته عن كثب، أو لم يمكنهم الاستجابة لظرف قاهر، فما مصير هؤلاء؟

في الجواب لا بدَّ أن نعرف الفرق بين القاصر والمقصِّر، والفرق

(١) التوحيد للصدوق: ٣٩٣/ ح ٥.

بين الأحكام التي لا يمكن أن يعرفها الإنسان من دون بيان من الشرع وبين الأحكام التي يمكن للإنسان أن يعرفها بمحض عقله وإن لم يُبيِّنها الشرع.

أمَّا الفرق بين القاصر والمقصِّر، فنضرب لبيانه مثالاً: لنفترض شخصين في مكان ما، طول أحدهما متر واحد فقط، وطول الآخر مترين، وطُلِبَ منهما أن يلتقطا شيئاً معلَّقاً علىٰ بعد متر ونصف، فالشخص الأوَّل لا يمكنه ذلك، لا لتقصير منه، بل لأنَّ طوله لا يساعده، فهذا قاصر عن تنفيذ الأمر، وهو غير مؤاخَذ، لأنَّه قاصر. وأمَّا الشخص الثاني، فإنَّه إذا لم يقم ويأخذ ذلك الشيء فهو مقصِّر، ويُعتَبر مخالفاً للأمر، لأنَّه كان بإمكانه تنفيذ الأمر من دون حرج ولا مشقَّة.

وهكذا في قضيَّة الأحكام الشرعية، فهناك من الناس من لا يمكنه أن يصل إلىٰ البلاد الإسلاميَّة، أو لا يمكنه الاطِّلاع علىٰ العقائد والأحكام الصحيحة، لا لتقصير منه، بل لظرف قاهر لا يمكنه تجاوزه، كما قد يقال ذلك في سكّان البلاد النائية، وربَّما يكون منهم النساء المستضعَفات ممَّن هنَّ علىٰ غير خطِّ أهل البيت عليهم السلام حيث لا يمكنهنَّ الخروج من بيوتهنَّ والاطِّلاع علىٰ العقائد الحقَّة، (ولو من باب الفرض لا التحقيق)، وهكذا الأطفال الذين لا إدراك كامل عندهم ليُميِّزوا بين الحقِّ والباطل. وقد تقدَّمت رواية سليمان بن خالد في الأمر الثاني وأشارت إلىٰ بعض مصاديق المستضعَفين.

ولكن هناك منهم من له اطِّلاع علىٰ العقائد، ويسمع بها ويسمع بالدعاة إليها، ولكنَّه لا يستجيب لهم ولا يُكلِّف نفسه عناء البحث عن الحقيقة، فمثل هذا الشخص يُعتَبر مقصِّراً.

ثمّ إنَّ الأحكام منها ما لا يمكن للإنسان الاطِّلاع عليه إلَّا إذا بيَّنه الشارع ووصل ذلك البيان له، كالصلاة والصوم والحجّ وغيرها، (وهو المسمىٰ بالأحكام التعبّدية أو الشرعية المحضة).

ومنها ما لا يحتاج فيه الإنسان إلىٰ بيان من الشرع، بل العقل لوحده عنده القدرة علىٰ إدراك حسنه أو قبحه، كإدراكه لحسن الإحسان إلىٰ المحسن، والعدل، وكإدراكه لقبح القتل والزنا والسرقة وغيرها.

إذا تبيَّن هذا نقول:

المستفاد من كلمات العلماء هو أنَّ الجاهل المقصِّر محاسب علىٰ كلا نوعي الأحكام، لأنَّ عدم التزامه كان بإرادته بعد الاطِّلاع أو إمكان الاطِّلاع. وأمَّا القاصر فهو غير محاسب عن الأحكام التي لا يمكن الاطِّلاع عليها إلَّا إذا بيَّنها الشارع، لأنَّ الحجَّة لم تكتمل في حقِّه، وشرط الوجوب عليه هو بيان الشارع له ووصوله إليه، والفرض أنَّه لم يصل إليه البيان. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء: ١٥).

وأمَّا الأحكام التي يستطيع العقل معرفتها، فإنَّه سيُحاسَب عليها جزماً، لأنَّ العقل حجَّة علىٰ الإنسان، وهو الحجَّة الباطنية - كما عبَّر الإمام الكاظم عليه السلام - علىٰ الإنسان، حيث روي عنه عليه السلام أنَّه قال لهشام بن الحكم: «يا هشام، إنَّ لله علىٰ الناس حجَّتين: حجَّة ظاهرة وحجَّة باطنة، فأمَّا الظاهرة فالرُّسُل والأنبياء والأئمَّة عليهم السلام، وأمَّا الباطنة فالعقول»[1].

فسيُحاسَب الإنسان علىٰ ظلمه لغيره أو سرقته حقَّه أو ضربه من

---

(١) الكافي للكليني ١: ١٦/ كتاب العقل والجهل/ ح ١٢.

دون حقٍّ، لأنَّ العقل لوحده يُدرك قبح هذه التصرُّفات ولو لم يأتِ الأمر الشرعي بها.

الأمر الرابع:

المستفاد من الروايات الشريفة أنَّ الحساب له نوعان:

النوع الأوَّل: حساب الحقوق الخاصَّة بالله تعالىٰ، كحقِّ الصلاة والصوم والحجِّ وبقيَّة الواجبات، وحقِّ شكر النعمة، والخشية منه تعالىٰ وعدم مبارزته بالذنوب، وغيرها من الحقوق العامَّة.

وهذه الحقوق مرجوَّة إلىٰ الله تعالىٰ، فيمكن أن يغفرها الله تعالىٰ للعبد لسبب من الأسباب، والتي منها:

١ - الشفاعة:

وليكن معلوماً أنَّ الشفاعة لها شروط، لا بدَّ من توفُّرها في الشخص حتَّىٰ تناله، وخلاصتها[1]:

- منها عدم الإشراك بالله تعالىٰ.

- الإخلاص في الشهادة بالتوحيد، قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلَّا الله مخلصاً، يُصدِّق لسانه قلبه»[2].

- عدم كونه ناصبياً، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ المؤمن ليشفع لحميمه إلَّا أن يكون ناصباً، ولو أنَّ ناصباً شفع له كلُّ نبيٍّ مرسل وملك مقرَّب ما شُفِّعوا»[3].

- عدم الاستخفاف بالصلاة، فعن أبي بصير، قال: قال أبو الحسن

---

(١) انظر: محاضرات في الإلهيّات للشيخ جعفر السبحاني: ٤٦٧ و٤٦٨.

(٢) علل الدارقطني ٩: ٤٥.

(٣) المحاسن للبرقي ١: ١٨٦/ ح ١٩٨.

الأوَّل عليه السلام: «إنَّه لـمَّا حضر أبي الوفاة قال لي: يا بنيَّ، إنَّه لا ينال شفاعتنا من استخفَّ بالصلاة»(١).

- عدم التكذيب بشفاعة النبيِّ صلى الله عليه وآله: قال الإمام عليُّ بن موسىٰ الرضا عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من كذب بشفاعة رسول الله لم تنله»(٢).

٢ - حسن الظنِّ بالله تعالىٰ:

عن عبد الرحمن بن الحجّاج، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنَّ آخر عبد يُؤمَر به إلىٰ النار فيلتفت، فيقول الله عزَّ وجلَّ: أعجلوه، فإذا أُتي به قال له: يا عبدي، لِمَ التفتَّ؟ فيقول: يا ربِّ، ما كان ظنّي بك هذا، فيقول الله جلَّ جلاله: عبدي وما كان ظنُّك بي؟ فيقول: يا ربِّ، كان ظنّي بك أن تغفر لي خطيئتي، وتسكنني وتدخلني جنَّتك، فيقول الله: ملائكتي، وعزَّتي وآلائي وبلائي وارتفاع مكاني، ما ظنَّ بي هذا ساعةً من حياته خيراً قطُّ، ولو ظنَّ بي ساعةً من حياته خيراً ما روَّعته بالنار، أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنَّة»، ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما ظنَّ عبد بالله خيراً إلَّا كان الله عند ظنِّه به، [ولا ظنَّ به سوءاً إلَّا كان الله عند ظنِّه به](٣)، وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فُصِّلت: ٢٣]»(٤).

وعن ابن رئاب، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «يؤتىٰ بعبد يوم

---

(١) الكافي للكليني ٣: ٢٧٠/ باب من حافظ علىٰ صلاته أو ضيَّعها/ ح ١٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ١: ٧١/ ح ٢٩٢.

(٣) من البحار.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ١٧٣، عنه بحار الأنوار ٧: ٢٨٧ و٢٨٨/ ح ٣.

القيامة ظالم لنفسه، فيقول الله تعالىٰ له: ألم آمرك بطاعتي؟ ألم أنهك عن معصيتي؟ فيقول: بلىٰ يا ربِّ، ولكن غلبت عليَّ شهوتي، فإن تُعذِّبني فبذنبي لم تظلمني، فيأمر الله به إلىٰ النار، فيقول: ما كان هذا ظنّي بك، فيقول: ما كان ظنُّك بي؟ قال: كان ظني بك أحسن الظنِّ، فيأمر الله به إلىٰ الجنَّة، فيقول الله تبارك و تعالىٰ: لقد نفعك حسن ظنِّك بي الساعة»[١].

ولا بدَّ من الانتباه إلىٰ أنَّ حسن الظنِّ بالله تعالىٰ لا يدعو إلىٰ الجرأة عليه والتطاول علىٰ حدوده بحجَّة حسن الظنِّ به تعالىٰ، كلَّا، فإنَّ القاعدة هي ما قاله رسول الله ﷺ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه: «يا أبا ذرٍّ، إنَّكم في ممرِّ الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن يزرع خيراً يوشك أن يحصد رغبة، ومن يزرع شرّاً يوشك أن يحصد ندامة، ولكلِّ زارع ما زرع»[٢].

ولو تنزَّلنا، فإنَّ المستفاد من الروايات هو أنَّ الجنَّة لها درجات متعدِّدة، ودرجاتها تُنال حسب قوَّة العمل ونوعيته، ولا شكَّ أنَّ من يتجاوز علىٰ حرمات الله تعالىٰ ويدخل الجنَّة لسبب من الأسباب سوف يكون بمرتبة أقلّ من مرتبة من كان يطيع الله تعالىٰ علىٰ طول الخطِّ، وليس هذا بالأمر الهيِّن، فإنَّ الغبن الذي يحسُّ به المرء من دنوِّ درجته في الجنَّة ربَّما لا يعادله حتَّىٰ ألم جهنَّم!

وعلىٰ كلِّ حال، فالروايات الشريفة تُحذِّر من الاغترار بالله تعالىٰ وحلمه وغفرانه، فقد روي عن رسول الله ﷺ: «لا تغترّوا بالله، فإنَّ الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرَّة والخردلة والبعوضة»[٣].

---

(١) المحاسن للبرقي ١: ٢٥ و٢٦/ ح ٤.

(٢) أمالي الطوسي: ٥٢٧/ ح (١١٦٢/ ١).

(٣) تنبيه الخواطر (مجموعة ورّام) ٢: ٥٣٧.

وعن معنىٰ الاغترار بالله تعالىٰ يقول الإمام عليٌّ عليه السلام: «من الغرَّة بالله أن يصرَّ العبد علىٰ المعصية ويتمنّىٰ المغفرة»[١].

هذا فضلاً عن الآيات الصريحة بإحضار جميع الأعمال حتَّىٰ الصغير جدّاً، حتَّىٰ يتعجَّب الإنسان من دقَّة الحساب، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَىٰ الأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴿٤٩﴾﴾ (الكهف: ٤٧ - ٤٩).

٣ - **الاعتراف بالذنوب** بين يديه تعالىٰ مع كونه من الموالين لأهل البيت عليهم السلام.

فعن سليمان بن خالد، كنت في محمل أقرأ إذ ناداني أبو عبد الله عليه السلام: «اقرأ يا سليمان...»، فقرأت حتَّىٰ انتهيت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠]، قال: «قف، هذه فيكم، إنَّه يُؤتىٰ بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتَّىٰ يوقَف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فيكون هو الذي يلي حسابه، فيُوقفه علىٰ سيِّئاته شيئاً فشيئاً، فيقول: عملتَ كذا وكذا، في يوم كذا، في ساعة كذا، فيقول: أعرف يا ربِّ»، قال: «حتَّىٰ يوقفه علىٰ سيِّئاته كلِّها، كلُّ ذلك يقول: أعرف، فيقول: سترتها عليك في الدنيا، وأغفرها لك اليوم، أبدلوها لعبدي حسنات»، قال: «فترفع

---

(١) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي: ٤٧٠.

صحيفته للناس، فيقولون: سبحان الله، أمَا كانت لهذا العبد ولا سيِّئة واحدة؟ فهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾»[١].

٤ - **وأصل كلِّ ذلك** الرحمة الإلهيَّة الواسعة التي يطمع فيها حتَّىٰ إبليس.

فعن إبراهيم بن زياد الكرخي، قال: قال الصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام: «إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالىٰ رحمته حتَّىٰ يطمع إبليس في رحمته»[٢].

وعن الإمام الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة تجلّىٰ الله عزَّ وجلَّ لعبده المؤمن فيوقفه علىٰ ذنوبه ذنباً ذنباً، ثمّ يغفر الله له لا يُطلِع الله علىٰ ذلك ملكاً مقرَّباً ولا نبيّاً مرسلاً، ويستر عليه ما يكره أن يقف عليه أحد، ثمّ يقول لسيِّئاته: كوني حسنات»[٣].

النوع الثاني: حساب حقوق الناس، كالأموال والسمعة والدماء وغيرها من الحقوق.

وهذه الحقوق لا بدَّ فيها من العدل، فالله تعالىٰ عادل، ومن عدله أن يُرجِع الحقوق إلىٰ أصحابها، فمن اغتاب شخصاً فأفقده سُمعَته أو أثَّر فيها سلباً، ومن سلب مال غيره أو روحه، ومن اعتدىٰ علىٰ غيره، لا بدَّ أن يُؤخَذ منه الحقُّ ويُرجَع إلىٰ أصحابه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ، فَظُلْمُ الْعِبَادِ

---

(١) المحاسن للبرقي ١: ١٧٠/ ح ١٣٦.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٧٣ و٢٧٤/ ح (٣٠١/ ٢).

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ١: ٣٦/ ح ٥٧.

بَعْضِـهِمْ بَعْضـاً، الْقِصَـاصُ هُنَـاكَ شَـدِيدٌ، لَـيْسَ هُـوَ جَرْحـاً بِالْمُـدَىٰ، وَلَا ضَرْبـاً بِالسِّيَاطِ، وَلَكِنَّـه مَـا يُسْتَصْـغَرُ ذَلِـكَ مَعَـه، فَإِيَّـاكُمْ وَالتَّلَـوُّنَ فِي دِيـنِ اللهِ»[1].

* * *

(١) نهج البلاغة: ٢٥٥/ الخطبة ١٧٦.

الخاتمة

وأذكر هنا النتائج التي يمكن استخلاصها من البحث بفصوله الستَّة، وهي التالي:

أوَّلاً: أنَّ الله ﷻ أجرىٰ في عالمنا - عالم المادَّة - سُنناً تكوينيةً ثابتةً، كان من أهمّها التزاحم والتدافع، إذ لولا ذلك لكان عالمنا عالم ملائكة، وهو خلف المفروض.

ولم يكن المقصود من هذا القانون وهذه السُّنَّة مجرَّد إيقاع الإنسان في الضيق والشدَّة، وإنَّما هو قانون ونظام قائم علىٰ أساس إرادة تفعيل الإرادة والاختيار، الذي أسَّس للمسؤولية اتِّجاه ما يصدر من الإنسان من أفعال، الأمر الذي جعل من الإنسان يتخطّىٰ حدود الموجودات الأُخرىٰ في هذا العالم، ليكون سيِّدها، فلولا التحدّيات العظيمة التي يواجهها الإنسان جرّاء ذلك القانون، ولولا تفعيل اختياره بالصورة التي تخدمه وتتجاوز العقبات، لما وصل التطوّر الإنساني إلىٰ ما وصل إليه اليوم.

ثانياً: أنَّ الهدىٰ والضلال مفهومان قرآنيان، كما لاحظنا ذلك، حيث وجدنا القرآن يستعملها في مواضع عديدة وفي أكثر من مستوىٰ، وبالتالي، ففهمهما حقُّ فهمهما يحتاج إلىٰ مراجعة دقيقة لما ورد في تفسير تلك الآيات عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، بالإضافة إلىٰ ضرورة الرجوع فيها إلىٰ المتخصِّصين في علوم القرآن، الأمر الذي إذا لم يتمّ بالمستوىٰ المطلوب، فإنَّه يؤدّي إلىٰ:

١ - فهم مغلوط لآيات الهدىٰ والضلال، وبالتالي إيقاع الأفراد في شبهة الجبر أو العبث أو المحاباة أو اللهو وما شابه. علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي.

٢ - تقديم هدية مجّانية للحكّام الظالمين ممَّن يريدون إقناع الناس بشبهة الجبر، حتَّىٰ لا يعملوا علىٰ مقاومتهم، بل وسيُوفِّر تبريراً لأفعالهم الظالمة بأنَّها صادرة رغماً عنهم بأمر الجبّار القهّار! وأنَّه لا يجوز الاعتراض علىٰ إرادة الله ﷻ[1].

٣ - بالإضافة إلىٰ تقديم عذر لمن يعيش الضلال بأنَّه لم يكن له أيُّ دور في حالته السيِّئة، وأنَّه إنَّما يُنفِّذ إرادة الله ﷻ الذي منه الهدىٰ والضلال. وبالتالي سينطبق عليهم قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ (النحل: ٣٥).

ثالثاً: أنَّ مفهومَي (الهدىٰ والضلال) يخضعان لعملية التزايد والتناقص، أو التكثيف والتخفيف، وقد أُشير إلىٰ أنَّهما من نوع المفاهيم المشكَّكة، أي التي لها مراتب متعدِّدة، وأنَّ القرآن الكريم أشار إلىٰ هذه الحقيقة في عدَّة موارد من الآيات الكريمة، ومنها قوله تعالىٰ فيما حكاه

---

(١) وهذا ما وجدناه عند معاوية حينما أراد أن يوحي للناس في الكوفة بأنَّه إنَّما يُنفِّذ إرادة الله تعالىٰ فيهم، حيث قال: (إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنَّكم لتفعلون ذلك. وإنَّما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون). (مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني: ٤٥).

عن قصَّة أهل الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ (الكهف: ١٣).

فتعبيره جلَّ وعلا بـ ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ يُصرِّح بأنَّ مفهوم الهدىٰ ليس له مرتبة واحدة، وإنَّما له مراتب متعدِّدة يمكن أن تزيد ويمكن أن تنقص.

وهكذا مفهوم (الضلال) حسب ما تقتضيه المقابلة بينهما.

ثمّ إنَّ العلاقة بين المراتب الستَّة للهدىٰ والضلال هي علاقة تراتبية، بمعنىٰ أنَّ الهداية الأُولىٰ هي التكوينية العامَّة، ثمّ هداية العقل المتَّصلة، ثمّ هداية الدعوة المنفصلة، ثمّ هداية التشريع المكمِّلة لهداية الدعوة، ثمّ هداية اللطف المترتِّبة علىٰ التزام هداية العقل والدعوة والتشريع، لتنتج في الأخير هداية الفلاح.

فالعلاقة بين هذه المراتب هي تراتبية تشكيكية، أي إنَّ الإنسان يتدرَّج صعوداً في مراتب الهداية، فضلاً عن وجود مراتب داخلية في كلِّ مرتبة من تلك المراتب الستَّة، فالعقل ليس له مستوىٰ واحد، والرسالة والبلاغ منها عامٌّ ومنها خاصٌّ، ولذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ما كلَّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله العبادَ بكنه عقله قطُّ»، وقال: قال رسول الله: «إنّا معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نُكلِّم الناس علىٰ قدر عقولهم»[1].

وهكذا اللطف الخاصّ، بل وهكذا الفلاح في الجنَّة حيث تقدَّم أنَّ الجنَّة علىٰ مراتب متعدِّدة.

فنظام هذه الحياة هو نظام (الصعود والنزول) أو (الارتقاء

---

(١) الكافي للكليني ١: ٢٣/ كتاب العقل والجهل/ ح ١٥.

والهبوط)، ولا شكَّ أنَّ صعود الجبل أكثر مشقَّةً من نزوله، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ: «حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»[1].

بالإضافة إلىٰ أنَّ التشكيك والتفاوت في هذه المراتب ليس له سقف محدَّد، بل هو مفتوح من أقصىٰ اليمين إلىٰ أقصىٰ الشمال، أو قل: هو مفتوح بين ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ (الحجر: ٩٩) إلىٰ ﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ ۝٥﴾ (التين: ٥).

والتحدّيات التي تقف في الطريق تتناسب مع كلِّ مرتبة من تلك المراتب، ولذلك كان أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، فقد ورد أنَّه سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثمّ الأوصياء، ثمّ الصالحون، ثمّ الأمثل فالأمثل»[2].

وروي أنَّه قال ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإذا أحبَّه (الله) الحبَّ البالغ اقتناه»، قالوا: وما اقتناؤه؟ قال: «ألَّا يترك له مالاً ولا ولداً»[3].

وبالتالي، فالخطورة تزداد كلَّما تصاعد الفرد في مراتب الكمال، والسقوط سيكون مؤلماً جدّاً كلَّما ازداد ارتفاع الفرد، لذلك ورد تحذير العلماء أكثر من الجهلة، لأنَّ سقطة العالم ليست كسقطة الجاهل.

فعن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال لحفص: «يا حفص، يُغفَر للجاهل سبعون ذنباً، قبل أن يُغفَر للعالم ذنب واحد»[4].

---

(١) روضة الواعظين للفتّال النيسابوري: ٤٢١.

(٢) الدعوات للراوندي: ١٦٦/ ح ٤٦٠.

(٣) الدعوات للراوندي: ١٦٦ و١٦٧/ ح ٤٦١.

(٤) الكافي للكليني ١: ٤٧/ باب لزوم الحجَّة علىٰ العالم وتشديد الأمر عليه/ ح ١.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «قال عيسىٰ بن مريم علىٰ نبيِّنا وآله وعليه السلام: ويلٌ للعلماء السوء كيف تلظّىٰ عليهم النار!؟»[١].

بل ورد: «الزبانية أسرع إلىٰ فسقة القرّاء منهم إلىٰ عبدة الأوثان، فيقولون: يُبدَأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيُقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»[٢].

ومن هنا، كان علىٰ نساء النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم من التكاليف ما ليس علىٰ غيرهنَّ، لموقعهنَّ من رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالىٰ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ ...﴾ (الأحزاب: ٣٢).

رابعاً: أنَّ البحث في مسألة الهدىٰ والضلال يرتبط بعدَّة جوانب:

الجانب الأوَّل: تكييف ظاهرة الهدىٰ مع اختيار الإنسان، إذ قد وُظِّفت بعض الآيات في دعم مقولة الجبر، كما قد صُنِعَ هذا الأمر في مقولات أُخرىٰ كالقضاء والقدر...، وهذه المسألة تعالج هذه الظاهرة وتُكيِّفها مع اختيار الإنسان.

إذ قد ثبت في كلِّ معاني الهدىٰ والضلال، أنَّ تلك المفاهيم لا تسلب اختيار الإنسان، بل هي ترجمة عملية لاختياره، ولم يكن من الله تعالىٰ أيُّ سلب للإرادة، ولم يكن منه عزَّ وجلَّ أيُّ جبر علىٰ فعل معيَّن.

الجانب الثاني: جانب حكمته وعنايته تعالىٰ بهذا العالم، فحيث ثبتت حكمته تعالىٰ، فنبحث في تجلّيات تلك الحكمة، التي منها الهدىٰ، خصوصاً المعنىٰ الأوَّل من معاني الهداية (أي الهداية التكوينية) الذي يقابله الإضلال بمعنىٰ العبث والجزاف، حيث ثبت أنَّه جلَّ وعلا لم

---

(١) الكافي للكليني ١: ٤٧/ باب لزوم الحجَّة علىٰ العالم وتشديد الأمر عليه/ ح ٢.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري ١: ١٢٤/ ح ٢٠٨.

يكن منه أيُّ جزاف في هذا المعنىٰ، بل إنَّه ﷻ قد جهَّز كلَّ موجود بما يساعده في الوصول إلىٰ هدفه الكمالي المرسوم.

الجانب الثالث: العقل الإنساني لوحده لا يمكنه إدارة الحياة الفردية والاجتماعية، وإنَّما هو بحاجة إلىٰ عقل منفصل متمثِّل بالأنبياء والأوصياء والكتب والعلماء...، وقد عُنوِن هذا الجانب من البحث بحاجة الإنسان إلىٰ الدين، الأمر الذي غطَّته معاني الهدىٰ في: العقل والدعوة والتشريع.

علماً أنَّه توجد توجُّهات معاصرة تُروِّج إلىٰ فكرة كفاية العقل واستغنائه عن الدين، فيبحث في جدلية العقل والنصِّ أو جدلية العقل المتَّصل والمنفصل، وقد تقدَّم شيء من بيان ضرورة العقل المنفصل المتمثِّل بالأنبياء في محلِّه من (هداية الدعوة)، وقد عرفنا هناك حسن الدعوة، بل وضرورتها علىٰ نحو الإجمال.

الجانب الرابع: اختيار الإنسان، حيث أُشير إلىٰ أنَّ الإنسان وإن كان فاعلاً حقيقةً لفعله وباختياره، وفعله يُسنَد إليه حقيقةً، ولأجل ذلك صُحِّح الثواب والعقاب وإرسال الرُّسُل و...

إلَّا أنَّه مع ذلك لا يمكنه صنع كلِّ شيء لوحده، بل هناك جملة كبيرة من مقدّمات فعله وأوّلياته وشرائطه هي غير اختيارية، بمعنىٰ أنَّها من فعل الله تعالىٰ، ولا إرادة للإنسان فيها، وفي مسألة الهدىٰ والضلال نسأل: هل توفير تلك المقدّمات والشروط للإنسان هو أمر غير مشروط بشيء ولا ضابط له وعشوائي؟ أو أنَّه وفق قانون خاصٍّ ونظام محدَّد؟

الجواب: قد عرفنا في معاني الهدىٰ أنَّه تعالىٰ يُوفِّر في بعض الأحيان منحاً إلهيَّة وهبات ربّانية من دون مقابل، وإنَّما هي من باب اللطف

بـالمعنىٰ الأخـصّ. وذلـك يكـون إذا علـم الله تعـالىٰ مـن عبـده أنّـه يريـد الوصــول إلىٰ بعــض المراتــب الكماليــة العاليــة، ولكنَّــه لا يمكنــه بلوغهــا لوحده، فيأتي دور هداية اللطـف والعنايـة والتوفيـق لتسـهل لـه بلـوغ ذلـك. وهــذه التســديدات وإن لم تكــن اختياريــة، ولكنَّهــا بلحــاظ إرادة الإنســان الجـادَّة هــي اختياريــة. نعـم، مقدّمــة الوصــول إلىٰ مرتبــة اسـتحقاق تلـك الألطاف هي من الإنسان باختياره.

وبعبـارة مختصــرة: إنَّ الخطـوة الأُولىٰ مـن الإنسـان، وإتمامهـا هـو مـن الله تعالىٰ.

وتلـك الخطـوة الأُولىٰ، قـد تكـون عمـلاً يقـوم بـه الإنسـان، كـما هـي العـادة فينـا، وقـد تكـون هـي النيَّـة الواقعيـة الجزميـة التـي علمهـا الله تعـالىٰ بعلمـه الأزلي، فيُعجِّـل الله تعـالىٰ ألطافـاً لهـذا الإنسـان، وبهـذا يمكـن تقـديم جواب سريع لإشكال عصمة الأنبياء منذ صغرهم.

الجانـب الخـامس: تفريعـاً عـلىٰ اختيـار الإنسـان وإرادتـه، وعـلىٰ عـدم كونـه مجبـوراً عـلىٰ أفعالـه، وتفريعـاً عـلىٰ حكمـة الله تعـالىٰ ولطفـه ورحمتـه وعدلـه، فـإنَّ مـن الضــرورة بمكـان أن يلاقـي كـلُّ فـرد مـن بنـي البشــر نتائج أعماله، سـلبية كانـت أو إيجابيـة، الأمـر الـذي يعنـي دلـيلاً قطعيـاً عـلىٰ ضرورة (اليوم الآخر) و(عالم الحساب).

وقـد غطَّـت (هدايـة الفـلاح) هـذا الجانـب، وقـد كـان معنـىٰ الهدايـة فيها هي إثابة المحسن علىٰ عمله، ومعنىٰ الضلال هي عقوبة المسيء.

وهــذه النتيجــة لم تخـرج عــن إرادة الإنســان واختيــاره، لأنَّهــا كانــت ترجمة عملية لفعله في هذه الحياة.

خامساً: هناك فرق بين **(القانون)** وبين **(فهم القـانون)**، فالقـانون الـذي

ذكره القرآن الكريم مركَّب من: إرادة الإنسان واختياره، وتدخُّل الله تعالىٰ وفق الحكمة والعدل، والذي عبَّرت عنه الروايات الشريفة بالأمر بين الأمرين[1].

هذا القانون قد يمكن للفرد أن يفهم انسجامه تماماً، بحيث لا يخرج عن الأُصول العامَّة للحكمة والرحمة والعدل، مع الحفاظ علىٰ إرادة الإنسان وبالتالي مسؤوليته عن فعله، الأمر الذي ينتج بطبيعته عدم إمكان الفرد أن يتملَّص من نتيجة فعله.

وقد يشتبه الأمر علىٰ البعض، باعتبار أنَّ فهم هذه المفاهيم يحتاج إلىٰ بحث وعناء وتخصُّص، فلا مناص آنذاك من الاعتقاد بها تعبُّداً، حتَّىٰ لا يخرج الفرد عن ربقة الإيمان، وحتَّىٰ لا يقع في مصيدة الجبر أو حتَّىٰ الشرك من حيث لا يشعر.

وهذا الأمر يتَّضح أكثر إذا أخذنا بنظر الاعتبار محدودية الإنسان من جميع جوانبه، يقابلها لا تناهي الذات المقدَّسة من كلِّ جوانبها وما يرتبط بها من مفاهيم وصفات، فإنَّ الله تبارك وتعالىٰ وصفاته هي من النوع الذي لا يمكننا إدراك غوره، الأمر الذي عبَّر فيه الإنسان عن عجزه ذاك بالتعبير عن الذات المقدَّسة بتعبيرات سلبية، فقلنا: إنَّه ﷻ لا متناهي، وغير محدود، وما شابه هذه التعبيرات التي تكشف عن عجزنا عن الإحاطة بالذات المقدَّسة.

ومع هذا العجز عن إدراك الحقيقة، لكن يبقىٰ عندنا أنَّنا نفهم وبالدليل القطعي أنَّه ﷻ - ولفرض لا تناهيه في كماله - لا يفعل إلَّا ما فيه حكمة ورحمة للإنسان، وهذا العلم سيكفينا المؤونة لو لم نستطع فهم القانون.

* * *

(١) راجع: الكافي للكليني ١: ١٥٥/ باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين.

المصادر والمراجع

١ - **القرآن الكريم.**

٢ - **(٨) طرق لهندسة الحياة وصناعة التأثير**: د. عليّ الحمادي/ ط ١/ ٢٠٠٥م/ دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.

٣ - **الاحتجاج**: الطبرسي/ ت محمّد باقر الخرسان/ دار النعمان/ ١٣٨٦هـ.

٤ - **الاختصاص**: الشيخ المفيد/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ دار المفيد/ بيروت.

٥ - **الأخلاق في القرآن**: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي/ ط ٢/ ١٤٢٦هـ/ مط أمير المؤمنين عليه السلام/ الناشر مدرسة الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام/ قم.

٦ - **إرشاد القلوب**: الحسن بن محمّد الديلمي/ ط ٢/ ١٤١٥هـ/ مط أمير/ انتشارات الشريف الرضي/ قم.

٧ - **الإرشاد**: الشيخ المفيد/ ت مؤسَّسة آل البيت/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ دار المفيد/ بيروت.

٨ - **أساليب النجاح**: سلسلة تعلَّم كيف تنجح (٣)/ هادي المدرِّسي/ ط ٣/ ٢٠٠٧م/ الدار العربية للعلوم/ مؤسَّسة أحمد للمطبوعات.

٩ - **الاستيعاب**: ابن عبد البرِّ/ ت البجاوي/ ط ١/ ١٤١٢هـ/ دار الجيل/ بيروت.

١٠ - **الأُصول الستَّة عشر**: عدَّة محدِّثين/ ت ضياء الدين المحمودي/ ط ١/ ١٤٢٣هـ/ دار الحديث.

١١ - **الأمالي**: السيِّد المرتضىٰ/ ت النعساني الحلبي/ ط ١/ ١٣٢٥هـ/ مكتبة المرعشي/ قم.

١٢ - **الأمالي**: الشيخ الصدوق/ ت قسم الدراسات/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ مؤسَّسة البعثة.

١٣ - **الأمالي**: الشيخ الطوسي/ ت مؤسَّسة البعثة/ ط ١/ ١٤١٤هـ/ دار الثقافة/ قم.

١٤ - **الأمالي**: الشيخ المفيد/ ت الأستادولي، عليّ أكبر الغفّاري/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ دار المفيد/ بيروت.

١٥ - **الإمام المهدي نظرة وجيزة شاملة**: مقدِّمة كتاب كلمة الإمام المهدي عليه السلام/ السيِّد حسن الشيرازي/ ط ١/ ١٣٨٦هـ/ مط شريعت/ الناشر رشيد.

١٦ - **الأنساب**: السمعاني/ ت البارودي/ ط ١/ ١٤٠٨هـ/ دار الجنان/ بيروت.

١٧ - **الإيضاح**: الفضل بن شاذان الأزدي/ ت جلال الدين الحسيني الأرموي/ ١٣٦٣ش/ دانشگاه تهران.

١٨ - **بحار الأنوار**: العلَّامة المجلسي/ ط ٢ المصحَّحة/ ١٤٠٣هـ/ مؤسَّسة الوفاء/ بيروت.

١٩ - **بصائر الدرجات**: محمّد بن الحسن الصفّار/ ت كوجه باغي/ ١٤٠٤هـ/ مط الأحمدي/ منشورات الأعلمي/ طهران.

٢٠ - **تاج العروس**: الزبيدي/ ١٤١٤هـ/ دار الفكر/ بيروت.

٢١ - **تاريخ بغداد**: الخطيب البغدادي/ ت مصطفىٰ عبد القادر عطا/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ دار الكتب العلمية/ بيروت.

٢٢ - **تحف العقول**: ابن شعبة الحرّاني/ ت عليّ أكبر الغفّاري/ ط ٢/ ١٤٠٤هـ/ مؤسَّسة النشر الإسلامي/ قم.

٢٣ - **الترغيب والترهيب**: عبد العظيم المنذري/ ت مصطفىٰ محمد عماره/ ١٤٠٨هـ/ دار الفكر/ بيروت.

٢٤ - **تفسير الأمثل**: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

٢٥ - **تفسير الثعلبي**: الثعلبي/ ت أبي محمّد بن عاشور/ ط ١/ ١٤٢٢هـ/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

٢٦ - **تفسير القرطبي**: القرطبي/ ت البردوني/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

٢٧ - **تفسير القمّي**: عليّ بن إبراهيم القمّي/ ت طيِّب الجزائري/ ط ٣/ ١٤٠٤هـ/ مؤسَّسة دار الكتاب/ قم.

٢٨ - **تفسير الكشّاف**: الزمخشري/ ١٣٨٥هـ/ شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده/ مصر.

٢٩ - **تفسير شبَّر**: عبد الله شبَّر/ راجعه الدكتور حامد حفني داود/ ط ٣/ ١٣٨٥هـ/ الناشر السيِّد مرتضىٰ الرضوي.

٣٠ - **تفسير فرات الكوفي**: فرات بن إبراهيم الكوفي/ ط ١/ ١٤١٠هـ/ مؤسَّسة طبع ونشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي/ طهران.

٣١ - **تفسير مجمع البيان**: الطبرسي/ ت لجنة من العلماء/ ط ١/ ١٤١٥هـ/ مؤسَّسة الأعلمي/ بيروت.

٣٢ - **تنبيه الخواطر (مجموعة ورّام)**: ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري/ ط ٢/ ١٣٦٨ش/ مط حيدري/ دار الكتب الإسلاميَّة/ طهران.

٣٣ - **تهذيب الأحكام**: الشيخ الطوسي/ ت حسن الخرسان/ ط ٣/ ١٣٦٤ش/ مط خورشيد/ دار الكتب الإسلاميَّة/ طهران.

٣٤ - **التواضع والخمول**: ابن أبي الدنيا/ ت محمّد عبد القادر أحمد عطا/ ط ١/ ١٤٠٩هـ/ دار الكتب العلمية/ بيروت.

٣٥ - **التوحيد**: الشيخ الصدوق/ ت هاشم الحسيني الطهراني/ جماعة المدرِّسين/ قم.

٣٦ - **ثواب الأعمال**: الشيخ الصدوق/ ت محمّد مهدي الخرسان/ ط ٢/ ١٣٦٨ش/ مط أمير/ منشورات الشريف الرضي/ قم.

٣٧ - **جامع أحاديث الشيعة**: البروجردي/ ١٣٩٩هـ/ المطبعة العلمية/ قم.

٣٨ - **الجامع الصغير**: السيوطي/ ط ١/ ١٤٠١هـ/ دار الفكر/ بيروت.

٣٩ - **الخصال**: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر الغفّاري/ ١٤٠٣هـ/ جماعة المدرِّسين/ قم.

٤٠ - **دعائم الإسلام**: القاضي النعمان المغربي/ ت آصف فيضي/ ١٣٨٣هـ/ دار المعارف/ القاهرة.

٤١ - **الدعوات**: قطب الدين الراوندي/ ط ١/ ١٤٠٧هـ/ مط أمير/ مؤسَّسة الإمام المهدي/ قم.

٤٢ - **رسائل الشريف المرتضىٰ**: الشريف المرتضىٰ/ تقديم السيِّد أحمد الحسيني/ إعداد السيِّد مهدي الرجائي/ ١٤٠٥هـ/ مط سيِّد الشهداء/ دار القرآن الكريم/ قم.

٤٣ - **روضة الواعظين**: الفتّال النيسابوري/ ت محمّد مهدي الخرسان/ منشورات الشريف الرضي/ قم.

٤٤ - **سنن ابن ماجة**: ابن ماجة القزويني/ ت محمّد فؤاد عبد الباقي/ دار الفكر/ بيروت.

٤٥ - **سنن الترمذي**: الترمذي/ ت عبد الوهّاب عبد اللطيف/ ط ٢/ ١٤٠٣هـ/ دار الفكر/ بيروت.

٤٦ - **السنن الكبرىٰ**: البيهقي/ دار الفكر/ بيروت.

٤٧ - **سنن النسائي**: النسائي/ ط ١/ ١٣٤٨هـ/ دار الفكر/ بيروت.

٤٨ - **سير أعلام النبلاء**: الذهبي/ ت حسين الأسد/ ط ٩/ ١٤١٣هـ/ مؤسَّسة الرسالة/ بيروت.

٤٩ - **شرح نهج البلاغة**: ابن أبي الحديد/ ت محمّد أبو الفضل إبراهيم/ ط ١/ ١٣٧٨هـ/ دار إحياء الكتب العربية/ بيروت.

٥٠ - **صحيح ابن حبّان**: ابن حبّان/ ت الأرنؤوط/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ مؤسَّسة الرسالة.

٥١ - **صحيح البخاري**: البخاري/ ١٤٠١هـ/ دار الفكر/ بيروت.

٥٢ - **الصحيفة السجّادية**: الإمام زين العابدين عليه السلام/ ت محمّد باقر الأبطحي/ ط ١/ ١٤١١هـ/ مط نمونه/ مؤسَّسة الإمام المهدي، مؤسَّسة الأنصاريان/ قم.

٥٣ - **الصحيفة السجّادية**: الإمام زين العابدين عليه السلام/ ط ١/ ١٤١٨هـ/ دفتر نشر الهادي/ قم.

٥٤ - **الطبقات الكبرىٰ**: محمّد بن سعد/ دار صادر/ بيروت.

٥٥ - **عدَّة الداعي**: ابن فهد الحلّي/ ت أحمد الموحّدي القمّي/ مكتبة وجداني/ قم.

٥٦ - **عقائد الإسلام من القرآن الكريم**: السيِّد مرتضىٰ العسكري/ ط ٢/ ١٩٩٧م/ الناشر كلّية أُصول الدين/ مط باقري/ قم.

٥٧ - **علل الدارقطني**: الدارقطني/ ت محفوظ الرحمن زين الله السلفي/ ط ١/ ١٤٠٥هـ/ دار طيبة/ الرياض.

٥٨ - **علل الشرائع**: الشيخ الصدوق/ ت محمّد صادق بحر العلوم/ ١٣٨٥هـ/ منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها/ النجف الأشرف.

٥٩ - **عيون أخبار الرضا عليه السلام**: الشيخ الصدوق/ ت حسين الأعلمي/ ١٤٠٤هـ/ مؤسَّسة الأعلمي/ بيروت.

٦٠ - **عيون الحكم والمواعظ**: عليّ الليثي الواسطي/ ت حسين البيرجندي/ ط ١/ دار الحديث.

٦١ - **الغيبة**: الشيخ الطوسي/ ت عبد الله الطهراني، عليّ أحمد ناصح/ ط ١/ ١٤١١هـ/ مط بهمن/ مؤسَّسة المعارف الإسلاميَّة/ قم.

٦٢ - **الغيبة**: النعماني/ ت فارس حسّون كريم/ ط ١/ ١٤٢٢هـ/ مط مهر/ أنوار الهدىٰ.

٦٣ - **الفتاوىٰ الميسَّرة**: السيِّد السيستاني/ ط ٣/ ١٤١٧هـ/ مط الفائق.

٦٤ - **فضائل أمير المؤمنين عليه السلام**: ابن عقدة الكوفي/ تجميع عبد الرزّاق محمّد حسين فيض الدين.

٦٥ - **فنون النجاح**: سلسلة تعلَّم كيف تنجح (٤)/ هادي المدرِّسي/ ط ٣/ ٢٠٠٧م/ الدار العربية للعلوم/ مؤسَّسة أحمد للمطبوعات.

٦٦ - **قادة الغرب يقولون: دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله**: جلال العالم/ ط ٢/ ١٣٩٥هـ.

٦٧ - **قاموس الرجال**: التستري/ ط ١/ ١٤١٩هـ/ مؤسَّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرِّسين/ قم.

٦٨ - **قرب الإسناد**: الحميري القمّي/ ط ١/ ١٤١٣هـ/ مط مهر/ مؤسَّسة آل البيت/ قم.

٦٩ - **قصص الأنبياء**: قطب الدين الراوندي/ ت غلام رضا عرفانيان/ ط ١/ ١٤١٨هـ/ الهادي.

٧٠ - **قوَّة التحكُّم بالذات**: الدكتور إبراهيم الفقي/ الناشر المركز الكندي للتنمية البشرية/ ٢٠٠٠م.

٧١ - **قوَّة التفكير**: الدكتور إبراهيم الفقي/ شركات الدكتور إبراهيم الفقي العالمية للتنمية البشرية/ المركز الكندي للتنمية البشرية.

٧٢ - **الكافي**: الشيخ الكليني/ ت عليّ أكبر الغفّاري/ ط ٥/ ١٣٦٣ ش/ مط حيدري/ دار الكتب الإسلاميَّة/ طهران.

٧٣ - **كامل الزيارات**: ابن قولويه/ ت جواد القيّومي/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ مط مؤسَّسة النشر الإسلامي/ مؤسَّسة نشر الثقافة.

٧٤ - **كتاب التوابين**: عبد الله بن قدامة/ ت عبد القادر الأرناؤوط/ مكتبة الشرق الجديد/ بغداد.

٧٥ - **كتاب الزهد**: حسين بن سعيد الكوفي/ ١٣٩٩هـ/ مط العلمية/ قم.

٧٦ - **كمال الدين**: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر الغفّاري/ ١٤٠٥هـ/ مؤسَّسة النشر الإسلامي/ قم.

٧٧ - **كنز العمّال**: المتَّقي الهندي/ ت بكري حياني/ ١٤٠٩هـ/ مؤسَّسة الرسالة/ بيروت.

٧٨ - **كنز الفوائد**: أبو الفتح الكراجكي/ ط ٢/ ١٣٦٩ش/ مط غدير/ مكتبة المصطفوي/ قم.

٧٩ - **الكنىٰ والألقاب**: الشيخ عبّاس القمّي/ مكتبة الصدر/ طهران.

٨٠ - **كيف تتغلَّب علىٰ الفشل**: سلسلة تعلَّم كيف تنجح (٧)/

هادي المدرِّسي/ ط ٣/ ٢٠٠٧م/ الدار العربية للعلوم/ مؤسَّسة أحمد للمطبوعات.

٨١ - **مثير الأحزان**: ابن نما الحلّي/ ١٣٦٩هـ/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف.

٨٢ - **المحاسن**: البرقي/ ت جلال الدين الحسيني المحدِّث/ ١٣٧٠هـ/ دار الكتب الإسلاميَّة/ طهران.

٨٣ - **المحاضرات الأخلاقية**: السيِّد حسين نجيب محمّد/ ط ١/ ٢٠٠٧م/ دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.

٨٤ - **محاضرات في الإلهيّات**: الشيخ جعفر السبحاني/ مؤسَّسة الإمام الصادق عليه السلام/ قم.

٨٥ - **المحلّىٰ**: ابن حزم/ دار الفكر.

٨٦ - **مروج الذهب**: المسعودي/ ط ٢/ ١٤٠٤هـ/ منشورات دار الهجرة/ قم.

٨٧ - **مسائل عليٍّ بن جعفر**: عليّ بن الإمام الصادق عليه السلام/ ت مؤسَّسة آل البيت/ ط ١/ ١٤٠٩هـ/ مط مهر/ قم.

٨٨ - **المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف**: الأبشيهي/ دار ومكتبة الهلال.

٨٩ - **مستطرفات السرائر**: ابن إدريس/ ط ٢/ ١٤١١هـ/ مؤسَّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرِّسين/ قم.

٩٠ - **مسكن الفؤاد**: الشهيد الثاني/ ط ١/ ١٤٠٧هـ/ مؤسَّسة آل البيت/ مط مهر/ قم.

٩١ - **مسند أحمد**: أحمد بن حنبل/ دار الصادر/ بيروت.

٩٢ - **مشكاة الأنوار**: عليّ الطبرسي/ ت مهدي هوشمند/ ط ١/ ١٤١٨هـ/ دار الحديث.

٩٣ - **مصباح الشريعة**: المنسوب للإمام الصادق عليه السلام/ ط ١/ ١٤٠٠هـ/ مؤسَّسة الأعلمي/ بيروت.

٩٤ - **معاني الأخبار**: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر الغفّاري/ ١٣٧٩هـ/ مؤسَّسة النشر الإسلامي/ قم.

٩٥ - **المعجم الأوسط**: الطبراني/ ١٤١٥هـ/ دار الحرمين.

٩٦ - **مفاتيح النجاح**: سلسلة تعلَّم كيف تنجح (١)/ هادي المدرِّسي/ ط ٣/ ٢٠٠٧م/ الدار العربية للعلوم/ مؤسَّسة أحمد للمطبوعات.

٩٧ - **مفردات ألفاظ القرآن**: راغب الأصفهاني/ ت صفوان عدنان داوودي/ ط ٢/ ١٤٢٧هـ/ مط سليمانزاده/ الناشر طليعة النور.

٩٨ - **مقاتل الطالبين**: أبو الفرج الأصفهاني/ ت كاظم المظفَّر/ ط ٢/ ١٣٨٥هـ/ المكتبة الحيدرية ومطبعتها/ النجف الأشرف.

٩٩ - **مكارم الأخلاق**: الشيخ الطبرسي/ ط ٦/ ١٣٩٢هـ/ منشورات الشريف الرضي/ قم.

١٠٠ - **من لا يحضره الفقيه**: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر الغفّاري/ ط ٢/ مؤسَّسة النشر الإسلامي/ قم.

١٠١ - **مناقب آل أبي طالب**: ابن شهر آشوب/ ت لجنة من أساتذة النجف/ ١٣٧٦هـ/ المكتبة الحيدرية/ النجف.

١٠٢ - **منهاج الصالحين**: السيِّد السيستاني/ ط ١/ ١٤١٤هـ/ مط مهر/ قم.

١٠٣ - **منهاج الكرامة**: العلَّامة الحلّي/ ت عبد الرحيم مبارك/ ط ١/ ١٣٧٩ش/ مط الهادي/ انتشارات تاسوعاء/ مشهد.

١٠٤ – **ميزان الحكمة**: محمّد الريشهري/ ط ١/ دار الحديث.

١٠٥ – **نفحات القرآن**: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي/ ط ١/ ١٤٢٦هـ/ مط سليمانزاده/ الناشر مدرسة الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام/ قم.

١٠٦ – **نهج البلاغة**: الشريف الرضي/ ضبط نصَّه الدكتور صبحي صالح/ ط ١/ ١٣٨٧هـ/ بيروت.

١٠٧ – **وسائل الشيعة**: الحرُّ العاملي/ ط ٢/ ١٤١٤هـ/ مط مهر/ مؤسَّسة آل البيت/ قم.

١٠٨ – **وفيات الأعيان**: ابن خلِّكان/ ت إحسان عبّاس/ دار الثقافة/ بيروت.

* * *

الفهرست

* * *

* * *